

الإسلام والأدب

دراسة مقارنة

تأليف

الدكتور مصطفى حلي

الأستاذ بكلية دارالعلوم - جامعة القاهرة

والأستاذ على جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الدعوة

منشورات

محرر د. يحيى بن يوسف

لتنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الفصل الخامس

اليهودية

تمهيد:

إن ما يغنيننا عن الاستطراد في عرض العقائد والأديان باستقصائها جميعاً أننا اكتفينا بتلك التي سادت في أقطار واسعة من العالم واعتنقتها الملايين كالهندوسية والبوذية والزرادشتية وبقي علينا أن نعرض للديانتين اليهودية والنصرانية:

وتمهيداً للحديث عنهما فنود أن نبين أولاً الغرض من هذه الدراسة في دائرتين:

الأولى:

في داخل مجتمعاتنا لتصحيح المفاهيم العقائدية في ضوء حملات التشكيك والتجهيل، حيث تخرجت أجيال وفق المناهج التعليمية التغريبية التي كان من أغراضها: إما أن تصحح العقيدة باهتة منزوعاً منها إيجابية الجهاد والاضطلاع بمسئوليات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من شعب الإيمان الكفيلة بتحقيق المجتمع الإسلامي الذي يعين الأفراد على الحياة وفق تعاليم الإسلام وآدابه، أو إشاعة فكرة التقريب بين الأديان، أي تمييع فكرة ذاتية الحق تفردته دون صور الباطل المتعددة.

الثانية:

في التعامل الخارجي، ونقصد بذلك معرفة نفسيات وأخلاقيات من تتعامل معهم من أهل الكتاب، فلا نخدعنا الكلمات والعبارات المعلنة لأغراض سياسية وأهداف اقتصادية أو دعاوى للتقارب والنقاش وتبادل الرأي لمواجهة الإلحاد، بينما خطط التبشير تمضي قدماً لاجتياح الأقطار الإسلامية في إفريقيا وآسيا. لا ينبغي أن نخدعنا هذه المظاهر ونحول بيننا، وبين الفهم الحقيقي للنفسيات والأمراض، ويصبح المفتاح المؤدي للفهم هو معرفة العقائد^(١) الدينية التي يحملونها في قلوبهم، وتنطوي عليها جوانحهم، فإن

(١) قالت (جولدا مائير ذات يوم: (إن هذه الدولة -إسرائيل- موجودة نتيجة وعد أعطاه لها الله، يكون من السخف أن يطلب الاعتراف بشرعيتها) من مقال بيتر مانسفيلد -الشرق الأوسط- ١/

اليهود -مثلاً- عندما يبالغون في القتل والتمثيل والتعذيب، فإنما ينفذون التعاليم المدونة في كتبهم المقدسة بتأكيد وإصرار، مع التهديد بسوء مصيرهم إن هم أخلوا بتطبيقها^(١) ويعلق الأستاذ كمال عون على ذلك بقوله: (لو كان ما يأتيه اليهود من جرائم بشعة عملاً طارئاً يخالفونه تثبتاً لحكومة أو تأكيداً لسياسة، أو دفاعاً عن النفس، ولو أن تلك القسوة التي يمثلونها كانت من وحي الظروف المحيطة بهم، أو من آثار الولايات التي طالما كرثتهم على مدى تاريخهم، أو من باب المعاملة بالمثل، لرجي أن تزول بزوال الباعث عليها، أما أن تستمد روحها من تعاليم الدين، وتنزل من نفوسهم منزلة اليقين، وتسقاها قلوبهم منسوبة إلى الهداة المرشدين، فذاك الداء الذي لا أمل معه في دواء، ولا يرجى منه شفاء، ما دام للدين أتباع، وما قامت باتباعه تلك التعاليم)^(٢).

يحدث هذا على مسمع من العالم وبصره، وفي العصر الذي راجت فيه -إلى وقت قريب- طنطنة زوال صراع العقائد والأديان، وأنه عصر التسامح.

وأسفرت الأحداث أننا كنا نعيش في أوهايم، فإذا كان الاستعمار العسكري قد انتهى، فإنه يحاول استعادة نفوذه -كما يذكر الدكتور أحمد شلبي- بطريق المبشرين أحياناً وأحياناً بطريق عملائه من السكان الأصليين، ويقول: (وكان كثيراً من السكان الأصليين يتجمعون حول راية الإسلام إبان الصراع للتحرر، إذ كانت المسيحية تعد دين المستعمر، والإسلام دين المقاومة، فلما انتهى الاستعمار خفت صوت التجمع الإسلامي، وقلت شوكته بوصفه أدى مهمته، وانتهت أغراضه في حين زاد التجمع لنشر المسيحية وكثرت وسائله»^(٣).

(١) اليهود من كتبهم المقدس أعداء الحياة الإنسانية ص ٤٣ -كمال أحمد عون- ط. دار الشعب بالقاهرة ١٩٦٩م.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) مقارنة الأديان (٢- المسيحية) ص ٣١ -مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٦٥ وينظر كتابه (الحروب الصليبية: بدؤها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن) مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٦م. وقد صدره بعنوان (تحذير للمسلمين) أورد فيه كلمة نيكسون الرئيس الأسبق لأمريكا بمجلة الشؤون الخارجية عام ١٩٨٥ م قال فيها: (روسيا وأمريكا يجب أن تعقد تعاوناً حاسماً لضرب الصلحوة الإسلامية).

كذلك ينبها الدكتور/ أحمد شلبي إلى آثار عمليات التنصير في بلاد المسلمين التي تستغل جهل بعض المسلمين بدينهم، أو تنتهز فرص الفقر والمرض لجذب المعوزين والمحتاجين، وآثار ذلك سياسياً واقتصادياً، لأن المسيحية التي يعلمها المبشرون ليست المسيحية التي جاء بها عيسى عليه السلام «إنما هي التي نسميها «المسيحية السياسية» التي ترمي -أولاً- إلى ربط دول آسيا وأفريقية بعجلة الغرب عن طريق نشر الدين، وترمي -ثانياً- إلى خلق فكر مسيحي يقف أمام المسلمين وأمام الفكر الإسلامي في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والدولية»^(١).

وتقتضي المناسبة شرح بعض أبعاد الحركة المسكونية المتولدة من الحركة التبشيرية التي تبنها المؤتمر التبشيري العالمي بأدبره سنة ١٩١٠م، وقد حضر هذا المؤتمر ١٢٠٠ مندوب أغلبهم من الإنجليز والأمريكان، من بينهم (بلفور) واعتذر (روزفلت) الرئيس الأمريكي الأسبق في آخر لحظة.

ورأس المؤتمر (جون موت) الأمريكي ومخطط أعمال التبشير في المؤتمرات على مدى نصف قرن، وكان شعاره: تنصير العالم خلال ٣٠ عاماً. ومن أقوال بلفور عقب انتهاء المؤتمر: (إن المبشرين هم ساعد لكل الحكومات في أمور هامة ولولاهم لتعذر عليها أن تقاوم كثيراً من العقبات)^(٢).

وعندما نقوم بدراسة الديانتين اليهودية والنصرانية لا ننسى الصلة الوثيقة بين عقائد اليهود والبروتستانت من النصارى:

وسنبداً أولاً باليهودية مهدين لذلك بإعطاء فكرة عامة عن تاريخ بني إسرائيل.

تاريخ بني إسرائيل:

إن دراسة تاريخ بني إسرائيل يشكل ركناً هاماً في دراسة العقيدة اليهودية والتطورات التي مرت بها، حيث حرفوا الوحي الإلهي بالتوراة الأصلية الضائعة التي أنزلت على موسى عليه السلام، فقد اضطبغت العقيدة اليهودية ببصغة الأحداث على مراحل تاريخ الإسرائيليين، وصاغها الحاخامات في كتبهم، ومنها «التلمود»، و«بروتوكولات صهيون»

(١) المسيحية ص ١٣.

(٢) من خطاب اللواء أحمد عبد الوهاب إلى جريدة الأهرام في ٢٣/٢/١٩٨٩م.

اللتين تعد محتوياتهما المفتاح الحقيقي لفهم شخصية الصهيوني المعاصر. يقول الدكتور على عبد الواحد وافي: «الأسفار الخمسة بالتوراة مكتوبة بأقلام اليهود، وتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار -تاريخهم الطويل»^(١).

كذلك فإن الإحاطة بتاريخهم بوضع الحقائق المحيطة بقضايا كثيرة، فإن من أبرز معالم تاريخهم صور العداء مع الشعوب المختلفة. يقول الأستاذ العقاد في وصفه لطبايعهم: «لا يعرف التاريخ لهؤلاء القوم فترة واحدة جمعتهم على ألفة ووثام مع جيرانهم، فدخلوا مصر ونفر منهم المصريون، وعادوا إلى كنعان ونفر منهم الكنعانيون، وقامت لهم في عهد النبي داود عليه السلام فشغلته الإغارة على جيرانهم، واتقاء الغارة من أولئك الجيران، ثم جاء سليمان الحكيم عليه السلام فبنى لهم الهيكل فثاروا عليه.. ثم انقسموا بعده قسمين: إلى الشمال وإلى الجنوب. وحفظت كتبهم ما قاله الشماليون في الجنوبيين، وما قاله الجنوبيون في الشماليين، ثم سباهم البابليون، وحملوهم إلى أرض بابل، فلم تعتقد الألفة بينهم وبين جيرانهم، وسرحهم «كورش» عاهل الفرس بعد حين.. إلى أن يقول في ختام وصفه لهم: «وجملة تاريخهم بعد العودة من السبي تكرر لهذا التاريخ، ولما تفرقوا في البلاد بعد هدم الهيكل، حدث لهم، في كل بلد ما حدث في البلد الآخر»^(٢).. هذا هو التاريخ العام لهم، وسعود له مرة أخرى مغللين مفسرين.

أما عن القسوة والوحشية في الحروب، فحدث ولا حرج عن بشاعتها مما سجلته التوراة نفسها، كما يقرر العلامة غوستاف لوبون (ويعرف جميع قراء التوراة وحشية

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، الدكتور علي عبد الواحد وافي- مكتبة نهضة مصر بالفجالة - مصر - ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

(٢) الصهيونية العالمية، عباس محمود العقاد ص ٤١ مكتبة غريب بالقاهرة ١٩٦٨ م أما الانقسام المذكور فالمقصود به: لإسرائيل في الشمال ويهوذا في الجنوب وقامت الحروب بينهما وظلت مشتتة الأوزار يرثها خلف عن سلف، حتى لتقرأ في ختام الحديث عن كل ملكين متقابلين في يهوذا وإسرائيل هذه العبارة بنصها (وكان بينهما حرب كل الأيام) وقال تعالى: «بِأَسْمِهِمْ يُبْتَلَوْنَ شَدِيدَةً تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ» [الحشر: ١٤]. وينظر كتاب (اليهود من كتابهم المقدس) للأستاذ كمال أحمد عون، ص ٦٦ / ط دار الشعب عام ١٩٦٩م.

اليهود التي لا أثر للرحمة فيها، وما على القارئ، ليقنع بذلك، إلا أن يتصفح نصوص سفر الملوك التي تدلنا على أن داود كان يأمر بحرق جميع المغلوبين وسلخ جلودهم ونشرهم بالمنشار، وكان الذبح المنظم بالجملة يعقب كل فتح مهما قل، وكان الأهالي الأصليون يوقفون فيحكم عليهم بالقتل دفعة واحدة فيبادون باسم (يهوه) من غير نظر إلى الجنس ولا إلى السن، وكان التحريق والسلب يلزمان سفك الدماء»^(١).

وإذا عرفنا من هذه اللمحات في تاريخ بني إسرائيل بعض الحقائق المتعلقة بنفسياتهم وطبائعهم التي لم تتغير في واقعهم المعاصر، فإننا نريد بعد ذلك الوقوف على بعض الوقائع الهامة في تاريخهم توطئة لاستقراء وقائعها وتحليل أبعادها، بل إن الديانة اليهودية نفسها قد تأثرت بديانات ومعتقدات بابل - بإقرار أحد مراجعهم وهو قاموس التوراة الذي يقرر: «أن تفهم الديانة العبرية مستحيل ما لم تؤخذ بعين الاعتبار، وبشكل مستمر، الديانات والثقافات الأخرى التي نمت وترعرعت في وادي الفرات.. إن الأصول القضائية البابلية، وكذلك الطقوس المعمول بها في المعابد البابلية، يجب أن تؤخذ كعوامل حاسمة التأثير على الشرائع العبرانية في الأصول القضائية والطقوس الدينية»^(٢).

إن هذا الخليط من الديانات والثقافات والطقوس أفقد التوراة وحدة الموضوع لأنها ترجع إلى مصادر متعددة «وهو الرأي الذي يجمع عليه العلماء اليوم سواء كانوا من رجال اللاهوت أو غيرهم»^(٣).

أهم الوقائع التاريخية لبني إسرائيل:

سنقتصر على أهم الوقائع التاريخية لبني إسرائيل بغية الإجابة على السؤال التالي:

(١) اليهود في تاريخ الحضارات ص ٤٧، غوستان لوبون، ترجمة عادل زعيتر - ط. عيسى الباي الحلبي وشركاه ١٩٧٠ م. ولنا نعتقد براءة داود عليه السلام مما نسب إليه، ولعل صاحب هذا النص يحاول تبرئة قومه من هذه الأفعال بنسبتها إلى النبي داود عليه السلام، وقد أشار لوبون إلى أن التوراة كتاب ألف في أدوار مختلفة أشد الاختلاف (ينظر ص ٧٢ من المرجع السابق).

(٢) قاموس التوراة - منشورات سكرينبر - نيويورك ١٩٠٩ م نقلاً عن: التوراة - تاريخها وغاياتها ص ٢٩ - سهيل ديب - ط. دار النفائس ١٤٠٦ هـ.

(٣) التوراة المهيروغليفيه ص ٤٦.

هل أقاموا حضارة مستقرة بفلسطين، وكان لها صفة الاستمرار ومن ثم يصبح دعوى إعادتها دعوى مقبولة على ضوء تاريخ الحضارات التي أقامها غيرها من الأمم؟ وربما كان التطلع إلى إجابة سؤال آخر أهم وهو:

إذا أقيمت لهم دولة مرة أخرى، هل تلتزم بالقيم الأخلاقية وتقيم كياناً حضارياً يفيد البشرية، أم تستأنف نشاطها الهدام العدائي للأمم والشعوب كدأها طوال تاريخها، ومن ثم يصبح مصيرها إلى الزوال ما دامت قائمة على الاستعمار والظلم واغتصاب الأرض- فلسطين- من أهلها الأصليين؟^(١).

إذا بدأنا بتاريخ هجرة يعقوب عليه السلام «الملقب بإسرائيل» من بلاد كنعان «فلسطين وما إليها» إلى مصر بسبب المجاعة، فقد كان الوزير حينذاك بمصر هو يوسف عليه السلام وظلت سلالات بني إسرائيل بمصر تنعم بالحياة هناك، ثم تغير موقف المصريين القدماء حيث اتخذوا من بني إسرائيل خدماً وعبداً.

وبقي بنو إسرائيل كذلك إلى أن أرسل الله -تعالى- إليهم وإلى فرعون وقومه رسولين من نسل «لاوي» «ليفي Levi» -أحد أبناء يعقوب هما موسى وأخوه هارون- عليهما السلام- يدعوانهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الكواكب وأرواح الموتى والملوك والحيوان والنبات... وظل موسى وفرعون وقومهما في مشادات مع فرعون حتى أتيح لهم الخروج من مصر إلى سيناء^(٢).

وخلال أربعين سنة كان بنو إسرائيل «يتيهون» في صحراء سيناء عقاباً لهم على رفض الانصياع إلى أوامر موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدسة وهي فلسطين^(٣).

(١) زوال إسرائيل حتمية قرآنية، الشيخ أسعد التميمي، ط. المختار الإسلامي بمصر.

(٢) يقول الدكتور عمر فروخ بكتابه الإسلام والتاريخ ص ١٦٢ : ١٦٣ - ط. دار الكتاب العربي ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م. يقول: إن الأمة التي تزول حضارتها عن سطح الأرض لا تعود مرة ثانية إلى سطح الأرض وبالحضارة التي زالت معها بينما الأرض تموت (يزوي نباتها ثم يتيسر ويكون حطاماً) ولكنها ترجع في (العام التالي) إلى الحياة بالنبات الذي كان لها في العام السابق).

(٣) باختصار من كتاب (الأسفار المقدسة في الأديان السابقة قبل الإسلام) ص ٧ الدكتور عبد الواحد وافي.

وبعد فناء هذا الجيل الجبان نشأ جيل آخر تمرس بشئون القتال، فأكمل الله -تعالى- دينهم، وأتم عليهم نعمته بعد أن تلقى موسى ﷺ من ربه -عز وجل- التوراة. ثم يأتي الانتصار على يد يوشع خليفة موسى ﷺ بعد وفاته على بلاد «كنعان، فلسطين» واحتلوها بعد إبادة معظم أهلها.

ويرى جوستاف لوبون أنه (لم يكن هنالك فتح بالمعنى الصحيح على الرغم من أقاصيص مؤرخيهم المملوءة انتفاخاً من تعداد الانتصارات، وتقتيل الأهالي وانهباء أريحا) ^(١). ويفسر سبب نجاح بني إسرائيل بانقسام العشائر الكنعانية قائلاً: (ويفسر انقسام العشائر الكنعانية الكبير حقيقة النجاح الذي ناله بنو إسرائيل القليلو الذوق والضعيفو الأهلية للحرب والسيئو السلاح) ^(٢).

ولا يقر جوستاف لوبون لبني إسرائيل بإسهامهم في أية حضارة، معللاً ذلك بأن فلسطين أو أرض الميعاد - لم تكن غير بيئة مختلفة لهم، فالبادية كانت الوطن الحقيقي لهم ^(٣)، ويحدد بداية تاريخ اليهود الحقيقي في عهد ملوكهم وربما يقصد بذلك الفترة التاريخية التي أصبح فيها رؤساؤهم ملوكاً ذوي سلطان كبير ومنهم داود وسليمان -عليهما السلام- بعد أن كان رؤساؤهم السياسيون هم القضاة ^(٤).

أما النكبات التي حلت بهم فإن من أشهرها غارة بختنصر ملك بابل في سنتي ٥٩٦ و٥٨٧ ق. م، بما يعرف في التاريخ «بنفي بابل» حيث ظلوا في الأسر زهاء خمسين عاماً حتى

(١) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ص ٣٤- جوستاف لوبون، ترجمة عادل زعير - ط. الحلبي بمصر ١٩٧٠ م، ويدلل لوبون على مدى تضخيم الانتصارات بقوله: (إن من يقرأ سفر صموئيل وسفر القضاة بشيء من روح النقد يبصر دور العنت الذي جاوزه بنو إسرائيل في استقرارهم بفلسطين، غير أن هذه الأقاصيص نفسها إذا ما نظر إليها من خلال أبخرة الحماسة الدينية ألفت في النفوس وهماً قائلاً إن ذلك الفتح ساطع معجز) ص ٣٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٦ (ولا يقر لهم بإنشاء أمة إلا ببداية شارل- أو طالوت) فاستحقوا أن تفتح لهم صفحة صغيرة من التاريخ الحقيقي الذي كان لهم في العالم.

(٣) المرجع نفسه ص ٣٢، ويقول في مقدمة كتابه (لم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة ولا أي شيء تقوم به حضارة) ص ١٥.

(٤) الأسفار المقدسة للدكتور وافي ص ٨.

تغلب قورش ملك الفرس على البابليين عام ٥٣٨ ق. م، فوقعوا تحت سيطرة الفرس زهاء قرنين كاملين، ثم تحت سيطرة المقدونيين خلفاء الإسكندر الأكبر، ثم تحت سيطرة الرومان. وعندما قاموا بثورة في عهد الإمبراطور أدریان ١٣٥م أخذ الرومان ثورتهم وأخرجوهم من ديارهم، فأصبحوا مشتتين في مختلف بقاع الأرض^(١).

وإذا عدنا إلى الفترة التي سمح لهم قورش بدخول فلسطين، وإعادة بناء هيكلهم، فإنهم لم يتمتعوا خلالها باستقلال حقيقي، لأنهم كانوا «مهددين من قبل ملوك فارس الذين كانت تساورهم الريب حول كل حجر يضاف إلى الأسوار آميرين قساةً بوقف العمل في غير مرة»^(٢).

لهذا حق لجوستاف لوبون في تأريخه للحضارات والأمم أن يستخلص أن استقلال اليهود لم يكن غير اسمي، ويستطرد فيقول «وما فتئ الفرس والأغارقة والرومان يسيطون سلطانهم المرهوب بالتتابع على تلك المملكة الهزيلة، فتميز هذه المملكة غيظاً من هذا الاستعباد المتصل، فلا تجد ما تتعزى به عن عجزها سوى إلقاء فارغ الخطب»^(٣).

ويبدو أن لوبون اكتفى بظاهر الوقائع والأحداث، ولم يتتبع النشاط الخفي لليهود طوال تاريخهم، إذ من دأبهم العمل من وراء الستار وتكوين الجمعيات السرية التي تضم لها الشخصيات من ذوي النفوذ والسلطان، وتعويض النقص في عددهم باستخدام غيرهم من أعضاء الأحزاب والجماعات والأندية.

ولكن المتابع لأنشطتهم الخفية يقف على محاولاتهم الدائبة للاستحواذ على الثروات، والسيطرة على الأمم، وسعيهم الخثيث للوصول إلى مراكز السلطة السياسية فضلاً عن مسؤولياتهم عن الكثير من الثورات والحروب في تاريخ العالم.

ولقد صدرت في السنوات الأخيرة -عقب نكبة فلسطين- الكثير من الكتب والبحوث والدراسات حول دور اليهود في أبرز الأحداث التاريخية والمعاصرة.

ومن الوثائق التي تسربت من أحد اجتماعاتهم السرية، ما يكشف النقاب عن بعض

(١) الأسفار المقدسة: للدكتور وافي ص ٩.

(٢) اليهود في تاريخ الحضارات: جوستاف لوبون ص ٤١.

(٣) المرجع نفسه.

هذا الدور، تلك الوثيقة المتضمنة لخطبة أحد كتاب الحاخامات في روسيا قال فيها: «قد بلينا بسبي بابل، وذقنا به مر العذاب، أما الآن فقد صرنا وحدنا القادرين على كل شيء، هدمت هياكلنا، وحرقت مذابحنا، ولكننا شيدنا منها كثيرًا، وأقمنا بدلها الآلاف المؤلفة، مضى علينا في العبودية ثمانية عشر قرنًا، وخرجنا من وهدة الذل وعلونا على كل الشعوب»^(١).

وعلى أية حال، فقد خدع اليهود الأمم عندما بنوا حركتهم على صلتهم التاريخية بفلسطين، «مع أن هذه الصلة قد انتفت نهائيًا منذ تخريب الإمبراطور تيطس للهيكل سنة ٧٠ م وتشتيتهم في أنحاء الإمبراطورية الرومانية سنة ١٣٥ م في عهد الإمبراطور هادريان»^(٢). كما ظهر من بينهم من يعارض هذا الزعم. يقول أدوين مونتاجو-الوزير البريطاني «١٩١٦-١٩٢٢»: «إنني يهودي، ولكنني أعترف بأنه لا توجد قومية يهودية وأن فلسطين ليس لها علاقة باليهود»^(٣).

ونكتفي بهذا القدر كي نبحث في مصادر العقائد اليهودية ودرجاتها من الصحة والثبوت.

(١) مكائد يهودية عبر التاريخ - عبد الرحمن حنيكة ص ٤١٦ - ط. دار القلم بيروت.

(٢) إسرائيل فتنة الأجيال، إبراهيم خليل أحمد ص ٣٣١ - مكتبة الوعي العربي ١٩٧٠ م.

(٣) نفسه ص ٣٠٨.

مصادر العقائد والأفكار والخطط اليهودية

سنعرض هذا المبحث لمصادر العقائد والأفكار والخطط عند اليهود وهي تتكون من:

أولاً: العهد القديم.

ثانياً: التلمود.

ثالثاً: بروتوكولات حكماء صهيون.

أولاً: العهد القديم:

وستتکلم بإيجاز عن كل واحد منها بادئين بالعهد القديم، مستندين إلى تقسيم الدكتور وافي بكتابه (الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام) حيث قسم العهد القديم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول:

كتب موسى (عليه السلام)، أو الأسفار الخمسة وهي: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر التثنية، وسفر اللاويين، وسفر العدد، وتشتمل هذه الأسفار الخمسة على التوراة في نظر اليهود^(١).

سفر التكوين:

ويقص تاريخ العالم من تكوين السموات والأرض إلى استقرار أولاد يعقوب في أرض مصر، مع تفصيل في قصص آدم (عليه السلام)، وحواء ونوح والطوفان ونسل سام أحد أبناء نوح، وهو الذي انحدر منه شعب بني إسرائيل^(٢) وخاصة إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط.

(١) ولكن الدكتور حسن ظاظا يختصره ثلاثة أقسام: التوراة والأنبياء والكتب (أو أسفار الحكمة) أما التوراة والأنبياء فإنهما يسيران في نسق تاريخي متصل، ويحكيان قصة حياة العبريين منذ البداية إلى عودتهم من السبي البابلي في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. أما القسم الثالث وهو الكتب فإنه تراث أدبي يكثر فيه الشعر والأمثال والقصص. ص ١٢-١٣ من كتابه: الفكر الديني اليهودي- أطواره ومذاهبه. دار القلم- دمشق ١٩٨٧-١٤٠٧م.

(٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، د/ علي عبد الواحد وافي ص ١٤- مكتبة نهضة مصر ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

(٢) سفر الخروج:

يعرض تاريخ بني إسرائيل في مصر، وقصة موسى (عليه السلام) وخروجه مع بني إسرائيل، وتاريخهم في أثناء مرحلة «التيه» التي قضوها في صحراء سيناء واستغرقت أربعين عامًا. وبجانب هذه القصص يشتمل الخروج على طائفة من أحكام الشريعة اليهودية في العبادات والمعاملات والعقوبات.

(٣) سفر التثنية:

شغل معظمه بأحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالحروب والسياسة وشئون الاقتصاد والمعاملات والعقوبات والعبادات.

(٤) سفر اللاويين:

شغل معظمه بشئون العبادات وخاصة ما تعلق منها بالأضحية والقربان والمحرمات من الحيوانات والطيور. وقد نسب هذا السفر إلى اللاويين، وهم نسل «لاوي» Levi لأنهم سداة الهيكل، والمشرفين على شئون الذبح والأضحية والقربان، والقوانين على الشريعة اليهودية.

(٥) سفر العدد:

تضمن إحصائية عن قبائل بني إسرائيل وجيوشهم وأموالهم^(١).

القسم الثاني:

ويسمى بالأسفار التاريخية، وهي اثنا عشر سفرًا تعرض لتاريخ بني إسرائيل بعد استيلائهم على بلاد الكنعانيين في فلسطين، وتفصل تاريخ قضاتهم وملوكهم وأيامهم والحوادث البارزة في شئونهم.

القسم الثالث:

يسمى أسفار الأناشيد أو الأسفار الشعرية، وهي أناشيد ومواعظ معظمها ديني

(١) المرجع نفسه ص ١٥.

أما عن اللغة التي دونت بها التوراة أصلاً فهي ليست العبرية، يرى الدكتور فؤاد حسنين أنها دونت بالمصرية القديمة، بل إن موسى (عليه السلام) وسائر الإسرائيليين لم يتكلموا العبرية بل الآرامية. ص ٥٨ من كتابه: التوراة الهيروغليفية.

وعدها خمسة أسفار.

القسم الرابع:

يسمى أسفار الأنبياء، وعددها سبعة عشر سفرًا يعرض كل منها لتاريخ نبي من أنبياء بني إسرائيل الذين أرسلوا إليهم بعد موسى وهارون^(١).

وبعد عرض هذا البيان الإحصائي، يأتي دور عرض آراء الباحثين بالأعين الفاحصة المدققة.

موجز لآراء بعض الباحثين:

يلاحظ أنه لم يتعرض باحث - قديمًا أو حديثًا^(٢) - في مقارنة الأديان لموضوع مصادر العهد القديم «أو التوراة»^(٣)، إلا وأثبت أنها ليست التوراة الأصلية التي تلقاها موسى عليه السلام بالوحي^(٤).

وفي مقدمة من فحص هذه الأسفار علماء الكنيسة الكاثوليكية أنفسهم. حيث بحث المجمع المسكوني الثاني للفايتكان «١٩٦٢ - ١٩٦٥» هذه المشكلة التي تتعلق بوجود أخطاء

(١) المرجع نفسه ص ١٥ : ١٦.

(٢) وسنعرض في بحثنا هذا لنموذج من كل منهما: أحدهما صاحبه الإمام ابن حزم، والثاني موريس بوكاي.

(٣) يرى الأستاذ إبراهيم خليل أحمد أن (التوراة) كلمة عبرية بمعنى (قرآن) (كتابه محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ص ٣٥)، بينما يفسرها الدكتور أحمد شلي بأنها تعني (الشرعة أو التعاليم الدينية) (كتابه اليهودية ص ٢٣٨).

(٤) وبناء على الدراسة النقدية للفيلسوف اليهودي سبينور أثبتت أن موسى عليه السلام لم يكتب الأسفار الخمسة، بل كتبها شخص عاش بعده بقرون عديدة ص ٢٧١. ويقرر أننا نجهل مؤلفي كثير من الأسفار، ولا نملك هذه الأسفار في لغتها الأصلية ص ٢٥٥ / ٢٥٦ من كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة ترجمة د/ حسن حنفي.

وينظر أيضًا كتاب (التوراة الهيروغليفية) للدكتور فؤاد حسنين علي، حيث عرض لعدة شواهد تؤيد الرأي القائل بأن التوراة التي بأيدينا ليست لموسى عليه السلام ص ٤٢. كذلك يرجح أنها وثيقة الصلة بالعقيدة المصرية التي بشر بها إخناتون ص ٥٩ - ط. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة - بدون تاريخ.

في بعض نصوص أسفار العهد القديم، وأصدر صيغة تشير إلى وجود شوائب به. وفيما يلي نص الفقرة المدرجة بالوثيقة المسكونية الرابعة:

(بالنظر إلى الوضع الإنساني السابق على الخلاص الذي وضعه المسيح تسمح أسفار العهد القديم للكل بمعرفة من هو الله ومن هو الإنسان، بما لا تقل عن معرفة الطريقة التي يتصرف بها الله في عدله ورحمته مع الإنسان غير أن هذه الكتب تحتوي على شوائب، وشيء من البطلان، ومع ذلك ففيها شهادة عن تعليم إلهي)^(١).

وتقول دائرة المعارف الأمريكية: (لقد كان هناك نشاط أدبي بين الإسرائيليين في عهد مبكر فسجلوا تقاليدهم القبلية، وقوانين الجماعة الإسرائيلية، وهذا بجانب الأغاني الشعبية وترانيم العبادة، وما ينطق به الكهنة والأنبياء من كهانة ووصى.. وبعد أن استقرت حياة الطائفة الإسرائيلية بدأت تظهر بالتدريج، وعن غير قصد عناصر من هذه الآداب، اعتبرتها الطائفة ركائز لحياتها العقائدية، وهذا أعطيت هذه العناصر وقاراً خاصاً تفردت به وتحولت بذلك إلى كتابات مقدسة. ولاشك أن الكتاب الأصليين لهذه الكتب لم يدر بخلدهم أن ما كتبوه وسجلوه سيكون له مثل هذه القداسة في حياة الطائفة الإسرائيلية في يوم من الأيام)^(٢).

ونفهم من ذلك أن القوانين والتقاليد وترانيم العبادة والأغاني الشعبية اختلطت بأقوال الأنبياء والكهنة، ثم استمدت قدسيتها من كثرة ترادها جيلاً بعد جيل، وطلعت الروح العامة للجماعة فلم يتوقف البعض للفحص والتمييز بين الوحي وغيره، بينما تثبت الدراسة الفاحصة لنصوص كثيرة بالأسفار الخمسة من أول وهلة - كما فعل الأستاذ ديدات - أنها ليست من عند الله تعالى، وقد أثبت ذلك في أكثر من سبعمئة جملة (وما عليك - هكذا يوجهنا - إلا أن تفتح

(١) النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام ص ٢٦٢، للمهندس / أحمد عبد الوهاب - مكتبة وهبة بمصر ١٤٠٠ هـ / ١٩٧٩ م.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٥٥.

وإلى نفس المضمون تشير دائرة المعارف الفرنسية (لاروس) فتقول تحت كلمة (توراة): (العلم العصري ولا سيما النقد الألماني قد أثبت بعد أبحاث مستفيضة في الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات، أن التوراة لم يكتبها موسى، وأنها عمل أحبار لم يذكروا اسمهم عليها، ألفوها على التعاقب معتمدين في تأليفها على روايات سمعية) ص ٩٩ من كتاب اليهود من كتابهم المقدس كما لعون.

هذه الأسفار عشوائياً وسوف ترى:

(وقال الرب لموسى) سفر الخروج ١٣: ٦.

(وكلم الرب موسى) سفر الأحبار ١١: ١.

(فتكلم موسى بين يدي الرب) سفر الخروج ١: ٦.

(فقال موسى للرب) سفر العدد ١١: ١١.

(ثم قال الرب لموسى) سفر التثنية ٣١: ١٤.

ومن الواضح هنا أن هذه ليست كلمات الرب، ولا كلمات موسى عليه السلام فالضمير هنا هو ضمير الغائب كما هو واضح، مما يعني أن هذا الكلام لشخص ثالث يسجل أحداثاً سمع عنها^(١).

بمثل هذا المنهج تعرض علماء كثيرون مسلمون وغير مسلمين للتوراة بالنقد العلمي، كالتيثبت من صحة النصوص بالمقارنة بين السابق واللاحق، أو مراجعة التسلسل للواقعات التاريخية، أو التحقق من مدى الاحتفاظ بالنسخة الأصلية التي كتبها موسى عليه السلام، أو الموازنة بين بعض النصوص وبين الديانات والثقافات التي كانت سائدة في بابل^(٢).

(١) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ ص ٣٩، أحمد ديدات، ترجمة نورة أحمد النومان- ط. مكتبة أبي القاسم / جدة.

ويأتي الدكتور فؤاد حسنين أيضاً بعبارات أخرى تتعلق بموسى عليه السلام يستحيل صدورها منه أمثال: (وأما الرجل موسى فكان حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض) أو (وأيضاً الرجل موسى كان عظيماً جداً في أرض مصر في عيون فرعون وعيون الشعب) كذلك الخبر الخاص بوفاته (فمات هناك موسى عبد الله في أرض موآب حسب قول الله ودفنه في الخواء في أرض موآب مقابل..) ص ٤٢ من كتاب (التوراة المهيروغلبية).

(٢) يقول الأستاذ "موريس فودن" ناظر المدرسة العليا في باريس والمدرس في القسم الديني بها عن التوراة: لو سألنا في أي وقت جمع كل كتاب من كتب التوراة وفي أي حال وظروف، وبأفلام من كتب، لا نجد أحداً يجيبنا عن تلك الأسئلة وما شامها إلا بأجوبة متخالفة جداً، وإن كافة ما كتب مشكوك في كتابه، وإن كل ما في التوراة هو عبارة عن خليط من كتابات عديدة جداً جمعت في أجيال متباعدة، وأن المذاهب العلمية ترفض أغلب أقوال العلماء النقل التي هي أساس = اعتقاد اليهود والنصارى، وتقوض ببيان ادعاء السابقين وتبرئ الأنبياء من تلك الكتابات، وأن

والحق أن كثرة المؤلفات الناقدة للتوراة توقعنا في حيرة: فأياها نختار وأيها ندع؟ وتزداد حيرتنا إذا كان أصحابها من أتباع اليهودية أو النصرانية أنفسهم فضلاً عن من أسلم من كبار علمائهم^(١).

ومن بين هذه المؤلفات والبحوث سنقتصر على انتقاء بعض آراء كل من الإمام ابن حزم «المتوفى ٤٥٦هـ» بكتابه «الفصل في الملل والنحل»، والطبيب الفرنسي المعاصر موريس بوكاي بكتابه «القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم»: سنعرض باختصار لنقد الإمام ابن حزم للعقيدة اليهودية ومصادرها، وهو يعد من أبرز العلماء الذين استخدموا المنهج النقدي لمصادر المعلومات للعقائد كاليهودية والنصرانية والمجوسية وغيرها، بعد عرضها على الأدلة العقلية:

تصحيح هذه الكتب كالنقش في الماء أو البناء على الهواء، ولكن ما الحيلة ونحن من مائة سنة حيارى بين أسانيد يحو بعضها بعضاً، فالجديد يناقض سابقه والسابق يناقض الأسبق، وقد تناقض أجزاء الدليل الواحد، وأيسنا من الوصول إلى معرفة صاحب الكتاب الحقيقي.. وقد صدق على شهادة الأستاذ موريس فودن ٥٠٠ عالم في جمعية دار المعارف الكبرى بباريس. من كتاب (محمد ﷺ نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن) ص ٧١: ٧٢، للمستشار محمد عزت الطهطاوي - مكتبة النور / مصر الجديدة ١٩٨٦م.

(١) على سبيل المثال :

الدين والدولة: علي بن ربن الطبري - تحقيق عادل نويهض.
في إثبات نبوة محمد ﷺ: دار الآفاق الجديدة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م.
رجال ونساء أسلموا (٣ حلقات)، عرفات كامل العشي - دار القلم - الكويت ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م.
محمد ﷺ في الكتاب المقدس - للبروفسور عبد الأحد داود ترجمة فهمي شا - مراجعة أحمد محمد الصديق - رئاسة المحاكم الشرعية بقطر ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.
إفحام اليهود. للسموأل بن يحيى المغربي - تقديم وتحقيق د/ محمد عبد الله الشرقاوي، دار الهداية بمدينة نصر / مصر ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م.

محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن لإبراهيم خليل أحمد - مكتبة الوعي العربي.
حوار في المسجد النبوي، رزق هية - مكتبة التراث الإسلامي بمصر ١٩٨٣ م ويحكي قصة إسلام الأستاذ/ زكي عريبي عميد اليهود في مصر.

رسالة في اللاهوت والسياسة. سبينوزا، ترجمة وتقديم د/ حسن حنفي - مراجعة د/ فؤاد زكريا.

يقول ابن حزم: (نذكر إن شاء الله -تعالى- ما في الكتب المذكورة من الكذب لا يشك كل ذي مسكة تمييز في أنه كذب على الله -تعالى- وعلى الملائكة -عليهم السلام- وعلى الأنبياء -عليهم السلام-، إلى أخبار أوردوها لا يخفى الكذب فيها على أحد كما لا يخفى ضوء النهار على ذي بصر»^(١).

ويرى أن الإصرار على الاستمسك بما في كتبهم من أكاذيب وأباطيل يرجع إلى مكابرتهم لعقولهم، وغلبة أهوائهم عليهم وتقليدهم لأسلافهم وعصبية واستدامة لرياسة دنيوية.

ولا يفوته المسارعة بالمقارنة بين مصادرهم ومصادر الإسلام الثابتة اليقينية فيقول: (نحمد الله كثيراً على ما هدانا له من الإسلام ونحلة السنة واتباع الآثار الثابتة ونسأله تبييناً على ذلك، وأن يجعلنا من الدعاة إلى رحمته ورضوانه عند لقائه ... آمين»^(٢).

ويعد الإمام ابن حزم من أوائل علماء مقارنة الأديان، حيث رسم المنهج ووضع الأساس، كما ناقش بعض علمائهم وأفحمهم بالأدلة العقلية والبراهين المنطقية^(٣) وسنلخص أبرز الانتقادات التي طعن بها التوراة التي بأيدي اليهود، حيث حرفت وبدلت.

أما التوراة الحق التي أنزلها الله -تعالى- على موسى عليه السلام، فإننا معشر المسلمين نقرها (لأنه -تعالى- أخبرنا بذلك في كتابه الناطق على لسان رسول الله ﷺ ونقطع على أنها ليست هذه التي بأيديهم بنصها»^(٤).

وأول ذلك أن التوراة التي بأيدي «السامرية» غير التوراة التي بأيدي سائر اليهود، يزعمون أنها المنزل، ويقطعون أن التي بأيدي اليهود محرفة مبدلة، وسائر اليهود يقولون إن التي بأيدي السامرية محرفة ومبدلة.

ويستند أول ما يستند إلى نص في التوراة منسوب إلى الله -تعالى- بقوله «أصنع بناء آدم كصورتنا كشبهنا».

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ١ ص ١١٦، ط. مكتبة المثنى ببغداد.

(٢) المرجع نفسه ص ١٧.

(٣) انظر على سبيل المثال ص ٢٠٥ حيث يقول (ولقد فضحت بهذا وجه بعض علمائهم).

(٤) المرجع نفسه ص ٢٠٣.

ويرى ابن حزم أنه لو لم يقل إلا كصورتنا لكان له معنى صحيح، وهو أن نضيف الصورة إلى الله - تعالى - إضافة الملك والخلق، لكن قوله: كشبهنا منع التأويلات وأوجب شبه آدم لله عز وجل، وهذا يعلم بطلانه ببديهة العقل.

وفي النص الذي يتناول لوط عليه السلام وعلاقته بابنتيه، يروي الإمام القصة الواردة بالتوراة، ويعلق عليها بوصفها فضائح وسوآت تقشعر من سماعها جلود المؤمنين بالله تعالى، العارفين بحقوق الأنبياء - عليهم السلام - ^(١).

وكذلك وصفه لإطلاقهم على نبي الله يعقوب عليه السلام، أنه خدع أباه وغشه بأنه من الفضائح والأكذوبات وأشياء تشبه الخرافات، لأن هذا التصرف مبعد عمن فيه خير من أبناء الناس مع الكفار والأعداء، فكيف من نبي مع أبيه النبي أيضاً؟ ^(٢).

ويلحق نقده للتوراة بنقده لسائر كتبهم التي يضيفونها إلى الأنبياء - عليهم السلام - :
منها كتاب يوشع، ففيه براهين قاطعة بأن بعض متأخريهم ألفه لهم، حيث يتضمن نصاً يفيد بناء سليمان بن داود - عليهما السلام - لبيت المقدس.

«ومن المحال الممتنع أن يخبر يوشع أن سليمان عليه السلام بنى بيت المقدس ويوشع قبل سليمان بنحو ستمائة سنة» ^(٣).

(١) المرجع نفسه ص ١٣٣.

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٧.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٠٤، ويرى الدكتور حسن حنفي: إن النقاد المسلمين اتبعوا هذه الوسيلة للكشف عن تلفيق الروايات، وأن الغالب على دراسات المسلمين هي إثبات التناقض في النصوص والتحريف في العقائد، وقد ضرب على ذلك مثلاً بـابن حزم (مقدمته لكتاب: رسالة في السياسة واللاهوت لسينوزا ص ٢٧). وهذه المناسبة يحسن توضيح معنى الحديث النبوي المتصل بهذا الموضوع، ومصدرنا كتاب التوحيد للإمام ابن خزيمة حيث قال: أما الحديث (إذا ضرب أحدكم وجهك في وجهه فإن الله خلق آدم على صورته) ص ٢٦، أولاً (لا يقولن أحدكم لأحد قبح الله وجهك ووجهاً أشبه وجهك فإن الله خلق آدم على صورته، يقول الإمام ابن خزيمة في شرحه للحديث: (أراد إن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب الذي أمر الضارب باجتناب وجهه بالضرب) ص ٢٦ من كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل للإمام ابن خزيمة، تحقيق د/ محمد مصطفى الأعظمي - ط دار الكتب السلفية بمصر ١٤٠٣ هـ. =

ويفحص الإمام ابن حزم بعناية نصوص الكتاب الذي يسمونه (الزبور) ويتضمن المزامير المنسوبة إلى داود عليه السلام، ويبين مخالفتها الصريحة لأدلة العقل الصحيحة، منها في المزمور الأول: (قال لي الرب: ابن اليوم ولدتك) ويتساءل الإمام في هذا الموضع فيقول: (فأي شيء تنكرون على النصارى في هذا الباب. ما أشبه الليلة بالبارحة)؟.

وفيه في المزمور الرابع وأربعين منه «عرشك بالله في العالم وفي الأبد قضيت العدل قضيت ملكك أحبت الصلاح وأبغضت المكروه، وكذلك دهنتك إلهك بزيت القرع بين إشراكك»^(١).

=وفي رواية (لا تقبحوا الوجه فإن ابن آدم خُلِقَ على صورة الرحمن) ص ٢٧ ص ٢٨ - أو معناه عند الإمام ابن خزيمة أن إضافة الصورة للرحمن في هذا الخبر إنما هو إضافة الخلق إليه لأن الخلق يضاف إلى الرحمن إذا خلقه الله وكذلك الصورة تضاف إلى الرحمن لأن الله صورها ألم تسمع قوله عز وجل ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [قمان: ١١]؟ فأضاف الله عز وجل الخلق إلى نفسه إذ الله تولى خلقه، وكذلك قوله عز وجل ﴿هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣] أضاف الله النافاة إلى نفسه وقال ﴿تَاكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ...﴾ فأضاف الله الأرض إلى نفسه إذ تولى خلقها فبسطها... إلى أن يقول (فما أضاف الله إلي نفسه على مضافين : إحداهما إضافة الذات ، والأخرى إضافة الخلق فتفهموا هذين المعنيين لا تغالطوا).

ب: فمعنى الخبر إن صَحَّ عن طريق النقل مسندا - فإن ابن آدم خلق على صورة التي خلقها الرحمن حين صور آدم ثم نفخ فيه الروح، قال الله عز وجل (خلقكم ثم صوركم). ص ٢٨ من كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل للإمام ابن خزيمة.

(١) ويقول ابن حزم (هذه سؤاة الأبد ومضيعة الدهر وقاصمة الظهر وإثبات إله آخر على الله -تعالى- دهنه بالزيت إكراماً له وبجازاة على محبته الصلاح وإثبات إشراك الله تعالى) ص ٢٠٥.

ويلاحظ أن الفصل الثاني والعشرين من سفر الخروج يتكلم عن حكم الآلهة مرارا وتكراراً ولا سيما في المباهلة (وإذا لم يوجد السارق يقدم صاحب المنزل إلى الآلهة ليحلف).. (وكل دعوى جنائية في الآلهة ترفع.. ومن تحكم الآلهة عليه يعرض صاحبه مثلين).. من كتاب (التوراة بين الوثنية والتوحيد) سهيل ديب- دار النفائس ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

وما زال اليهود إلى الآن يدعون مع الله آلهة أخرى (انظر: وثيقة الحاخام جوهاشيم برن، الذي شرح بها وثائق المخطط السري اليهودي الأخير) وقال: [أيها الرفاق، هنيا لكم قرب تحقق وعود (يهوه) و(أدوناري) الكبير رب الأرباب، هذه الوعود هي أكثر مما نستحق، فلتنزع إلى الآلهة لتستجيب دعائنا). من كتاب (مكايد يهودية- عبد الرحمن حبنكة ص ٣٩٥).

ويتضح من هذا النص إثبات إله آخر وهذا دين النصارى، وبعده يأتي نص آخر، يخاطب الله -تعالى: (وقفت زوجتك عن يمينك وعقامها من ذهب، أيتها الابنة اسمعي وميلي بأذنيك وأبصري، وأنسي عشيرتك وبيت أبيك، فيهواك الملك وهو الرب والله فاسجدي له طوعاً).

وعندئذ يعلق ابن حزم مبدئياً تعجبه الشديد على النص والسابق عليه فيقول: «ما شاء الله كنا أنكرنا الأولاد فأتونا بالزوجة والأختان، تبارك الله فما نرى لهم على النصارى فضلاً أصلاً ونعوذ من الخذلان»^(١).

ويمضي في نقده على هذا المنوال مستنداً إلى عقيدة التوحيد والتنزيه لله - سبحانه وتعالى.

ثم ينتقل إلى عرض بعض النصوص التي تتصل بالإيمان بالآخرة والبعث، فمنها ما يتفق مع قول الملحدين الدهرية مثل «الناس كالشعب إذا خرجت أرواحهم نسوا ولا يعلمون مكانهم ولا يفهمون بعد ذلك».

ويرى الإمام ابن حزم أن دين اليهود يميل إلى هذا ميلاً شديداً؛ لأنه ليس في توراتهم (ذكر معاد أصلاً ولا لجزاء بعد الموت وهذا مذهب الدهرية) ثم يستنتج من أن ما حوته كتبهم من عقائد باطلة يصبح حجة لنا على قيامهم بالتبديل والتحريف، ومعجزة لنبينا ﷺ^(٢).

وقد اطلع ابن حزم على ما كتبه الأخبار في «التلمود» مبيناً أن اليهود أخذوا دينهم من الأخبار وإليهم يرجعون في نقلهم لتوراتهم، وكتب الأنبياء وجميع شرائعهم، وهم الذين بدلوا الدين بأنهم عملوا لهم هذه الصلوات عوضاً مما أمر الله -تعالى- به من القرايين، ثم يسرد بعض النصوص التي تعد حقاً من الخرافات التي كتبها الأخبار، وقد حصنوا أنفسهم بقداسة خاصة ومكانة يرتفعون بها حتى على الله تعالى، (فمما أجمع أخبارهم لعنهم الله أن من شتم الله تعالى، وشتم الأنبياء يؤدب، ومن شتم الأخبار يموت أي: يقتل)^(٣).

ومن أعجب الوقائع التي يسجلها ابن حزم ما سمع علماءهم يذكرونه ولا يتناكرونه أن

(١) المرجع نفسه ص ٢٠٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٠٧.

(٣) المرجع نفسه ص ٣١٧.

أجبارهم اتفقوا على أنهم (رشوا بولس البنياميني -لعنه الله- وأمره بإظهار دين عيسى عليه السلام) وأن يضل أتباعهم ويدخلهم إلى القول بالوحيته، وقالوا له نحن نتحمل إشك في هذا، ففعل وأبلغ من ذلك حيث قد ظهر^(١).

ثم يقارن بين ما أحدثه «بولس» في النصرانية وما حاوله عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوء اليهودي الحميري لعنه الله، ليضل من أمكنه من المسلمين «فنهج طائفة رذلة كانوا يتشيعون في علي عليه السلام أن يقولوا بالوحيية علي»^(٢).

وإن كان اليهود قد نجحوا عن طريق بولس في إفساد دين النصارى فإنهم لم يحققوا مآربهم في الإسلام، إذ لم يؤثر ابن سبأ إلا في قلة ضئيلة، وهم الباطنية والغالية من الشيعة.

وكان العاصم من الوقوع فيما وقع للنصارى سلامة منهج المسلمين في القبول والتلقي، حيث إننا «لا نصدق في ديننا بشيء أصلاً إلا ما جاء في القرآن وما صح بإسناد الثقات ثقة عن ثقة، حتى يبلغ إلى رسول الله ﷺ فقط وما عدا هذا فنحن نشهد أنه باطل»^(٣).

ويتضح لنا مما تقدم براعة الإمام ابن حزم في نقده لنصوص الكتب الدينية عند اليهود، ومن ثم فإنه قد سبق عصره من حيث وضع المنهج في نقد نصوص الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى، بينما لم يعرف علماء الغرب هذا المنهج إلا أخيراً جداً في العصر الحديث. وفي هذا الصدد: يقول موريس بوكاي: (إن معالجة الكتب المقدسة من خلال علم الدراسة النقدية للنصوص شيء قريب العهد في بلادنا، ففيما يخص العهد القديم والعهد الجديد، ظل الناس يقبلونها على ما هما عليه طيلة قرون عديدة)^(٤).

ويعرض بعد ذلك للنتائج التي ترتبت على استخدام علم نقد النصوص، حيث تم اكتشاف مشاكل مطروحة وخطيرة، منها ما توصل إليه بعض المؤلفين من المتناقضات والأمور البعيدة عن التصديق لكل من يريد أن يحتفظ بسلامة مقدرته على التفكير وحسه

(١) المرجع نفسه ص ٢٢٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٢٢.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٢٤.

(٤) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم -دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة تأليف

موريس بوكاي الترجمة العربية -دار المعارف بمصر ١٩٨٧ م ص ٩.

الموضوعي، وكان من المأمول التصريح بوجود هذه المتناقضات، ولكن نرى الدكتور بوكاي يأسف حقاً لذلك الموقف الذي يهدف إلى تبرير الاحتفاظ في نصوص التوراة والإنجيل ببعض المقاطع الباطلة خلافاً لكل منطق. ويختم هذا الأسف بقوله: (ومع ذلك فقد أثبتت التجربة أنه إذا كان بعضهم قادراً على فضح مواطن الضعف من هذا النوع، فإن الغالبية من المسيحيين لم تدرك حتى الآن وجود هذا الضعف، وظلت في جهالة تامة من أمر ذلك التناقض مع المعارف الدنيوية المشهورة التي تعتبر غالباً من المعارف الأساسية جداً)^(١).

وكشأن إمامنا ابن حزم، أقدم الدكتور موريس بوكاي على عقد مقارنة بين نصوص كتب اليهود والنصارى وبين القرآن الكريم، وخلص منها إلى التأكد بأن القرآن هو الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ عن طريق جبريل - عليه السلام - وقد كتب فور نزوله، ويحفظه ويستظهره المسلمون عند الصلاة، وأنه لا يحتوي على مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث.

وكان لدى هذا العالم من الأمانة والشجاعة الأدبية بأن يصرح بذلك معلناً عن نتيجة بحثه المنهجي الموضوعي، فقال: (لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق، وبموضوعية تامة بحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، وأن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظواهر الطبيعية، ولكن معرفتي كانت وجيزة. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي، استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث)^(٢).

(١) المرجع نفسه ص ١٠.

(٢) المرجع نفسه ص ١٣. وتأمل في بيان ذلك قوله تعالى: ﴿سُورِهِمْ آيَاتًا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] ونحن نرى بوكاي في اتباعه هذه الطريقة في البحث عن الحق مستضيئاً بنور الفطرة، لينقذ نفسه من أسر البيئة وأغلال التقاليد حوله، بخلاف أتباعه الذين خضعوا لها. ويصور لنا الدكتور وولتر أوسكار لند برج التجربة التي يمر بها أثناء مراحل طلب العلم فيقول: (وحتى عندما تتحرر عقول الناس من الخوف، فليس من السهل أن تتحرر من التعصب والأهواء، ففي جميع المنظمات الدينية المسيحية تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم في إله هو صورة الإنسان، بدلا من الاعتقاد بأن الإنسان قد خلق خليفة لله على=

وسنعرض فيما يلي بإيجاز لنقده للتوراة في ضوء المعارف الحديثة:

نقد موريس بوكاي للتوراة في ضوء المعارف الحديثة:

تتكون التوراة من خمسة أجزاء كما بينا آنفاً حسب عقيدة اليهود وهي: التكوين، والخروج، والسفر اللاوين، والسفر العدد، وسفر التثنية.

وتتناول التوراة موضوعات كثيرة، منها أصل الكون وحتى دخول الشعب اليهودي أرض كنعان، الأرض الموعودة بعد الخروج من مصر، وبالتحديد حتى موت موسى عليه السلام. وتستخدم حكاية هذه الأحداث كإطار لعرض التدابير الخاصة بالحياة الدينية، والحياة الاجتماعية للشعب اليهودي، ومن هنا جاء اسم التوراة، أي الناموس^(١).

وظلت اليهودية والمسيحية لقرون طويلة تعتبر أن موسى عليه السلام هو كاتب التوراة اعتماداً على ما ورد فيها من أقوال مثل قول الرب (اكتب هذا تذكراً في الكتاب)، أو ما ورد في سفر العدد (وكتب موسى مخارجهم برحلاتهم حسب قول الرب)، أو الآية الواردة في سفر التثنية (وكتب موسى هذه التوراة).

وابتداء من القرن الأول قبل الميلاد، كان هناك دفاع عن الرأي القائل بأن موسى عليه السلام قد كتب الأسفار الخمسة كلها، أما اليوم فقد هجر هذا الفرض تماماً، وبدأ العلماء يشككون فيه، حيث رأى أحدهم استحالة أن يكون موسى عليه السلام قد كتب بنفسه كيف

= الأرض. وعندما تنمو العقول بعد ذلك وتندرب على استخدام الطريقة العلمية، فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تسمح مع أسلوبهم في التفكير، أو مع أي منطق مقبول. وأخيراً عندما تفشل جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة، وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنقد فكرة الله كلية). من كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ص ٣٨ ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان، مراجعة وتعليق د/ محمد جمال الدين الفندي.

ونحن نحمد الله -تعالى، على أن علماءنا لا يمرون بهذه الأزمات؛ لأن الحقائق العلمية الكونية والطبيعية لا تتعارض مع الآيات القولية -أي القرآن الحكيم- كما أثبت بوكاي، وكما دلنا على ذلك علماءنا من قبل، ومنهم الإمام ابن القيم.

(١) المرجع نفسه ص ٢٦.

مات^(١).

وقد قام (ريشار سيمون) بدراسة هذه القضية بكتابه (التاريخ النقدي للعهد القديم) نشره ١٦٧٨م، وفيه يؤكد على الصعوبات الخاصة بتسلسل الأحداث والتكرارات وفوضى الروايات وفوارق الأسلوب في أسفار موسى الخمسة.

ثم قام جان استروك ١٧٥٣م بدراسة أخرى نشرها على الملأ بناء على ملاحظة أساسية هي: وجود نصين جنباً إلى جنب في سفر التكوين يحتوي كل منهما على خاصية مختلفة في تسمية الرب: إذ يسميه أحدهما ييهوه، ويسميه الثاني بألوهيم^(٢).

وهناك أخطاء أخرى ذات طابع تاريخي اكتشفها عدة مفسرين يهود ونصارى حيث وقفوا على عدة تعديلات مختلفة وإضافات لاحقة للنصوص الأصلية:

وعلى سبيل المثال قدم الأدب ديفو، بالنسبة لأسفار موسى الخمسة وحدها في المقدمة العامة التي تسبق ترجمته لسفر التكوين، قدم تفصيلاً بكثير من النقاط المتنافرة التي لا يبدو لنا - أن الفكرة العامة التي نستطيع الخروج بها من هذه الأخطاء، هو أنه لا

(١) المرجع نفسه ص ٢٧. ويذكر الدكتور حسن حنفي أن آباء الكنيسة ظنوا قديماً أن موسى عليه السلام هو مؤلف التوراة، وظل هذا الاعتقاد في العصر الوسيط حتى جاء سبينوزا ولودز وشكاً في نسبة الأسفار إلى موسى عليه السلام، ثم ظهر نقاد كثيرون حتى أتى فلاورن وأعلن نظريته المشهورة القائمة على المصادر الأربعة متأثراً بأفكار هيكل عن تطور التاريخ. (مقدمة كتاب: رسالة في اللاهوت والسياسة لسبينوزا ص ٢٣ / ٢٤) وظهر نقاد كثيرون بفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة والدانمارك.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٨، ٣٩.

ويرى الدكتور حسن ظاظا أن النص التوراتي ليس له سياق موحد بل يرتد إلى أربعة ينابيع هي:

١- مصدر يحمل اسم (يهوه) علماً على رب العبريين الوطني القديم ورواته كانوا من الجنوب.

٢- مصدر يحمل اسم (ألوهيم) علماً على الله باسمه المنتشر في أسباط إسرائيل بالشمال.

٣- مصدر تشريعي بحث.

٤- حواشي الكهنة (الفكر الديني اليهودي ص ٢٦ - ٢٧).

٥- كذلك يذكر الدكتور فؤاد حسنين أن نقاد التوراة أدركوا منذ قرنين أن قصص سفر التكوين تختلف فيما بينها حول لفظ الجلالة، فأحياناً تستخدم لفظ (يهوه) وأخرى اسم (ألوهيم) وأدى ذلك إلى القول باعتماد التوراة على مصدرين مختلفين. التوراة المهيروغليفيه ص ٤٦.

يجب أن نأخذ النص مأخذاً حرفياً^(١).

وقد خلص موريس بوكاي في دراسته القيمة إلى القول بأن سفر التكوين يتضمن أكثر المتناقضات وضوحاً مع العلم الحديث ويحصرها في ثلاث نقاط جوهرية:

(١) خلق العالم ومراحله.

(٢) تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض.

(٣) رواية الطوفان^(٢).

أولاً: خلق العالم ومراحله:

(أ) نتحدث بعض الآيات في الإصحاح الأول عن «النور» الذي يضيء نهراً في صباح اليوم الأول من أيام الخلق كما تروي التوراة، بينما لا تذكر التوراة «أنوار» السموات في سفر التكوين إلا فيما يتعلق بخلق اليوم الرابع.

يبدو من غير المنطقي هنا أن يوجد النور أولاً، ولأن الليل والنهار لا يتعاقبان إلا بعد وجود الأرض ودورانها تحت نجمها الخاص بها أي: الشمس^(٣) فكيف يظهر ضوء الشمس أولاً -أي: النور- بينما لم تخلق إلا في اليوم الرابع حسب رواية التوراة؟

(ب) تحتوي إحدى الفقرات التي نتحدث عن ترتيب المخلوقات على مزاعم لا يمكن قبولها في ضوء العلم الحديث، إذ يشير سفر التكوين إلى خلق الحيوانات الأرضية في اليوم السادس بعد ظهور الطيور، وهذا الأمر غير مقبول على ضوء المعلومات العلمية الحديثة كما يرى موريس بوكاي.

(ج) وتنتهي رواية الخلق بالنص على أن الله -تعالى- فرغ في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع «تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً».

(١) المرجع نفسه (٣) ص ١٣٨.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٠ والواقع أن الدراسة النقدية لم تقتصر على استروك والأب ديفو حيث توالى العلماء والباحثون في نقد التوراة، الأمر الذي أدى بأن أنشأ البابا (لجنة التوراة) عام ١٩٠٦ م من أجل الحد من النظريات النقدية، ومع هذا توالى واستمرت (ينظر تعليق د/ حسن حنفي بكتاب سبينوزا رسالة في اللاهوت والسياسة) ص ٢٣ / ٢٤.

(٣) المرجع نفسه ص ٤١.

ولا نستطيع المرور على هذا القول بغير تعليق، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وقد ردّ على هؤلاء المغضوب عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُثُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

وبيت القصيد في النقد الموجه إلى النص التوراتي يتلخص في أنه يقسم روايته إلى أيام بالمعنى الدقيق، أيام الأسبوع الذي نعرفه ونقدره في حياتنا الدنيوية، بينما من المعروف تمامًا من وجهة النظر العلمية في أيامنا أن تشكل الأرض والكون قد تم على فترات زمنية شديدة الطول، لا تسمح المعطيات الحديثة بتحديد مدتها حتى تقريباً.

لذلك فإن تعاقب الأحداث في النص الكهنوتي يناقض المعلومات العلمية الأصيلة^(١).

وقد تنبه الأستاذ موريس بوكاي- عندما قارن بين الأيام في التوراة والقرآن -إلى أنها تعني (مراحل)، أو (فترة زمنية) وليس الأيام المتداولة بيننا في الدنيا. ودليله على ذلك آيات منها ما قاله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، وقوله عز وجل ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، ويقرر بوكاي في النهاية: (فمن حقنا إذن أن نقبل، فيما يتعلق بخلق العالم، بقول القرآن ضمناً بفترات زمنية طويلة رقمها بالعدد ٦، ولاشك أن العالم الحديث لم يسمح للناس بتقرير أن عدد المراحل المختلفة للعمليات هو ستة مراحل، ولكنه قد أثبت بشكل قاطع أنها فترات زمنية طويلة جداً تتضاءل إلى جانبها الأيام كما نفهمها، وتصبح شيئاً تافهاً)^(٢).

(١) المرجع نفسه ص ٥٤ والكهنوتي نسبة إلى الكهنة الذين أعادوا روايتي الخلق على مشيئتهم.

(٢) المرجع نفسه ص ١٦٠. (يقول سبينوزا: (إننا نرى معظم اللاهوتيين وقد انشغلوا بالبحث عن وسيلة لاستخلاص بدعهم الخاصة وأحكامهم التعسفية من الكتب المقدسة بتأويلها قسراً، وتبديير هذه البدع بالسلطة الإلهية ويصفهم بأنهم الذين لم يتورعوا عن تحريف الكتاب في مواطن كثيرة). ص ٢٤١ من كتاب (رسالة في اللاهوت والسياسة) وبمناسبة الحديث عن التأويل كأحد الطرق لتحريف النصوص بطريقة غير مباشرة، فإننا نرى لزماً علينا تصحيح الخطأ الذي وقع فيه الدكتور حسن حنفي في مقدمته لكتاب (سبينوزا) ص ٤٣ عندما عرض لسنهج ابن ميمون الفيلسوف اليهودي ومؤداه (إذا تعارض العقل مع النقل «المعنى الحرفي») وجب تأويل النص ورأى تدعيمه بنص لابن تيمية ظن أنه يؤيد هذا المنهج. ويلزمنا تصحيح النص المقتبس بسبب=

ثانيًا: تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض:

يحدد التقدير العبري الوارد بالعهد القديم تاريخ خلق العالم بسبعة وثلاثين قرنًا قبل الميلاد، وهو مخالف تمامًا لما نعرفه بواسطة العلم الحديث، إذ من العسير معرفة ما يتعلق بخلق الكون، وكل ما يمكن تحديده على وجه التقريب هو تكون النظام الشمسي تقريبًا بأربع مليارات ونصف من السنوات^(١).

كذلك أخطأت التوراة في سفر التكوين عندما حددت الفترة الزمنية التي تفصل بين إبراهيم وآدم -عليهما السلام- فأدت إلى الزعم بأن آدم عليه السلام كان قبل المسيح بثمانية وثلاثين قرنًا.

وقد ثبت أن هذه التقديرات الوهمية من عمل الكهنة اليهود في القرن السادس قبل الميلاد، وتتعارض مع المكتشفات العلمية التي حددت تاريخ الخلق بعصر سابق بكثير^(٢).

ويقرر موريس بوكاي بأنه لا أحد يستطيع أن يحدد بشكل دقيق تاريخ ظهور

= اللبس الذي وقع فيه د/ حسن حنفي حيث ظن أنه رأى ابن تيمية، بينما الصحيح أن الشيخ أورده منسوبًا إلى الرازي ومن هنا نحوه من المتكلمين الذين يرون تقديم الدليل العقلي على الدليل السمعي إذا تعارضا في تصورهم.

والنص المنسوب لابن تيمية على هذا النحو مبتسر، ولو أكمله الدكتور حسن حنفي لوجد في نهايته ما ينقضه من أساسه؛ لأن ابن تيمية عقبه بالتعليق عليه بقوله: (ومثل هذا القانون الذي وضعه هؤلاء- يقصد المتكلمين كالرازي ومن اتبعه- يضع كل فريق لأنفسهم قانونًا فيما جاءت به الأنبياء عن الله فيجعلون الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه هو ما ظنوا أن عقولهم عرفت، ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تبعًا فما وافق قانونهم قبلوه، وما خالفهم لم يتبعوه، وهذا يشبه ما وضعته النصراني من أمانتهم التي جعلوها عقيدة إيمانهم وردوا نصوص التوراة والإنجيل إليها).

من كتاب (بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) ص ٣ على هامش كتاب منهاج السنة أو (درء تعارض العقل والنقل) بتحقيق د/ محمد رشاد سالم. وينظر معجم أعلام الفكر الإنساني تصدر د/ إبراهيم مذكور المجلد الأول -ط- الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر ١٩٧٤ م- مادة ابن تيمية (ص ٧١-٨٤).

(١) المرجع نفسه ص ٤٧، ٥٠، ٥١.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٧، ٥٠، ٥١.

الإنسان، ومع ذلك فيمكن التأكيد بوجود أطلال الإنسانية مفكرة وعاملة ويحسب قدمها بوحدات تتكون من عشرات من ألوف السنين.

وعلى أية حال فإن المعطيات العلمية تسمح بتحديد تاريخ الإنسان أبعد بكثير من العصر الذي يحدده سفر التكوين لأوائل البشر^(١).

ثالثاً: رواية الطوفان:

يبدأ موريس -أولاً- فبين أن الإصحاحات ٦، ٧، ٨ من سفر التكوين مخصصة لرواية الطوفان، ولكنها تتضمن روايتين منفصلتين في مقاطع متداخلة كل في الآخر مما يجعلها تتناقض مع بعضها البعض تناقضاً صارخاً، حيث يحاول اليهود تحليل هذا التناقض بسبب اختلاف مصديهما، أي المصدر اليهودي، والمصدر الكهنوتي، وعلى أية حال، فإن الرواية في شمولها هي كما يلي:

(لما عم فساد البشر أراد الله -تعالى- تدميرهم، فحذر نوحاً وأمره ببناء السفينة التي سيدخل بها وزوجته وأولاده الثلاثة بزوجاتهم الثلاث، وكائنات أخرى حية، ويختلف المصدران بالنسبة للكائنات الحية، فهناك مقطع من الرواية «وهو كهنوتي الأصل» يشير إلى أن نوحاً قد أخذ زوجاً من كل نوع، ثم يحدد المقطع التالي «وهو من الأصل اليهودي» أن الله قد أمر بأخذ سبعة من كل نوع من ذكر وأنثى من الحيوانات المسماة بالطاهرة، وزوجاً واحداً من الحيوانات المسماة بغير الطاهرة، ولكن بعد ذلك يتحدد أن نوحاً لن يدخل السفينة فعلاً إلا زوجاً من كل نوع من الحيوانات. ويؤكد المتخصصون، مثل الأب ديفو أن المعنى به هنا هو مقطع معدل من الرواية اليهودية^(٢).

كذلك فيما يدل على الاختلاف بين النص اليهودي، والنص الكهنوتي أن الأول يشير إلى أن عامل الطوفان هو ماء المطر، بينما يشير الثاني إلى أن الطوفان مزدوج، أي: ماء المطر والينابيع الأرضية^(٣).

كذلك هناك اختلاف بين النصين في مدة الطوفان، إذ تقول الرواية الأولى اليهودية:

(١) المرجع نفسه ص ٤٧، ٥٠، ٥١.

(٢) المرجع نفسه ص ٥٢.

(٣) المرجع نفسه: ربما يقصد بوكاي بالمصدر اليهودي، المصدر الإلهي والكهنوتي نسبة إلى الكهنة.

أربعون يوماً فيضاً، على حين يقول النص الكهنوتي: مائة وخمسون يوماً.

وحسب تسلسل ميلاد الأنبياء الثلاثة آدم ونوح وإبراهيم -عليهم السلام- فإن التوراة تحدد مولد إبراهيم عليه السلام بثلاثة قرون بعد الطوفان.

ولكن حسب الرواية الواردة في التوراة تبين أن الطوفان عم كل الجنس البشري، وكل الكائنات الحية التي خلقها الله -تعالى- قد فنيّت.

وعندئذ يتساءل موريس بوكاي: هل من المعقول أن البشرية -والأمر كذلك- قد أعادت تكوين نفسها ابتداء من أولاد نوح وزوجاتهم في هذا الزمن القليل؟ ويقرر بناء على هذه الملاحظة البسيطة عدم معقولية هذا النص ^(١).

وتلك هي الملاحظة الأولى.

أما الملاحظة الثانية فتتضح على ضوء المعارف الحديثة التي تثبت استحالة صحة رواية الطوفان الواردة في التوراة: وتوضح ذلك أن الطوفان حسب تقدير هذه الرواية يكون قد وقع في القرن الـ ٢١ أو ٢٢ قبل الميلاد، أي في العصر كانت ظهرت قبله في نقاط مختلفة من الأرض حضارات انتقلت أطلالها للأجيال التالية، وهو ما تؤكد المعارف التاريخية الحديثة ^(٢).

ففي مصر مثلاً يقابل التاريخ (٠٢١٠ ق. م) الفترة الوسطى الأولى قبل الأسرة الحادية عشرة. وفي بابل أسرة أور الثالثة.

وعلى ذلك يتضح أنه لم يحدث انقطاع في هذه الحضارات، وبالتالي لم تفن البشرية كلها كما تقول التوراة.

وفي ضوء ذلك كله -كما يرى موريس بوكاي- فإن النصوص التوراتية التي وصلت إلينا لا تعبر عن الحقيقة، ثم يتساءل متعجباً: هل أنزل الله -تعالى- شيئاً غير الحقيقة؟

ولما كانت الإجابة -قطعاً- بالنفي، فلا بد من افتراض وجود تحريف بواسطة البشر، لا سيما إذا عرفنا أن مؤلفاً مثل سفر التكوين قد عدل على الأقل مرتين على مدى

(١) ومما يجدر الإشارة إليه أن الآية القرآنية خصصت قوم نوح فحسب قال تعالى: ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧].

(٢) المرجع نفسه ص ٥٣.

ثلاثة قرون.

ويستطرد متسائلاً: (فكيف ندهش حين نجد فيه أموراً غير معقولة أو روايات يستحيل أن تتفق مع واقع الأشياء، منذ أن سح تقدم المعارف البشرية، إن لم يكن بمعرفة كل شيء، فعلى الأقل بامتلاك معرفة كافية عن بعض الأحداث تسمح بإقامة الحكم على درجة اتفاق الروايات القديمة بهذه المعرفة) ^(١).

وبعد هذا التعريف بالتوراة، ونقد بعض نصوصها، ننتقل إلى المصدر الثاني أي: التلمود.

(١) المرجع نفسه ص ٥٤.

ثانيًا: التلمود

يحتل التلمود المكان الأسى كأحد مصادر العقائد والأفكار عند اليهود، وقد يفضلونه على التوراة نفسها أو العهد القديم، ويتخذونه «دستورًا للعمل» بهدف السيطرة على البشرية، واحتواء الأديان والأمم^(١).

والتلمود -في تعريف جامع- هو: (هذه الأحاديث الشفوية التي سجلت بعد ذلك - أي بعد التوراة - والتي كانت ثمرة النظر ودراسة الأسفار التي جاءت عن يهوه)^(٢)، ويسمى متن التلمود (المشنا)، وله شرحان أو (جمارتان) أحدهما جمارة أورشليم، والأخرى جمارة بابل^(٣).

وإذا أردنا فهم الشخصية اليهودية على حقيقتها والوقوف على خلفيات الأحداث الجارية الآن على مسرح السياسة العالمية، أو المتصلة بجرائمهم التي يرتكبونها ليل نهار بفلسطين المحتلة، فما علينا إلا دراسة هذا التلمود، وتحليل بعض نصوصه، ومعرفة كيفية تنفيذ تعاليمه بواسطة الجمعيات السرية كالماسونية.

وسنعرض لبعض النصوص ونحللها، ثم نبين كيفية تنفيذ تعليماته بواسطة جماعة الماسونية، إذ لا بد لمعرفة مكانة التلمود عند اليهود، من إلقاء الضوء على بعض النصوص الواردة به، وهي بنفسها تصور هذه المكانة:

-اعلم أن أقوال الحاخامات هي أفضل من أقوال الأنبياء.

-إن من يقرأ التوراة بدون المشنا والجمارة (التلمود) فليس له إله.

-إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ولو بأمر الله.

(١) المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية: أنور الجندي ص ١١ - دار الاعتصام ١٩٧٧م.

(٢) في العقائد والأديان للدكتور محمد جابر عبد العال ص ٢١٨ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١م.

(٣) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: د/ محمد علي البار ص ٦١، ويذكر أن ما تدعى جمارة فلسطين أو أورشليم، رغم إنها لم تكتب في أورشليم القدس و(المشناة) بمعنى المثنى أو المكرر، أي: إنها تكرار وتسجيل للشريعة، ثم (الجمادا) أي الشرح أو التعليق، والتلمود بمعنى التعاليم (الأسفار المقدسة للدكتور وافي ص ٢٢).

-إن مخافة الحاخامات هي مخافة الله^(١).

ويتضح لنا من دراسة أحد نصوصه مدى التغيير الذي أحدثته الحاخامات بواسطة التلمود، حيث حولوا عيد الفطر الموجود في التوراة إلى (طقوس يذبح فيها نصراني أو غيره، ويوضع دمه في هذا الفطير المقدس. وقد جاء في التلمود عندنا مناسبتان دمويتان ترضيان إلهنا يهوه، إحداهما عيد الفطر الممزوج بالدماء البشرية، والأخرى مراسيم ختان أطفالنا)^(٢).

وعندما نشر التلمود، وقرأه بعض رجال الدين النصاري، انفجرت عواطف المسيحيين بسبب الشتم والقذف الموجود في التلمود لعيسى ابن مريم عليه السلام، وقامت مذابح كثيرة لليهود في أوروبا بإيطاليا وبريطانيا وفرنسا وأسبانيا وروسيا كذلك تكررت أوامر إحراق التلمود بسبب ما يتضمنه من احتقار للدين المسيحي.

كل ذلك أدى إلى قيام حركات إصلاحية بين اليهود، حذفت بعدها (المواد الموجهة إلى النصاري، أو ترك مكانها غفلاً، أو وضع رموز لمعانيتها يشرحها الأبحار لتلاميذهم)^(٣)، أي أن هناك إصراراً من جانبهم على التمسك بتعاليم التلمود كاملة وتنفيذها، وهذا ما تؤكد دائرة المعارف البريطانية التي تقول: «وتشهد إسرائيل حالياً عودة شديدة للتمسك بالتلمود والأصولية^(٤) (Fundamentalism).

وإننا نعتبر أمام هذه الأعمال عن ألما ودهشتنا معاً. أما ألما، فإنه يرجع إلى مشاهدتنا بأعيننا ما يقع على أرض فلسطين هذه الأيام، وما حدث من قبل من مذابح مشهورة، كمذابح دير ياسين وصبرا وشاتيلا وغيرها، بحيث لا تعد ضحايا الأعياد ومراسيم الختان شيئاً يذكر إلى جانبها، بالرغم من بشاعتها ومظهرها الإجرامي في حق الإنسانية.

(١) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: للدكتور /محمد علي البار، ص ١٦١، ١٦٢ وغيرها من النصوص التي تبين مكانة التلمود، إلى جانب نصوص أخرى كوصف الإسرائيلي عند الله بأنه معتبر أكثر من الملائكة، واعتبار الشعب اليهودي هو الشعب المختار، وباقي الشعوب فهم حيوانات، ولا يجيز التلمود أن يشفق اليهود على أعدائهم، ولا يعتبر لأرواح غير اليهود حرمة، كما ينص على أن من العدل أن يقتل اليهودي كل أممي لأنه بذلك يقرب قرباناً إلى الله (ينظر كتاب اليهودية للدكتور شلبي ص ٢٧٥ وما بعدها).

(٢) المرجع نفسه ص ٧١.

(٣) نقلاً عن الصدر السابق ص ٥٦.

(٤) المرجع نفسه ص ١٤٦.

وأما دهشتنا فإنه بالرغم من النصوص التلمودية المهيبة للمسيحيين، فقد استطاع اليهود خداع الملايين منهم للانضمام إليهم في ما يسمى حركة بناء الهيكل، على زعم أن المسيح المنتظر لن يظهر إلا بعد بنائه على أنقاض المسجد الأقصى، «ومحاولات اليهود لهدم المسجد الأقصى أصبحت خبراً مكرراً تنشره الصحف اليومية، مع وثائق متعددة عن الخطط الجهنمية لتنفيذ هذا المشروع وضمان عدم ثورة العالم الإسلامي»^(١).

وربما يخفف من درجة عجبنا أن نقف على بعض أسرار الماسونية التي يتخذها اليهود كأداة لتنفيذ أهدافهم، واتخاذ التلمود كمصدر للفكر الماسوني:

التلمود كمصدر للفكر الماسوني:

قلنا فيما سبق أن اليهود -لقلة عددهم- عوضوا هذا النقص بتكوين الجمعيات والهيئات والنوادي، تحمل شعارات جذابة لتجذب إليها أصحاب النفوذ والأموال ورجال الأدب والصحافة والفن والوزراء، وأساتذة الجامعات وغيرهم من رواد المجتمعات في مختلف البلدان.

ومن هذه المجتمعات جماعة «الماسون» أو «البنائون الأحرار» .. والماسونية هي جمعية سرية -ترجع- في الرأي الأرجح^(٢) - إلى بداية القرن الأول الميلادي في عهد هيرودس أكريرا الثاني ملك الرومان الذي أهله ظهور المسيح ﷺ فدعاه ذلك وبمعاونة مستشاريه إلى إنشاء «جمعية سرية باسم «القوة الخفية» وكانت تلخص مهمة هذه الجمعية في التخلص والقضاء على المسيحية وأتباعها»^(٣).

وقد حدد الملك هيرودس الهدف من إنشاء هذه الجمعية، ويتلخص في محاربة

(١) المرجع نفسه ص ١٢٨ ويقول الدكتور محمد علي البار (وقد انضم إليهم ملايين النصارى في الولايات المتحدة الأمريكية وتبرعوا بمئات الملايين .. الخ).

(٢) هذا هو الذي يرجحه الدكتور عبد الرحمن عميرة، حيث هناك احتمالات أخرى، عن تاريخ نشأة الماسونية (كتابه المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها ص ٢٩) ويرى أن التلمود هو الأصل الذي يستقون منه أفكارهم (١ ص ٨١).

(٣) المرجع نفسه ص ٣٠ - ط. / دار اللواء بالرياض ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤.

المسيحية التي تكاد تقوض الديانة اليهودية وترزعزع أركانها^(١).

والبيان الذي ألفاه آنذاك طويل، إذ أوجزنا مضمونه فإنه يعبر عن عقائد اليهود نحو المسيح عليه السلام، حيث ينكرون «ألوهيته» ونبوته، ويخشون منه على دياتهم اليهودية، كما لا يقرون بأنه المسيح الذي ينتظرونه، لذلك فإنهم حاكموه وأوقعوا عليه أشد العقوبات، فصلبوه - حسب اعتقادهم - ودفنوه بعد موته ونصبوا حراساً على قبره^(٢)، ونرى في هذا البيان العداء العميق للمسيحية والمسيحيين.

ثم قرر أن تكون أعمالهم خفية، واختار دهليزاً «سماء المحفل» لعقد الاجتماعات السرية فيه (لكي لا يرانا أحد ولا يسمعنا أحد ولا يعرف بنا أحد).

وفي المرحلة الثانية للماسونية - كما يذكر الدكتور الزغبى - والتي تبدأ سنة ٥٥ م نشطت الماسونية، ودست على المسيحيين بعض عملائها ليدخلوا في المسيحية وينسفوها، وربما كان منهم (بولس) الذي انحرف بالمسيحية^(٣).

كل ذلك كانت تأتية الماسونية بدافع الحقد التلمودي الذي يصور المسيح عليه السلام بأبشع الصور: ونكتفي بإيراد نصين:

(١) (يسوع المسيح ارتد عن دين اليهود وعبد الأوثان. وكل مسيحي لم يهود فهو وثني عدو لله ولليهود).

(٢) «يسوع الناصري موجود في لجات الجحيم، بين الزفت والقطران والنار وأمه مريم أتت به من زناها بالعسكري باندر (كذباً ومهتأناً) والكنائس المسيحية بمقام القاذورات والواغظون فيها كلاب نابحة»^(٤).

كذلك فإن الإسلام كان - ولا يزال - مستهدفاً لهجمات الماسونية، إذ يرى الدكتور عبد الرحمن عميرة أن الماسونية - أو اليهودية العالمية - وراء الكثير من الخلافات بين

(١) المرجع نفسه ص ٣٠ - ط / دار اللواء بالرياض ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤.

(٢) المذاهب المعاصرة للدكتور عبد الرحمن عميرة ص ٣٠.

(٣) المرجع نفسه ص ٣٣.

(٤) من كتاب (المسيح المنتظر وتعاليم التلمود) ص ١٥٧ للدكتور محمد علي البار - ط / دار السعودية / بجدة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.

المسلمين، كاتجاهي نفي القدر والجبرين، وكذلك فكرة خلق القرآن التي يتصل سندها «ببليد بن أعصم اليهودي القائل بخلق التوراة»^(١).

بل بدأ النشاط الماسوني مبكراً بقيادة عبد الله بن سبأ الذي كان يؤسس (الخلايا الماسونية السرية) في تنقلاته بين العراق ومصر والشام... وهو يغري الرعاع، وينشر المبادئ الهدامة للإسلام، ومنها الزعم بالوهية علي بن أبي طالب عليه السلام^(٢).

مسئولية الماسونية عن الثورات الكبرى في العالم:

إذا كان التلمود مصدراً للفكر الماسوني، فلا بد من إزاحة الستار عن الجمعيات الماسونية التي تنفذ تعاليم التلمود وتحققها في الواقع، فقد ورد في أحد نصوصه ما يلي:

«يجب على كل يهودي أن يبذل جهوده لمنع استملاك باقي الأمم في الأرض لتبقى السلطة لليهود وحدهم. وقبل أن يحكم اليهود العالم بصورة نهائية يلزم أن تقوم الحرب على قدم وساق، ويهلك ثلثا العالم، وعندما يأتي المسيح، ويحصل النصر المنتظر تكون الأمة اليهودية إذ ذاك في غاية الإثراء، لأنها تكون قد حصلت على جميع أموال العالم، وتحفظ هذه الكنوز في سرايا واسعة»^(٣).

وكنا قبل الاطلاع على هذا النص وغيره نظن أن التوسع في تصوير ذلك الدور للماسونية كأداة لهدم الحكومات وإثارة الحروب والنزاعات في العالم، هو لون من المبالغة^(٤) في تضخيم دور اليهود بصورة أكبر بكثير من حجمهم، ولكن الحق أننا

(١) المذاهب المعاصرة ص ٤٢.

(٢) مقدمة كتاب الخطر اليهودي (بروتوكولات حكماء صهيون) للأستاذ محمد خليفة التونسي ط مكتبة دار التراث ص ١٩٧٧ م.

(٣) نقلاً عن كتاب: المسيح المنتظر وتعاليم التلمود ص ١٥٧ للدكتور محمد علي البار، وقد استخدمنا لفظ (الثورات) كمصطلح سائد، وهي في حقيقتها حركات انقلابية تهدم الأنظمة القائمة وتستحوذ على السلطة بطريقة غير شرعية لتفتح الطريق لأتباعها من الماسونيين للاستحواذ عليها.

(٤) باختصار من كتابه (المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية) ص ٩- ، ط. دار الاعتصام بمصر عام ١٩٧٧ م. وكان وراء إسقاط الخلافة العثمانية ما وراءه من شروط وضعتها إنجلترا على

كلما قرأنا أكثر عن تاريخ الثورات، وعرفنا شخصيات من المتأمرين الحقيقيين المختفين وراء الستار، تبين لنا صحة التعليقات الآتية، حيث يستغلون الأزمات القائمة ويستثمرون حركات الجماهير ويوجهونها لصالحهم.

ويرى الأستاذ أنور الجندي أن أبرز أهداف الماسونية هو احتواء المسيحية وتدميرها من الداخل، والعمل على تزييف الإسلام والسيطرة على مجتمعاته، واستطاعت أن تحقق ثلاثة أعمال كبرى فتحت الطريق لإقامة إسرائيل في قلب العالم الإسلامي، وهذه الأعمال هي:

(١) الثورة الفرنسية التي أتاحت لهم تملك وجوه النشاط الثقافي والصحفي والسيطرة على رجال السياسة والحكم.

(٢) إسقاط القيصرية وإقامة البولشفية في روسيا.

(٣) إسقاط الخلافة العثمانية.

وسنكتفي بأن ننزع من وقائع التاريخ بعض الشواهد الدالة على صحة هذه الاستدلالات لنأخذ حذرنا من استفحال هذا الخطر الداهم علينا وعلى العالم، ولكي لا ننسى - والأجيال بعدنا - دور اليهود في إلغاء الخلافة العثمانية؛ لأن السلطان عبد الحميد رحمه الله - تعالى - رفض التنازل لهم عن أرض فلسطين.

ففيما يتعلق بالثورة الفرنسية، ظهر من خباياها أن «ميرابو» أحد نبلاء فرنسا في العهد الملكي - وهو من الماسون - أقنع «الدوق دورليان» بالاشتراك في الثورة للإطاحة بالملك لويس السادس عشر لكي يستولي هو على عرشه. ولكن المتأمرين اليهود تخلصوا منهما معاً بعد نجاح الثورة.

ولما قام «روبسبير» الذي اختاره اليهود لتولي الحكم بعد الثورة ليزيح الستار عن حقيقتهم ودوافعهم، في كلمة ألقاها بالجمعية الوطنية، أردته رصاصة قاتلة فمات بسرّه

لسان (كرزن) رئيس وفدها في مؤتمر توران ومنها إعلان الدولة (اللا دينية) حيث ضرب الإسلام في كيانه السياسي، وقد عبر العلامة شبلي النعماني عن هذه الفاجعة أصدق تعبير بقوله (إن زوال الدولة العثمانية في الواقع زوال ملك المسلمين وملتهم) ص ٦٦ من كتاب (في مسيرة الحياة) للأستاذ أبي الحسن الندوي - ط دار القلم / بيروت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

الذي لم يبح به (١).

ويبدو أنه عندما حقق اليهود الماسون أغراضهم وأصبحت مقاليد السلطة في أيديهم أو أيدي أتباعهم، لم يعد يفزعهم إذاعة الأسرار، بل ربما أباحوا بها تفاخراً وتحدياً، ومثال ذلك الكلمة التي ألقاها رئيس محفل الشرق الأكبر الفرنسي ١٩٢٣، وقال فيها: «نشر الآن النخب التالي نخب النظام الجمهوري الفرنسي ابن الماسونية العالمية» (٢).

وإذا تكلمنا عن دور اليهود في الثورة البولشفية وسيطرتهم على مقاليد السلطة في روسيا الماركسية، فيكفينا إحصاء عدد أعضاء المكتب السوفيتي هناك من اليهود إذ كان يتألف من «سبعة عشر عضواً: منهم أربعة عشر يهودياً صريحاً وثلاثة من أصول يهودية أو من صنائع اليهود وزوجات الثلاث يهوديات، وهم ستالين وفيرشيلوف ومولوتوف» (٣).

أما الحديث عن إلغاء الخلافة العثمانية فإنه حديث يدمي القلب حقاً ويفتح أعين المخدوعين إلى أسباب الكوارث التي أصابت -وما زالت تصيب العالم الإسلامي - ما لم يلتئم شمله من جديد، فقد زال بزوال الدولة العثمانية ملك المسلمين وملتهم، كما وصفه العلامة شبلي النعماني.

(١) المذاهب المعاصرة: للدكتور عبد الرحمن عميرة ص ٩٦، وقال في هذه الكلمة: (إنني لا أجرؤ على تسميتهم في هذا المكان وفي هذا الوقت.. كما أنني لا أستطيع كشف الحجاب الذي يعطي هذا اللغز في الثورات منذ أجيال سحيقة) هذا وقد ورد بالنص بالبروتوكول الثالث (تذكروا الثورة التي نسُميها (الكبرى)، إن أسرار تنظيمها التمهيدي معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا..) ص ١٣٨ / ١٣٩ - بروتوكولات حكماء صهيون.

(٢) المصدر السابق ص ٩٧.

(٣) ص ٧١ / ٧٢، من مقدمة كتاب (الخطر اليهودي: بروتوكولات حكماء صهيون: للأستاذ محمد خليفة التونسي، وقد كتب ذلك في سبتمبر ١٩٥١، ولا رتاب في أن نفوذهم ما زال كما هو حتى الآن إذ يصعب تصور تنازلهم عن السلطة من تلقاء أنفسهم. ويلفت نظرنا الأستاذ التونسي إلى مؤشر هام بقوله: (وتأمل شعار اليهودي البلشفي في صدر هذا الكتاب وحوله النجمة المسدسة وهي شعار علم إسرائيل).

وما زالت الخبايا التي كانت وراء إلغاء الخلافة الإسلامية تظهر على السطح بمرور الزمن، وظهرت الوثائق التي تجعلنا نصصح بعض الأفكار والآراء التي حشت كتب التاريخ بالكاذب، والأغاليط المتعمدة أحياناً: كتصوير أتاتورك بالبطولة أو اتهام السلطان عبد الحميد بالدكتاتورية، أو وصف حركة جمعية الاتحاد والترقي بأنها أخذت بيد تركيا إلى التقدم والحضارة.

هذا بينما أظهرت الوثائق أن الأحداث كانت تمضي بخلاف ذلك تماماً، فقد خلع السلطان عبد الحميد لإخلاقه في الدفاع عن فلسطين، ومواجهة اليهود، وكان أتاتورك من طائفة «الدونما» اليهودية التي تنظاهر بالإسلام نفاقاً، وتبين في نهاية المطاف، لبعض المخدوعين الذين اشتركوا في المؤامرة ما تورطوا فيه (فهذا رأنور باشا) الذي قام بالدور الرئيسي في الانقلاب على الخلافة ١٩٠٨م، والذي تسبب في تدهور الدولة العثمانية، يقول في حديث له مع «جمال باشا» إذ كانا يحلان أسباب الاندحار الذي أصاب الدولة التركية: (أتعرف يا جمال ما هو ذنبنا؟)، وبعد تحسر عميق قال: «نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد فأصبحنا آلة بيد الصهيونية، واستثمرتنا الماسونية العالمية، نحن بذلنا جهودنا للصهيونية، فهذا ذنبنا الحقيقي»^(١).

(١) مكائد يهودية عبر التاريخ ص ٢٧٩ للدكتور عبد الرحمن حبنكة.

بروتوكولات حكماء صهيون

إذا بدأنا بتعريفها، فإن الأقرب إلى الدقة وصفها بأنها «مجموعة من المبادئ الأساسية الاستراتيجية»، ولا يمكن تغييرها بحال، يزنون بها -وهم اليهود- تنفيذهم العملي»^(١).

وهذه البروتوكولات -بالرغم من عدم الترابط الظاهر بين بنودها -إلا أن- الدارس لها بمنهج تحليلي يتضح له في النهاية، أنها اتخذت شكل نسق متكامل وتضمنت خطة عمل مترابطة ترمي إلى إيقاع الأمميين «أي غير اليهود» في شبك النفوذ اليهودي، ووضعت السبل التي تحاصر فيه الأمميين في كافة أوجه أنشطتهم وصنوف حياتهم، أي: حياة الفرد ومعتقداته وسلوكياته، وحياة المجتمعات ونظمها الاقتصادية والسياسية والتربوية والثقافية.

كذلك تبدو الصلات واضحة بين بعض نصوصها، ومحتويات التلمود والتنظيمات الماسونية، وإلى القارئ بعض الشواهد:

-إننا مختارون من الله لنحكم الأرض.

-يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان.

-إن الأمميين كقطع من الغنم وإننا الذئاب.

-إننا كنا الشعب الوحيد الذي يوجه المشروعات الماسونية^(٢).

أما عن تاريخها فيرجع إلى أخريات القرن الماضي، واكتنف ظهورها على العالم -بعد أن كانت في شكل وثائق سرية- كثيراً من الملاحظات الملفتة للأنظار (فقد طبعت لأول مرة في روسيا ١٩٠٥م ثم انتشرت ترجماتها في سائر الأقطار الأوروبية بلغات عدة، ولوحظ - كما أشار الأستاذ العقاد أنها لا تظهر في لغة من اللغات إلا اختفت على أثر ذلك، وأنها اختفت أو تختفي كلما عادت إلى الظهور مترجمة أو مطبوعة من جديد)^(٣).

وعندما نشرها لأول مرة أعلن اليهود على لسان زعيمهم «هرتزل» التبرؤ منها، وأنها مزيفة، وضغط اليهود على بريطانيا للتدخل في روسيا لمصادرة نسخ

(١) حقيقة اليهود، فؤاد بن عبد الرحمن الرفاعي ص ٢٧، دار القسام بالكويت رجب ١٤٠٦هـ.

(٢) من كتاب (الخطر اليهودي -بروتوكولات حكماء صهيون) ترجمة محمد خليفة التونسي وتقدير الأستاذ العقاد -مكتبة دار التراث بمصر ١٩٧٧م، الصفحات ١٤٥، ١٨٤، ١٧٢، ١٩٠.

(٣) تعقيب محمد خليفة التونسي على كتاب (الصهيونية العالمية للعقاد) ص ١٥٧ - ط مكتبة غريب بالفجالة بمصر عام ١٩٦٨م، ويعلق في الختام بقوله: وتفسير هذه الظاهرة فيما نرى أن اليهود يجمعون نسخها كلما عادت إلى الظهور، يفضح مؤامرة من مؤامرات (الصهيونية العالمية).

الكتاب، وكذلك فعلوا أيضاً في فرنسا، وعملوا على إيقاف طبعه في ألمانيا «وشاع أنه ما من أحد ترجم هذا الكتاب، أو عمل على إذاعته بأي وسيلة، إلا انتهت حياته بالاغتيال أو بالموت في ظروف مريبة»^(١).

وهناك شواهد كثيرة ترجح صحة نسبة البروتوكولات إلى اليهود، منها الدراسة المقارنة التي قام بها الصحفي البريطاني «فكتور مارسون»^(٢)، على أثر الانقلاب الشيوعي في روسيا ١٩١٧م، حيث رأى في هذا الانقلاب تحقيقاً عملياً لتوقعات ناشرها الروسي نيلوسي، منذ نشر البروتوكولات عام ١٩٠٥، وكان يحذر الروس حينذاك من مؤامرات اليهود^(٣).

كذلك فإن من يراقب ويتفكر في أحوال العالم المعاصر، كما فعل (هنري فورد بكتابه: اليهودي العالمي) - يميل إلى تصديق ما ورد بهذه الوثائق السرية لأن الواقع يشهد بآثارها على أحوال الأمم والشعوب، كما تشهد بصمات الأصابع على صاحبها، فقد صرح ذات مرة لأصدقائه قائلاً: «مهما كانت حقيقة هذه البروتوكولات، فإنها تتفق مع ما هو واقع الآن. ولا يختلف مضمون هذه البروتوكولات عما جاء في التلمود، ثم يمضي فيذكر أحد نصوصها الذي يتضمن أن الثورة الفرنسية من صنع الماسون^(٤) وكل من يرجح صحتها يستند إلى مطابقة الواقع لتعاليمها، وأن «لسان الحال أصدق من لسان المقال»^(٥).

البروتوكولات والحركات الصهيونية:

ولكي لا يتشعب بنا الحديث عن البروتوكولات، فإننا نعرض لمضمونها من بعض

(١) حقيقة اليهود - فؤاد بن سيد الرفاعي ص ٣٩.

(٢) المصدر السابق ص ٣٧.

(٣) ومما قاله نيلوس حينذاك: ولا يعلم إلا الله وحده كم كانت المحاولات الفاشلة التي بذلتها لإبراز هذه البروتوكولات إلى النور، أو حتى لتحرير أصحاب السلطان، وأن أكشف لهم عن أسباب العاصفة التي تهدد روسيا البليدة من سوء الحظ إنها فقدت تقديرها لما يدور حولها) ص ٢٤٤ - البروتوكولات (تعقيب سرجي نيلوس).

(٤) الماسونية تحت المجهر - د/ إبراهيم فؤاد عباس ص ٢٨ دار الرشاد - جدة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.

(٥) مقدمة البروتوكولات للعقاد ص ١٢.

المسالك المتصلة بأهداف بحثنا، ومنها:

(أ) صلة البروتوكولات بمضامين تلمودية صريحة أو خفية (وغاية ما هنالك أن التلمود قد أجملت حيث عمدت هذه الوثائق إلى التفصيل والتمثيل)^(١).

(ب) لعل هذه الدراسة المقارنة وما شابهها تجعلنا نعيد تقويم بعض الشخصيات، وتفسير بعض الأحداث المؤثرة في عالمنا الإسلامي تاريخياً وفي العصر الحديث، وذلك ببحث مدى تطابقها مع تعاليم هذه الوثائق ونصوصها بين وقائع الأحوال والتصريحات المعلنة، أو السير بالشعوب إلى حتفها مع إيهامها بأنها تمضي نحو المستقبل المزدهر.

(ج) تحول اليهودية إلى دين سياسي في العصر الحاضر باسم الصهيونية فقد برزت في نهاية القرن التاسع عشر تقريباً «مفاهيم الصهيونية السياسية كتعبير عن اليهودية، غلفت نفسها بمنطق لغة السياسة وأساليب الوصول إلى الحكم»^(٢).

* * *

(أ) إننا نجد أحد الأمثلة المعبرة عن التحام نصوص التلمود مع البروتوكولات فيما أوردته أحد نصوص التلمود بعد وصف الأمم والأجناس بالحيوانات وكيفية السيطرة عليهم: (يجب أن نزوج بناتنا الجميلات للملوك والوزراء والعظماء وأن ندخل أبناءنا في الديانات المختلفة، وأن تكون لنا الكلمة العليا في الدول وأعمالها، فنفتنهم ونوقع بينهم ونجعلهم يحارب بعضهم بعضاً، وفي ذلك كله نجني الفائدة الكبرى)^(٣).

ثم نقرأ عن النتائج المتحققة في البروتوكول الأول كالآتي: «ومن المسيحيين أناس قد أضلّتهم الخمر، وانقلب شبانهم مجانين بالكلاسيكيات والمجون المبكر الذين أغراهم به

(١) مقدمة البروتوكولات للعقاد ص ١٢.

(٢) د/ حامد ربيع: سلوك المالك في تدبير الممالك ج ١ ص ٤١ - ط. دار الشعب بمصر ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٣ م.

كذلك يحدد تاريخ ١٥ / ٥ / ١٨٩١ م موعداً لإعلان البابا الكاثوليكي ليون الثالث عشر إرادة الكنيسة في أن تتدخل في الأحداث، وأن تدفع بالقوى السياسية المدافعة عن مبادئها في سبيل تحقيق أهدافها المدنية (نفس المصدر).

(٣) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود - د/ محمد علي البار ص ١٦١.

وكلاؤنا ومعلمونا وخدمنا وقهرماتنا «أي: المريات بالمنازل» في البيوتات الغنية، وكتبنا ومن إليهم، ونساؤنا في أماكن لهوهم -والهين-، أضيف من يسمين «نساء المجتمع» أو الراغبات من زملائها في الفساد والترف (١).

وربما كان النصيب الأوفر عند تنفيذ مثل هذه الخطط للمجتمع الأمريكي، فقد أورد هنري فورد بكتابه «اليهودي العالمي» ما يثبت بالأدلة الوثيقة كيف دمروا (الأخلاق والقيم باحتكار تجارة الخمر والبغاء والأزياء الماجنة والأشرطة الوضعية والمسرحيات البذيئة والآداب الساقطة) (٢).

بل لا يخلو مجتمع من المجتمعات بأقطار الأرض قاطبة من آثار أفعالهم، فكيف نجحوا؟

الحق أنهم تعمقوا في فهم النفوس البشرية ودوافعها وغرائزها، واستطاعوا بذلك قيادة عملائهم كيفما شاءوا.

ولنقف قليلاً على تحليلاتهم النفسية لهؤلاء:

ينص البروتوكول الرابع عشر بإحدى فقراته على الآتي: (ومعظم الناس الذين يدخلون في الجمعيات السرية مغامرون يرغبون أن يشقوا طريقهم في الحياة بأي كيفية، وليسوا ميالين إلى الجد والعناء. وبمثل هؤلاء الناس سيكون علينا أن نتابع أغراضنا، وأن نجعلهم يدفعون جهازنا للحركة). وفي فقرة أخرى نراهم يصفون الأمميين الذين يكثرون من التردد على الخلايا الماسونية بالفضول أو رغبة الحصول على الأشياء الطيبة، كما يبحثون عن عواطف النجاح وتهليلات الاستحسان (وأنتم لاتتصورون كيف يسهل دفع أمهر الأمميين إلى حالة مضحكة من السذاجة والغفلة بإثارة غروره وإعجابه بنفسه، وكيف يسهل من ناحية أخرى أن تثبط شجاعته وعزيمته بأهون حنية، ولو بالسكوت

(١) البروتوكولات ص ١٢٦ وينص البروتوكول الخامس على أنهم بذروا الخلاف بين كل واحد وغيره في جميع أغراض الأمميين الشخصية والقومية، بنشر التعصبات الدينية والقبلية خلال عشرين قرناً ص ١٤٤. ويذكر أن هناك طائفة عددها نحو ٤٠٠ أسلموا في مصر عام ١٩٤٢ م تعليقه على البروتوكولات ص ١٥٤ / ١٥٥.

(٢) معركة الوجود بين القرآن والتلمود: د/ عبد الستار فتح الله سعيد ص ٥٤.

ببساطة عن تهليل الاستحسان له، وبذلك تدفعه إلى حالة خضوع، ذليل كذل العبد^(١).

ولكن سلطان المطامع والمنافع والشهوات لاتعمل وحدها -كما يرى الأستاذ العقاد في تحليله لنفوس أولئك الأعوان- بل لابد أيضاً من أساليب الهدم والخداع أي: هدم الأخلاق والأوطان والأديان، وهي كالحصون التي تحمي ضحاياها (أما إذا أصبح المسلم غير مسلم، وأصبح المسيحي غير مسيحي، وأصبح الوطني لا ييالي بوطنه، وأصبح الضمير الإنساني ولا موضع فيه للحلال والحرام، فهي على الأقل -ميدان لاموانع فيه ولا عقبات، وإن لم يكن فيه أعوان وأذئاب^(٢).

(ب) إذا كان التلمود يغذي كما -رأينا في اليهود- روح العنصرية والامتياز عن باقي الأمم، وتنمي في أنفسهم الاستهانة والاحتقار لغيرهم من الأجناس والشعوب والأديان، فإن الغاية هي بسط سلطانهم على العالم كله.

إذا كان الأمر كذلك، فإن قراءة البروتوكولات بهذا الفهم لا تزيد عن كونها برنامج تفصيلي للأهداف اليهودية المتحققة على أرض الواقع ومفتاحاً للوعي المتكامل لكثير من الوقائع التاريخية والمعاصرة، وحفزاً للهمم -هذه هي غايتنا- لوضع البرامج العلمية والخطط الهادفة المضادة في سبيل استكمال وظهور البقطة الإسلامية المرتقبة التي تنمو الآن في رحم الأمة.

وإذا أخذنا برأي ابن خلدون صاحب النظرية التي تدرس تاريخ الأمم وواقع المجتمعات والحضارات بتشبيهها بالجسد الإنساني^(٣)، رأى كجسد حي يتكون إجمالاً من رأس مفكر وقلب نابض وجسد تتقاذفه الغرائز (إن لم يخضع لأوامر ونواهي الشرع)، فإننا نرى في تطبيق نظريته على مضمون البروتوكولات أقرب الطرق لاستيعابها، وهذا ما

(١) البروتوكولات ص ١٩١.

(٢) الصهيونية العالمية، عباس العقاد ص ٧٦، ويقول أيضاً (فحسب الصهيونية كسباً أن تهدم أركان الوطنية والدين وأن تنهار قواعد الأخلاق والآداب، فتستريح من هذه العوائق في طريقها، وتفتح الأبواب لسلطان المال والخداع بغير شريك ولا حسيب) (المرجع نفسه ص ٧٩).

(٣) ويرجع الفضل إلى الدكتور حامد ربيع إلى لفت النظر إليها وبيان أثرها التطبيقي في الممارسة على النظريات السياسية الغربية.

سنفعله بمنهج تركيبي في القوالب الآتية:

- تغيير العقائد والأفكار بإزاحتها وإحلال بدلها نظريات زائفة.
 - صنع القيادات وجعلها تابعة للخلايا الماسونية السرية، وقد عرفنا نفسيًا كيف يسوقون الأعوان والأتباع إلى ما يريدون.
 - صرف جماهير الشعب عن المتابعة والاهتمام بما يدور حولها، حتى تخرج من حلبة الصراع وتنفس إرادتها، وتصبح طوع البنان تتحرك كالسائمة لا تدري من أمرها شيئًا.
- (١) العقائد والأفكار:

ورد بالبروتوكول الثاني أن نجاح دارون وماركس ونييتشه كان بترتيبهم مع ترقبهم للأثر الغير أخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي^(١)، ويبدو أن بعض الأعضاء كانوا مكلفين بتتبع آثارها الأخلاقية، فسجلوا في البروتوكول التاسع هذه الملاحظة:

«ولقد خدعنا الجيل الناشئ من الأميين وجعلناه فاسدًا متعفنًا بما علمناه نظريات معروف لدينا زيفها التام، ولكننا نحن أنفسنا الملقنون لها»^(٢).

كذلك حرصوا على الترويج لما سموه بالنظريات المبهجة، أي: التي تبدو في ظاهرها تقدمية أو تحررية، وهي في حقيقتها ليست كذلك ولا يوجد عقل واحد بين الأميين يستطيع أن يلاحظ أنه في كل حالة وراء كلمة «التقدم» يختفي ضلال وزيف عن الحق، ما عدا الحالات التي تشير فيها هذه الكلمة إلى كشف مادية أو علمية إذ ليس هناك إلا تعليم حق واحد»^(٣).

ويسجل البروتوكول الأول أنهم أول من صاغ فيها الناس قديمًا «الحرية والمساواة والإخاء»، فأخذت الجماهير ترددها كالبيغاوات، بينما (حرمت الفرد من حريته الشخصية الحقيقية التي كانت من قبل في حى يحفظها من أن يخنقها السفلة)^(٤)، ولكنهم يفخرون بأن هذه الصيحة جلبت إلى صفوفهم فرقًا كاملة بينما هي في الواقع

(١) البروتوكولات ص ١٣٢.

(٢) المرجع نفسه ص ١٥٩.

(٣) المرجع نفسه ص ١٨٣.

(٤) المرجع نفسه ص ١٢٨.

تحطم سلامتهم واستقرارهم ووحدهم مدمرة بذلك أسس الدول ^(١).

(٢) القيادات:

تمضي الخطة في هذا الصدد خلال ثلاث شعب: أحدها: إزاحة الفئة الممتازة التي تستحق تولي زمام الأمور عن جدارة واستحقاق لتفوقها، واستبدالهم بوكلائهم التابعين لهم (وسنخضع الرعايا لهذا النظام لأنهم سيعرفون أن هؤلاء القادة مصدر أجورهم وأرباحهم وكل منافعهم الأخرى) ^(٢).

والثانية: الحط من كرامة (رجال الدين من الأميين) في أعين الناس باعتبارهم عقبة كؤود في طريق اليهود «وأن نفوذ رجال الدين على الناس ليتضاءل يوماً فيوماً» ^(٣).

والثالثة: السيطرة الاقتصادية بالحصول على الاحتكار المطلق للصناعة والتجارة، مع تجريد أصحاب الأراضي من الأميين من أراضيهم لأن معيشتهم المستقلة مضمونة لهم بمواردهم، مع العمل على استنزاف الثروات بحيث تصبح في أيدي اليهود، فيعم الفقر الطبقات العاملة «وعندئذ يخسر الأمميون أماننا ساجدين ليظفروا بحق البقاء» ^(٤).

(٣) جماهير الشعب:

ربما تتضح فاعلية البروتوكولات الخطيرة في التنفيذ بشكل واقعي أكبر إذا طالعنا الفقرات المتصلة على الجماهير، وكيفية قيادتها بعد إفقادها الوعي وخلخلة إرادتها، حيث تتشابه النصوص بعضها ببعض كالسلاسل الحديدية التي تقيد أيدي الإنسان وأرجله، هذه السلاسل الشيطانية وحدها لتحقيق الإفساد الذي يسعى إليه اليهود، فما البال بها بأكملها؟

إنها تتشابه وتتعدد فلا تترك عضواً من الأعضاء في جسد الأمة الممثل في جماهير الشعب إلا وقد أحاطت به والتفت حوله، فبدءاً من تدمير الحياة الأسرية وإفساد أهميتها التربوية، إلى السيطرة على الصحافة بنشر التعصبات الدينية والقبلية، وبث الفوضى

(١) المرجع نفسه ص ١٢٩.

(٢) المرجع نفسه ص ١٦٣.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٠٤.

(٤) المرجع نفسه ص ١٤٩.

الاجتماعية، إلى تضليل الرأي العام، وإيقاعه في الحيرة بتغييرات من جميع النواحي لكل أساليب الآراء المتناقضة، حتى لا يكون له رأي في المسائل السياسية^(١).

وإمعاناً في صرف الجماهير عن الاهتمام بالمسائل السياسية، فإنهم يلهونها بأنواع شتى من الملاهي والألعاب ومزجيات الفراغ وغيرها، ولا ينسون أيضاً تدبير الأزمات الاقتصادية وإلحاء الحكومات إلى القروض وتحميلها بالفوائد^(٢).

(ج) كيف أفلح اليهود -وهم أصحاب الدين المغلق- من إقامة دولة وكيان قائم

على عقيدة دينية؟

تمهيداً للإجابة على هذا السؤال نستطلع بعض مواد البروتوكولات، ومنها (إن السياسة لا تتفق مع الأخلاق في شيء)^(٣)، وفي نص آخر يشير إلى ضرورة سحق كيان حكومة الأقلية الفاضلة العادلة التي تقف ضدهم، ثم تأتي الخطوة التالية أي: (نستثير مرض ضحايانا من أجل المنافع، وشرهم ونهمهم، والحاجات المادية للإنسانية، وكل واحد من هذه الأمراض يستطيع وحده مستقلاً بنفسه أن يحطم طليعة الشعب، وبذلك نضع قوة إرادة الشعب تحت رحمة أولئك الذين سيجرونه من قوة طليعته)^(٤) أي يؤسد الأمر إلى غير أهله، وأضاف إلى ذلك الالتزام بشعارهم وخلاصته (كل وسائل العنف والخديعة)^(٥).

وتأتينا الإجابة على لسان الأستاذ العقاد في وصف أساليب الصهيونية وتلخص في (استطلاع الأسرار والخفايا، وتسخير سلطان المال لاستغلال الحركات الاجتماعية والعلاقات الشخصية بذوي النفوذ، والاتجاه بها إلى الوجهة التي تحقق لها مصالحها وأغراضها)^(٦).

(١) ينظر البروتوكولات الصفحات ١٦٣، ١٧٩، ١٤٦، ١٥١.

(٢) المرجع نفسه ص ١٨٣: ٢١٨.

(٣) المرجع نفسه ص ١٢٢.

(٤) المرجع نفسه ص ١٣٠ ويفسر الأستاذ التونسي الطليعة بأنهم الممتازون الذين يتقدمون طوائف الشعب ويتزعمونها ويقضون في أمورهم.

(٥) المرجع نفسه ص ١٢٢.

(٦) الصهيونية العالمية ص ٧٥، ويتحدث عن (الصهيونية المستعمرة) التي ظهرت فقط في العصر الحديث، بينما لم تقم لليهودية كلها دولة في العالم منذ أكثر من سبعة وعشرين قرناً، فلم تكن قط

ثم يكشف لنا الدكتور حامد ربيع عن أسرار أخرى لا تتوافر إلا للقلّة، فقد عكف على دراسة أدوات الغزو الاستعماري أو ما يسميها «أدوات التسميم السياسي» الذي خضعت له المنطقة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وخلص إلى لفت أنظارنا إلى طبيعة الاستشراق كأداة من أدوات الغزو الاستعماري، وبين أنشطته:

(١) كوسيلة للنفوذ الغربي في فهم العالم العربي.

(٢) كأداة لاستقطاع القوى غير المسلمة، وبذر عناصر الطابور الخامس في تلك الأقليات.

(٣) كأداة لإعادة تشكيل منطقتي الطبقات القيادية.

هذا، ولم يتهيأ للاستشراق النجاح إلا بعد بذره للمدارس الأجنبية والإرساليات الإنجليزية والفرنسية والأمريكية، ثم الجامعات التي كانت أداة ثقافات غير عربية (وغير إسلامية أيضاً). وجاءت الحركة الصهيونية فانتفعت بكل هذه الخبرات وأضافت إليها^(١).

قط في عدااء المستعمرين بقوة حكومتها وجيشها، وإنما كان عملها في الاستعمار أنها تستتر وراءه، وتهد له وتعتمد عليه في الاستغلال وامتصاص دماء الشعوب.

(١) باختصار من كتاب (الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وإرادة التكامل القومي) ص ٢٨ / ٢٩، دار الموقف العربي بالقاهرة ١٩٨٢م. ويبرهن د/ حامد ربيع على صدق استنتاجاته بأن أمة الجهاد انحرف بها بعض قادتها إلى أسلوب التفاوض مثل سعد زغلول في مصر ونوري السعيد في بغداد، كذلك أخذت بعض القيادات الفكرية تسبح بحمد الحضارة الغربية: مثل طه حسين وتوفيق الحكيم، بينما عاش العقاد مشرداً ومات فقيراً.

الألوهية

إن كل من يبحث عقيدة الألوهية في الديانة اليهودية المحرفة من مصادرها- التوراة والتلمود - يتضح أن فكرة الألوهية لديهم كانت قد انتكست في عصر تدوينهم لهذه الأسفار (فتصوروا الله عز وجل في صورة مجسمة، ووصفوه بكثير من الصفات غير اللائقة بالألوهية- تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا) ^(١).

منها الزعم الكاذب بأن الله (تعالى علوا كبيرا) استراح في اليوم السابع بعد خلق السموات والأرض، فأعلن القرآن الكريم كذبهم وهتانهم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

وتدل هذه الأسفار أيضاً على أنهم كانوا يعتقدون بتعدد الآلهة مع تصورهم بأن لهم إلهاً خاصاً وإنهم هم أحباؤه. وتقول السيدة/ مريم جميلة المهتدية للإسلام «وكان تصوري لإله اليهود مشوهاً وغير لائق، فقد بدا لي الله في صورة وكيل مقاطعة دنيوية» ^(٢) واعتقدت بعض فرقهم بوجود ابن لله.

وهناك تخيلات وأوهام يلحقونها بالله -تعالى-، منها ما يرويه التلمود عن أعماله في الليل والنهار، وعن حالته بعد هدم الهيكل وتشريد بني إسرائيل (كمذاكرة التلمود مع الملائكة، ومع ملك الشياطين والاعتراف بالخطأ بعد هدم الهيكل وتشريد بني إسرائيل والبكاء والندم والغضب على بني إسرائيل والقضاء عليهم بالتشريد والشقاء)، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ^(٣).

إن مثل هذه الاعتقادات الباطلة المخالفة لعقائد التنزيه لله تعالى جعلت عالماً غريباً كبيراً- وهو -ول ديورانت- يميل إلى ترجيح أن الفاتحين اليهود «عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه على الصورة التي كانوا هم عليها، وجعلوا منه إلهاً: يهوه، فيهوه ليس خالقهم بل مخلوق لهم، وفي يهوه صفاتهم الحربية: التدمير والسرقة، وفيهوه قاس مدمر متعصب لشعبه لأنه ليس إله كل الشعوب، بل إله بني إسرائيل فقط، وهو بذلك عدو للآلهة الآخرين، كما أن شعبه عدو للشعوب الأخرى» ^(٤).

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، د / علي عبد الواحد وافي ص ٢٤.

(٢) رجال ونساء أسلموا ج ١ ص ٣٩ - ط. دار القلم- الكويت ١٣٩٨ هـ / ١٩٨٧ م.

(٣) الأسفار المقدسة ص ٢٨ / ٢٩.

(٤) قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٤ نقلا عن (المخططات التلمودية للأستاذ أنور الجندي ص ٢٩).

من هنا، حق لكل منصف من علماء مقارنة الأديان -كالقرافي- أن يتساءل (فأين هذا القول من قول المسلمين؟ إن خلق الله -تعالى- لجملة العوالم كخلقه لأقل جزء من جناح بعوضة، وإن إيجاده بأن يقول للشيء: كن فيكون) ^(١).

ويستخلص من ذلك - وكذلك يفعل كل باحث منصت لصوت العقل، ومستخدم لموازين العدل - أنه شتان بين عقائد اليهود بمصادرها المحرفة - وبين عقائد المسلمين الذين يثبتون لله -تعالى- الصفات اللاتئة بكماله وجلاله -عز وجل- من التوحيد والتمجيد اللائق بجلال الربوبية وتعظيم الله -تعالى- (وأما قول اليهود فتأنف منه دبغة الجلود، وهذه المواضع وشبهها من أعظم الأدلة على تبديل التوراة وأنها غير المنزلة من الله تعالى، وهذا يجزم به كل عاقل) ^(٢).

الإيمان بالله واليوم الآخر:

يلاحظ الباحثون أن هناك اضطراباً وغموضاً في عقيدة اليهود في اليوم الآخر، فهي أقرب إلى الإنكار منها إلى الإقرار والإيمان.

ويرجع ذلك إلى اختلاف النصوص الواردة عن الآخرة بين التوراة والتلمود: فقد خلت أسفار العهد القديم من ذكر اليوم الآخر ونعيمه وجحيمه، بينما ذكر التلمود في بعض فقراته الجنة والنار (ولكنها في صورة مضطربة أدنى إلى الخرافة والأساطير منها إلى حقائق العقيدة، فتذكر هذه الفقرات أن الجنة تأوي إليها الأرواح الزكية، وأنه لا يدخلها إلا اليهود، وأن أهلها يطعمون من لحم أنثى الحوت المملحة، كما يتناولون لحم طير كبير لذيق الطعم ولحم إوز سمين، وأن شراهم فيها نبيذ معتق عصره الله في اليوم الثاني من الأيام التي خلق فيها العالم، وأن النار لغير اليهود من المسلمين والمسيحيين) ^(٣).

ومن هنا اختلفت الآراء حول معتقدات اليهود عن اليوم الآخر، فيرى الدكتور وافي أن بعض فرق غير شهيرة من فرق اليهود كانت تذهب في عقيدتها إلى ما يقرره التلمود في هذه الفقرات، وكانت تفسرها بمدلولها الحقيقي لا بمدلولها المجازي ^(٤).

(١) الأجوبة الفاخرة (عن الأسئلة الفاجرة) للقرافي ص ١٤٨ - ط دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) نفس المصدر.

(٣) الأسفار المقدسة ص ٢٨.

(٤) المرجع نفسه ص ٢٩.

ويستدل من ذلك على أن أسفارهم من صنع أيديهم، وأن توراتهم المزعومة مخالفة للتوراة الصحيحة التي أنزلها الله - تعالى - على موسى عليه السلام نوراً وهدى للناس.

وقد وجدت هذه الاضطرابات في النصوص والاختلاف في التأويل لدى اليهود والمعاصرين حيث تأتي أصدق شهادة على لسان السيدة/ مريم جميلة المهتدية للإسلام - حيث تخبرنا باعتقاد والدها وأفراد أسرتها وجميع أصدقائهم الذين (يهزأون من أي تفكير في الآخرة، ويقولون بأنها خرافة محضة وأن الإيمان بيوم القيامة والجزاء في الجنة والعقاب في النار ضرب من الأفكار البالية من مخلفات العصور القديمة) ^(١).

ثم تخبرنا بما هو أعجب وأدعى إلى التفكير والنظر في تطور هذه العقيدة في أذهان الصهاينة وارتباطها بفكرة إنشاء إسرائيل. فقد زعم أحد الأخبار بأنها «تعني حق اليهود الباطل في العودة إلى فلسطين» ^(٢).

(١) رجال ونساء أسلموا ج ١ ص ٥١ وذكرت أن فلسفة والدها كانت تلخص في أن على الواحد

منا أن يتجنب التفكير في الموت وأن يتمتع بمباهج الحياة بأقصى ما يستطيع.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٩ والخبر هو إبراهيم إسحق رئيس قسم الدراسات العبرية بجامعة نيويورك

الذي زعم أيضاً بأن الإسلام مشتق من اليهودية.

الأنبياء

تنسب الأسفار لبعض الأنبياء - كما يذكر الدكتور وافي - أعمالاً قبيحة تتنافى مع وضعهم الديني والاجتماعي، بل تتعارض مع الخلق الكريم في ذاته ولا يتصور صدورها إلا من سفلة الناس، كالقصص المفتراة عن إبراهيم ولوط وداود ونوح عليهم السلام^(١).

ومن جهة أخرى يتوسع اليهود - لا سيما الذين لا يلتزمون بالنصوص المقدسة - في دائرة النبوة والأنبياء، ويدخلون فيها كل من هب ودب، فيرون في (الكهنة والأخبار الذين تلوا الأنبياء الأخيرين: دانيال وإستير وعزرا ونحميا وملاكي، استمراراً للوحي والنبوة).

ويضيف الدكتور حسن ظاظا إلى قوله: (بل إن كثيراً من العلمانيين اليهود ممن ألهمت أرواحهم نيران الصهيونية الحديثة ييقنون باب النبوة هذا مفتوحاً حتى القرن العشرين ليدخل منه تيودور هرتزل أيضاً)^(٢).

كذلك فقد أنكروا نبوة نبينا محمد ﷺ، ولكنهم لم يفلحوا - ولا أفلح غيرهم - من النيل منه مهما اختلقوا من أكاذيب وافتراءات لأنها تصدع وتنهار أمام شخصيته وأخلاقه التي تسمو على المطاعين والترهات لكل من درس سيرته بتجرد ونزاهة - بل يتضح الإسلام في دائرته الواسعة - كدين وحضارة - مرتبطاً بشخصيته أوثق ارتباط، إذ يتضح أيضاً صدق نبوته إذا ما استخدمنا منه المقارنة بهذه الرؤية الجامعة لأن شخصيته وسنته ليست بمعزل عن شريعة الإسلام وأمة الإسلام لأنها من آثاره الباقية، ﷺ.

وهذا ما فعله ابن تيمية بمنهجه المقارن الموسع المتضمن لهذه الشعب كلها: بدأ بسرد مجمل مبيّن بعده تفاصيل ما أجمله، فقال: (وسيرة الرسول ﷺ من آياته وأخلاقه، وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته، وأمته من آياته، وعلم أمته ودينهم، من آياته وكرامات صالح أمته من آياته، وذلك يظهر بتدبير سيرته من حين ولد إلى أن بعث، ومن حين بعث إلى أن مات)^(٣) وفصل بعد ذلك حيث أورد أن نسبه من صميم سلالة

(١) الأسفار المقدسة ص ٤٠ / ٤٨. ومما يذكر أيضاً إن تاريخهم ازدحم أيضاً بالأنبياء المحترفين الذين ازدادوا زيادة كبيرة جعلت الجيل الواحد يشهد أكثر من ٤٥٠ من ذلك الصنف (ينظر كتاب المهندس أحمد عبد الوهاب (النبوة والأنبياء) مكتبة وهبة بالقاهرة - ١٤٠٠ هـ / ١٩٧٩ م).

(٢) ص ٥ - ٦ من كتاب (الفكر الديني اليهودي: أطواره ومذاهبه) دار القلم - دمشق ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م دار العلوم بيروت.

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج ٤ ص ٨٠ مطبعة المدني بدون تاريخ، كذلك لا ينبغي إغفال بشارات التوراة والإنجيل بمجيء محمد ﷺ التي ينكرها اليهود والنصارى - عناداً - منها =

إبراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وقد دعا إبراهيم لذرية إساعيل بأن يبعث فيهم رسولا منهم.

وكان -عليه الصلاة والسلام- أكمل الناس تربية ونشأة، ولم يزل معروفاً بالصدق والبر والعدل ومكارم الأخلاق، وكان أمياً من قوم أميين، ولم يقرأ شيئاً عن علوم الناس، ومع هذا فإنه عندما أكمل أربعين سنة أتى بأمر هو أعجب الأمور وأعظمها، فجاء بعجائب الآيات وأكمل الشرائع، وظهر دينه بالعلم والحجة واليد والقوة، واتبعه ضعفاء الناس لا لرغبة ولا لرهبة وعاداه أهل الرياسة، وآذوه وآذوا أتباعه بأنواع الأذى، وهم صابرون محتسبون^(١).

وعندما اجتمع في أحد مواسم الحج بأهل يثرب، وكانوا قد سمعوا من جيرانهم اليهود عنه -آمنوا به واتبعوه فهاجر هو وأصحابه إليهم، ثم أذن له في الجهاد، ثم أمر به، فقام بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها في جميع حالاته.

وعندما مات ﷺ لم يخلف شيئاً إلا بغلته وسلاحه، ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين صاعاً من شعير.

= ما ورد في سفر التثنية (جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعيير وتلألا من جبل فاران -ينظر كتاب محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد -مكتبة الوعي العربي من ص ٣٥ إلى ٤٩، وكتاب النبوة والأنبياء المهندس أحمد عبد الوهاب من ص ١١٩ إلى ص ١٦٢ على سبيل المثال لا الحصر ولعل أبرز الكتب التي عاجلت نبوءات الكتاب المقدس بإسهاب هو كتاب (محمد ﷺ) تأليف البروفسور عبد الأحـد داود المهـتدي للإسلام ترجمة فهمي شـا ومراجعة وتعليق أحمد محمد الصديق من مطبوعات رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ وعن التبشير برسول الله ﷺ قال الأستاذ محمد قطب: وجاء الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام (يأتي من بعد الفارار قليط) وهذه كلمة يونانية معناها الحمد، أي إنها مشتقة من أحمد) وقد أبوا أن يترجموها في النسخة العربية وأبقوها هكذا لكي تظل غير مفهومة للقارئ، ولكيلا يعلم من هذا الذي سيأتي بعد المسيح (عليه السلام) وقد مر الزمن، ولم يأت بعد المسيح إلا محمد ﷺ).

وفي عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٥م) نشرت صحيفة الأهرام المصرية هذا النبأ على إحدى صفحاتها: «عثر في دير سانت كاترين بسيناء على نسخة قديمة من التوراة جاء فيها ذكر محمد ﷺ، ثم اختفت هذه النسخة ولم تعد مرة أخرى إلى الظهور. ص ١١٦ من كتاب: علم التوحيد للصف الثاني الثانوي محمد قطب (الرئاسة العامة لتعليم البنات بالسعودية عام ط ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م).

(١) المرجع نفسه ص ٨١ مختصراً.

وهو في كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه^(١). وبعد هذه الأوصاف التي أوجزناها نقلا عن ابن تيمية، يأتي إلى المقارنة بين عقائده وشريعته والعقائد والشرائع الأخرى.

لقد جمع محاسن ما عليه الأمم ففي العقيدة والتوحيد لا يذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوعاً من الخبر عن الله، وعن ملائكته، وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء على أكمل وجه وأخبر بأشياء ليست في هذه الكتب.

وقس على ذلك العبادات والحدود والأحكام، وسائر الشرائع، وكلها أفضل وأرجح، فليس في تلك الكتب إيجاب لعدل وقضاء بفضل، وندب إلى الفضائل وترغيب في الحسنات إلا وقد جاء به، وبما هو أحسن منه^(٢).

وينوه ابن تيمية بفضائل أمته ﷺ من حيث الشجاعة والجهاد في سبيل الله والسخاء والبذل، وكلها تعلموها منه، دون اتباع كتاب قبله مثلما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة.

وآمنت أمته بالرسول والأنبياء قبله، وآمنت بجميع الكتب المنزلة كما أمرهم ولم يستحلوا أخذ شيء من الدين من غير ما جاء به. ومن أدخل في الدين ما ليس منه مثل أقوال فلاسفة اليونان والفرس أو الهند، أو غيرهم وكان عندهم من أهل الإلحاد والابتداع.

وبالرغم من التنازل الذي حدث بين المسلمين إلا أنهم اتفقوا على هذا الأصل الذي هو دين الرسل عموماً، ودين محمد ﷺ خصوصاً. ومن خالف هذا الأصل كان عندهم ملحدًا مذمومًا^(٣).

(١) المرجع نفسه ص ٨٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٨٣.

(٣) المرجع السابق ص ٨٥.

وينتهي شيخ الإسلام في الختام إلى بيان أن كمال علمه ودينه، يناقض الشر والخبث والجهل، فتعين أنه متصف بغاية الكمال في العلم والدين، وهذا يستلزم أنه كان صادقاً في قوله: (إني رسول الله ﷺ) (١).

وبعد: هذه هي معالم المنهج الموسع المستخدم بواسطة شيخ الإسلام، وسنعود إلى تطبيق بعض شعبه بعد حديثنا عن الديانة النصرانية، لأن أتباعها أيضاً لا يقرون بنبوته...

(١) المرجع نفسه ص ٨٦.

الفصل السادس

النصرانية

تمهيد:

لم ينقطع الحجاج العقلي مع أهل الكتاب منذ نزول الوحي على رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

واستمرت المحاورات والمناقشات -وما زالت- تشتد حيناً وتضعف أخرى ولا يكاد يخلو عصر من المساجلات الشفوية والمدونة ^(١).

غير أننا نعيش في عصر تفرّد بمظاهر جديدة خلعت منه العصور الماضية ^(٢) فقد تحولت فيه اليهودية إلى دين سياسي كما بينا آنفاً، كذلك فإن النصرانية قد دخلت نفس المرحلة، أي: اكتساب النفوذ السياسي بإعلان البابا الكاثوليكي ليون الثالث عشر في ١٥/٥/١٨٩١م (إرادة الكنيسة في أن تتدخل في الأحداث وأن تدفع القوى السياسية المدافعة عن مبادئها في سبيل تحقيق أهدافها المدنية) ^(٣).

كذلك صاحبت موجة الاستعمار موجات التبشير حتى وصفت هذه المرحلة المعاصرة بأنها امتداد للحروب الصليبية في العصور الوسطى، ولكن في أثواب جديدة أشد

(١) من أشهرها في العصر الحاضر محاورات الأستاذ أحمد ديدات مع رجال الدين النصارى، ومنها محاورته مع القس الأمريكي سوجارت.

(٢) وأبرزها اتفاق اليهود والنصارى في عدائهم للإسلام والمسلمين، فقد عم الفرح والسرور أوروبا وأمريكا على أثر هزيمة المسلمين العرب في حرب يونيو ١٩٦٧ بينما لا ننسى مسئوليتيهما عن إنشاء إسرائيل (٤٧/٤٨ من كتاب رسالة البابا بولس السادس - د/عبد الودود شليبي) ط. دار الأنصار بالقاهرة ١٩٧٨.

(٣) سلوك المالك في تدبير الممالك ج ١ ص ٤١ تحقيق وتعليق د/حامد ربيع حيث يسجل أيضاً إنه في نفس الوقت يلاحظ (تقييد الدلالة السياسية للدين الإسلامي وإبعاده بصورة أو بأخرى من الحركة السياسية ومن مفاهيم الصراع السياسي) نفس المصدر ص ٤٤.

وأخطر من سابقتها، إذ توالى الحملات على الإسلام وكتابه ورسوله ﷺ بأقلام حاقدة لا تبغي الحق بقدر ما تبغي الإساءة والطعن^(١).

وها نحن أمام خيوط عدائية تشابكت في شكل استعمار عسكري وتشويه للإسلام وحملات تبشير ومن ثم فإنه من التبسيط المخجل وصف كل هذا بأنه مجرد «غزو ثقافي».

كلا إنه تكتل ذو أبعاد دينية ونفسية وتاريخية وثقافية يحمل برمته طابع الاصطدام والتحدي الذي لم ينقطع بين الحضارتين: الغربية المسيحية والحضارة الإسلامية.

يقول الدكتور حامد ربيع: «هذه الرهبة التي ترسبت في ذهن القيادات الأوروبية تعود إلى بداية العصور الوسطى، وظهرت خوفاً من الدولة العثمانية يرتبط هذا الخوف بعملية تشويه الحقيقة الإسلامية.. الحضارة الأوروبية استندت دائماً إلى كبرياء شكلي، وهي في هذا وريثة الحضارة الرومانية: حضارة القوة والغطرسة.. عقدة الإسقاط تأبى إلا إضفاء عيوب الذات على الغير.. وتأتي الحركات التبشيرية لتكمل هذا التطور: تشويه الإسلام»^(٢).

الأمة الإسلامية: أمة ودعوة:

ولكن الحق أننا أمة داعية، ولسنا أمة معتدية، رسالتنا الهداية إلى الحق لا السيطرة والاستعلاء وقهر الشعوب، وصفحات تاريخنا أنصع بياضاً من أية صفحات أمة أخرى، فلم تتعرض جيوشنا إلا لحماية الظلم ومانعي الدعاة من أداة رسالتهم، وكانت الحروب سجلاً بين جندنا وجند قاهري الشعوب الذين يقفون عقبة في سبيل الهداية، فلم تتعرض للسكان الآمنين المدنيين شيوخاً ونساء وأطفالاً ورهباناً في صوامعهم.

يقول الجويني: (ابتعث الله محمداً ﷺ إلى الثقلين، وحتم المستقلين بأعباء شريعته دعوتين:

(١) وتعدى الأمر إلى ممارسة الطعن أثناء حملات الزيارات الشخصية. يقول الأستاذ أحمد ديدات: (كنت وأصدقائي هدفاً دائماً لخريجي هذا المعهد، أي: معهد تخريج الوعاظ النصارى فلم يكن يمر يوم لا يضيّقنا فيه هؤلاء بإهاناتهم للإسلام، والنبي ﷺ والقرآن). ص ٨٥ من كتابه (هل الكتاب المقدس كلام الله؟) - ترجمة نورة أحمد النومان - مكتبة أبي القاسم جدة.

(٢) الإسلام والقوى الدولية ص ١١/٩ - ط دار الموقف العربي ١٩٨١م.

إحداهما:

الدعوة المقرونة بالأدلة والبراهين والقصد منها إزالة الشبهات وإيضاح البينات.
والأخرى: الدعوة القهرية المؤيدة بالسيف المسلول على المارقين الذين أبوا
واستكبروا بعد وضوح الحق المبين).

من هذا الفهم الفقهي الصحيح لرسالتنا والتطبيقات الواقعية المطابقة لحقائق
التاريخ، يحق لنا أن نتألم ونمتعض مما يلاقيه العالم الإسلامي منذ الحروب الصليبية من
روح عدائية، تظهر آثارها على أمتنا وشعوبنا الآن في أندونيسيا والفلبين وتايلاند والهند
والحبشة والسودان وبلغاريا وألبانيا ويوغوسلافيا وغيرها من البلدان التي يستهدف فيها
المسلمون لألوان من التعسف والظلم وكبت الحريات وحملات التنصير.

ومع هذا كله فإننا سنتخلص بقدر طاقتنا من آثارها على النفس بالصبر والمثابرة،
ونقيم منهجنا العلمي في عرض العقائد النصرانية وشرحها في ضوء قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي
أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(١)،
محتكمين إلى المناقشة الهادئة بالحجج العقلية والطرق المنطقية لتوعية أبنائنا بحملات التشهير
التي تجاوز أحيانا كل الحدود، ونأمل أيضا أن نلقى آذانا صاغية وقلوبا خاوية من التعصب
ورغبة في معرفة الحق واتباعه، لا سيما بعد انحياز العالم الغربي لليهود مع استخدام التبشير
لاستمرار استعمار العالم الإسلامي، فإن العلاقة وثيقة بينهما (وخاصة ما يصدر عن العالم
الأنجلو سكسوني البروتستانتي الذي يخضع بحكم تراثه الديني والفكري إلى التأثير اليهودي
وتفسيراته المتعسفة لنبوءات العهد القديم، حيث تدعي إسرائيل قيامها على مزاعم توراثية
دينية يؤمن بها البروتستانت إيمانا أعمى)^(٢).

(١) سورة التوبة آية: ٣٣، والصف آية: ٩.

(٢) غياث الأمم في التياث الظلم ص ١٥٣/١٥٤ تحقيق د/ فؤاد عبد المنعم ومصطفى حلمي - ط -
دار الدعوة الإسلامية بالإسكندرية ١٤٠٠هـ / ١٩٧٩ م.

التعريف بالأناجيل

تعتبر الأناجيل في النصرانية -كما يقرر الشيخ أبو زهرة- بمكانة القطب والعماد في النصرانية، فهي تشتمل على أخبار شخصية المسيح عليه السلام من وقت الحمل إلى وقت الصلب في اعتقادهم، وقيامه من قبره بعد ثلاث ليال ثم رفعه بعد أربعين ليلة، كما تشتمل على عقيدة ألوهية المسيح في زعمهم والصلب والفداء ^(١).

وقد كثرت الأناجيل كثرة عظيمة كما أثبت ذلك مؤرخو النصرانية (ثم أرادت، الكنيسة في آخر القرن الثاني الميلادي -أو أوائل القرن الرابع - أن تحافظ على الأناجيل الصادقة - في اعتقادها- فاختارت هذه الأناجيل الأربعة من الأناجيل الرائجة إبان ذلك) ^(٢).

أما عن طريقة اختيار هذه الأناجيل فلا تخلو من طرافة حيث يروي التاريخ أن قسطنطين الأكبر جمع ثلاثمائة من القساوسة فوضعوا الأناجيل تحت طاولة العشاء المقدس ودعوا الله أن تصعد الأناجيل الصادقة فوق الطاولة، ويبقى الزائف منها تحتها، فصعدت الأناجيل الأربعة الحالية فوق الطاولة وأصدر قسطنطين قراراً باعتبار غيرها زائفة، وأمر بإحراقها وإعدام كل من احتفظ بنسخة منها ^(٣).

ويقول موشيم في كتابه (تاريخ الكنيسة): «لقد كانت هذه الأحكام ظالمة غير معقولة، حتى أن الملك نفسه ندم عليها بعد ذلك. فقد أصدر الملك قسطنطين حكمه بإحراق كتب فرقة آريوس في ذلك الموكب ونفيهم من البلاد، لكنه بعد بضعة أعوام وفي ٣٣٠م حين قالت أخت الملك وهي على فراش الموت أن قراره ضد هذه الفرقة كان ظالماً، وقد أصدره بناء على تعصب أعداء آريوس لا على أساس الصدق والحق، ألغى الملك قراره هذا، ولكن آريوس كان قد مات قبل أن يصل إليه قرار العفو» ^(٤).

(١) محاضرات في النصرانية ص ٤٨/٤٩ - ط. الرئاسة العامة للبحوث العلمية بالرياض ١٤٠٤ هجرية.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٩.

(٣) تاريخ الإنجيل والكنيسة ص ٦٦ لأحمد إدريس / دار الحراء بمكة المكرمة ١٩٨٧ م.

(٤) نقلاً عن المصدر السابق.

ومهما يكن من أمر، فلا ينبغي أن تنسبنا هذه الأحداث المذهلة الوقوف على الوثائق الأصلية التي اعتمدت عليها الأناجيل، وهل تحمل فعلا كلمة الرب؟
الأصول المخطوطة:

يذكر القس سوجارت في مجال الإثبات أنه (يوجد ما يقرب من أربع وعشرين ألف مخطوط يدوي قديم من كلمة الرب، من العهد الجديد وحده في الواقع وأقدمها يرجع إلى ثلاثمائة وخمسين عاما بعد الميلاد. والنسخة الأصلية أو المنظورة أو المخطوط الأول لكلمة الرب لا وجود لها)^(١).

ولكن الشيخ أحمد ديدات أثبت أن ذلك ليس دليلا على أنها من عند الله -تعالى - إذ ليس بين هذه المخطوطات -على كثرتها - اثنان متماثلان باعتراف علماء النصراني أنفسهم، فالإنجيل الذي بين أيديهم ليس إنجيل عيسى عليه السلام الذي هو من عند الله، أو عندما تتفحص هذه الكتب تجد العبادات الآتية المذكورة بنسخة الملك جيمس وهي:

«الإنجيل وفقا للقديس متى»

«الإنجيل وفقا للقديس مرقس»

«الإنجيل وفقا للقديس لوقا»

«الإنجيل وفقا للقديس يوحنا»

(١) المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان -بين الشيخ ديدات والقسيس سوجارت ص ١٢١، جمع وترتيب د/أحمد حجازي السقا وتقديم الشيخ محمد الغزالي - مكتبة زهران بالأزهر بمصر

صلة الأنجيل بالتوراة

وقبل الحديث عن الأنجيل الأربعة عند النصارى، يحسن بنا أيضاً شرح العلاقة بينها وبين التوراة، وموقف كل من اليهود والنصارى منهما، فإن اليهود (يؤمنون بأن العهد القديم أو التوراة وحدها هي كلام الله، ولا يعترفون بالعهد الجديد، أما المسيحيون فيعتبرون العهد القديم كتاب الشريعة والعهد الجديد عهد الفضل والكفارة)^(١).

وتعليل ذلك أن الأنجيل خلت من الأحكام التشريعية واعتماداً إلى الرواية المنسوبة للمسيح عليه السلام أنه ما جاء لينقض الناموس - أي: شريعة موسى - بل ليكمّله (وباستثناء الأمور التي يرى المسيحيون أن الإنجيل قد نسخها من التوراة فإنهم يؤمنون بقيمتها ويعتبرونها كتاباً مقدساً إلهياً لا غنى عنه في التشريع)^(٢).

أما عن تاريخ التدوين فيذكر كولمان في كتابه (العهد الجديد) أن الإنجيل ظل خلال ثلاثين أو أربعين سنة موجوداً بشكل عام بصورة شفوية وكانت الصياغة الشفوية بتأثير وعظ تلاميذ المسيح عليه السلام - ووعاظ آخرين، ثم جمعت هذه الروايات الشفوية وكتب^(٣).

ويقول الأب كنغسر: «لا ينبغي الأخذ حرفياً بالأنجيل، فهي (مكتوبة بالمناسبة) أو (للنضال) أوردتها الكتاب خطياً بروايات جماعاتهم عن المسيح^(٤)».

ألا يلفت نظرنا تعبيراته عن الكتابة بالمناسبة وللنضال؟ لا شك أنها تخفي وراءها عوامل نزاعات دينية وخلافات عقائدية.

إذاً لا بد لاستكمال حلقات البحث والتمهيد لفهم واستيعاب نصوص الأنجيل من ضرورة التعريف بالشخصية البارزة في تاريخ المسيحية المبكر، والتي ترتبط به العقائد والطقوس المسيحية - وهو بولس - أو شاول - كذلك ضرورة إلقاء الضوء على المعارضة

(١) تاريخ الإنجيل والكنيسة، أحمد إدريس ص ٦١ - ط. دار حراء بمكة المكرمة ١٩٨٧ م.

(٢) المرجع نفسه: ويورد ابن كمونة اليهودي مضمون عقيدتهم في هذا الصدد حيث قالوا: (نحن) مؤمنون بكل ما جاء في التوراة وفي آثار بني إسرائيل التي لا مدفع في صدقها لشهرتها وعلاقتها في الجماهير العظام. ونؤمن بأنه في أخريات أمرهم وعقائبه تجسّمت اللاهوتية وصارت جنباً في بطن عذراء من أشرف نساء بني إسرائيل من نسل داود).. (من كتاب تنقيح الأبحاث للملل الثلاث: اليهودية - المسيحية - الإسلام) لسعد بن منصور ابن كمونة اليهودية (القرن السابع الهجري) ط. دار الأنصار بالقاهرة - تقديم د/عبد العظيم المطعني.

(٣) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ص ٧٦/٧٧ باختصار.

(٤) المرجع نفسه ص ٧٨.

الشديدة التي لقيها من أتباع المسيح عليه السلام، والتي لولا الإمام بها، لما استطعنا أن نقف على البواعث الحقيقية لكتابة الأناجيل.

(أ) كلمة عن بولس:

لا بد للباحث في النصرانية من الإحاطة بشخصية «بولس» الذي حوّل مجرى عقائدها وعباداتها، عما جاء به عيسى عليه السلام إلى ديانة أخرى مخالفة تماماً وصح نسبته إلى «بولس» بدلاً من نسبتها إلى المسيح عليه السلام.

فمن بولس؟ أو شاول؟

إنه يعرفنا بنفسه بقوله: (أنا يهودي فريس بن فريس على رجاء قيامة الأموات)، وكان شديد العداء للمسيحيين، فأخذ يعمل فيهم قتلاً، ويجر الرجال والنساء ويسلمهم إلى السجن ويسطو على الكنيسة^(١).

وقد تضمن سفر الأعمال صنوفاً من ألوان التعذيب والاضطهاد والتقتيل الذي فعله بالمسيحيين حتى اعترف بنفسه في نصوص كثيرة، منها ما جاء في الإصحاح الثاني والعشرين مخاطباً اليهود (كنت غيورا لله، كما أنتم جميعكم اليوم، واضطهدت هذا الطريق حتى الموت، مقيداً ومسلماً إلى السجن رجالاً ونساء، كما يشهد لي أيضاً رئيس الكهنة وجميع المشيخة الذين إذا أخذت منهم رسائل للأخوة إلى دمشق ذهبت لآتي بالذين هناك إلى أورشليم مقيدين لكي يعاقبوا).

ويعطينا الأستاذ إبراهيم خليل بعض اللحظات المميزة التي تفرق بينه وبين المسيح عليه السلام، من حيث المباحث الدينية وطرق الدعوة، فقد تميزت طريقة المسيح (بطابع السمو والبساطة حتى يفهمها لأول وهلة - الزارع والصانع والمثقف والأمي والرجل والمرأة دون أدنى إجهاد للذهن، وعندما سئل كيف يرث الحياة الأبدية؟ أجاب المسيح عليه السلام: (إن الدين هو حياة وقوة وليس مجرد تعاليم)، الدين هو أن يعيش المرء في إطار أحكام الشرع لا يتعدى أوامر الله ولا يقتصر نواحيه^(٢).

(١) المسيحية للدكتور/ شلي ص ٧٢.

(٢) نقلاً عن محاضرات في النصرانية ص ٨٨.

أما أسلوب بولس المدعو رسولاً، فإنه يعبر عنه في هذا النص: (فإني إذ كنت حراً من الجميع استعبدت نفسي للجميع، لأريح الأكثرين، فصرت لليهودي كيهودي لأريح اليهود، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأريح الذين تحت الناموس.. إلخ، صرت للضعفاء كضعيف لأريح الضعفاء صرت للكل كل شيء لأخلص على كل حال)^(١).

ويستخلص من تحليله لأقواله وتعاليمه أنه كان متعمقا في معرفة الفلسفة اليونانية فكانت سارية في كتاباته، هذه الفلسفة التي لم ترو قط عن المسيح عليه السلام^(٢).

ولم يقتصر الأمر على هذا، بل إنه أشاع فكرة التمييز العنصري أيضاً، وهي تناقض مبادئ المسيح، وها هو نداء بولس إلى أهل غلاطية: (أطرد الجارية وابنها لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة، إذن أيها الأخوة لسنا أولاد جارية بل أولاد حرة). فأين هذا من قول المسيح (أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم)^(٣).

ويصف لوقا كيف تحول بولس إلى المسيحية فيقول: (وعندما كان بولس قرياً من دمشق، فبغته أ برق حوله نور من السماء فسقط على الأرض، وسمع صوتاً قائلاً: شاول، شاول لماذا تضطهدي؟ فقال: من أنت يا سيد؟ فقال الرب: أنا يسوع الذي تضطهده. فقال وهو مرتعد ومتحير: يا رب ماذا تريد أن أفعل؟ فقال له: قم وكرز بالمسيحية). وكان ذلك حوالي سنة ٣٨ م.

وبعد هذه الواقعة التي تدعو حقاً إلى التأمل ثم العجب للتغير المفاجئ المذهل في شخص بولس وعقيدته ودعوته، تأتي في قصة لوقا جملة ذات بال - وتوصف بحق، كما وصفها الدكتور شلبي أنها غيرت وجه التاريخ، وهي (وللوقت جعل يكرز في الجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله)^(٤).

(ولم تكن هذه الفكرة قد عرفت من قبل)

ومنذ ذلك الحين، أخذ يدعو إلى المسيحية بحمية ونشاط، ويستخدم مواهبه من الذكاء وقوى الفكر، والقدرة على التأثير في الجماهير للسيطرة عليهم وانتزاع الثقة به،

(١) محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن ص ١٢١.

(٢) المرجع نفسه ص ١٢٣.

(٣) المرجع نفسه ص ١٢٤.

(٤) المسيحية للدكتور شلبي ص ٥٣.

واستطاع بمواهبه ونشاطه وحركته الدائبة في الدعوة والخطابة والكتابة أن يفرض رأيه على المسيحيين «فيعتنقوه ديناً، ويتخذوا قوله حجة زاعمين أنه رسالة أرسل بها»^(١).

أما وجه العجب في تحول بولس من حالة إلى نقيضها، فهذا الذي يجعلنا نشارك فيه رأي الأستاذ أبو زهرة -رحمه الله تعالى- حيث عبّر عن ذلك بأسلوبه البليغ، ومنطقه السديد، قال بعد بيانه إن انتقال بولس كالكثيرين من الكفر إلى -الإيمان- ربما لا يثير العجب، لأن له أشباه ونظائر، (بل العجب كل العجب أن ينتقل شخص من الكفر المطلق بدين إلى الرسالة في الدين الذي كفر به، وناوأه وعاداه، فإن ذلك ليس له نظير وليس له مشابه ولم يعهد ذلك في أنبياء ورسل قط، وهذه توراة اليهود، وأسفار العهد القديم التي يؤمن بها المسيحيون كما وردها، وكما قالوها، ليذكروا لنا رسولاً بعث من غير أن يكون في حياته الأولى استعداد لتلقي الوحي، وصفاء نفس يجعله أهلاً للإلهام؟ ولا يجعل الاتهام والتكذيب يغلبان على رسالته، وأنه إذا لم يكن للرسالة إرهافات قبل تلقيها، ولا يكون على الأقل قبلها ما ينافيها ويناقضها، ولكن بولس أبو العجب استطاع أن يتغلب على ذلك العجب في عصره، وأن يفرض نفسه على المسيحيين من بعده، وأن يحملهم على نسيان العقل عندما يدرسون أقواله وآرائه وتعاليمه)^(٢).

(ب) النزاعات الدينية:

يوجهننا موريس بوكاي إلى أهم نزاع حدث بين أتباع المسيح عليه السلام منذ رفعه وحتى منتصف القرن الثاني حيث حدثت معركة بين اتجاهين أي: بين ما يمكن أن يسميه «المسيحية البولسية»، «اليهودية - المسيحية»، ويقصد بالأولى المسيحية من وضع بولس، والثانية المسيحية كمذهب يهودي، حيث أخذت الأولى بكثير من التدرج مكانة الثانية واتصرت عليها.

(١) محاضرات في النصرانية ص ٩٠.

(٢) محاضرات في النصرانية ص ٩٠.

ويحدثنا التاريخ بأن (جماعة الرسل الصغيرة)، التي كانت مذهباً يهودياً أميناً على الممارسات، ومراسم المعبد، هذه الجماعة انفصلت عن بولس تماماً، وتصادمت معه بما يعرف بـ (حادث أنطاكية ٤٩) (فقد أسقط بولس الختان والسبت، ومراسم المعبد بالنسبة إلى اليهود، وقد كان على المسيحية أن تتحرر من انتمائها السياسي الديني إلى اليهودية لتفتح على الوثنيين)^(١) وانتهى الأمر بهذه الجماعة من اليهود والمسيحيين إلى اعتبار بولس خائناً، ولديهم وثائق تصفه (بالعدو) وتتهمه (بالازدواجية المداينة) وكان رئيس الجماعة إذ ذاك يعقوب قريب المسيح، وأخذت أسرة المسيح مكانة عظيمة في كنيسة القدس اليهودية - المسيحية (وخلف يعقوب سيكون سمعان بن كليوفاس ابن خالة المسيح)^(٢).

وكانت رسالة اليهودية - المسيحية طيلة القرن الأول منتشرة في كل مكان أي على الساحل السوري الفلسطيني من غزة إلى أنطاكية، وفي آسيا الصغرى كذلك، وكانت روما أيضاً مركزاً مهماً لهم.

ويستخلص موريس بوكاي من الوقائع التاريخية والنزاع بين الطائفتين مغزى هاماً حيث يتضح أن النصوص التي بين أيدينا اليوم بدأت بعد كثير من تعديلات المصادر -حوالي سنة ٧٠ م - أي في العصر الذي كانت فيه الطائفتان المتنافستان في الدّ الخصام. ولما كان اليهود - المسيحيون - هم المسيطرين حتى ٧٠ م، ثم ضعفوا بعد ذلك وقل نفوذهم - فإن ذلك يفسر لنا كيف ظهرت الأناجيل الأربعة فيما بين هذا العام - وقبل ١١٠ م - ويرى الأب كينغسر بأنه لو لم يكن جو الخصومة المثارة من انقسام الفكر البولسي (لما وصلت إلينا هذه الكتابات التي بين أيدينا اليوم) (كتابات القتال هذه)^(٣) برزت هذه الكثرة من الكتابات التي ظهرت عن المسيح، عندما كانت المسيحية ذات

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم - موريس بوكاي ص ٧١/٧٠ باختصار. ترجمة الشيخ حسن خالد - ط. المكتب الإسلامي ١٤٠٧ هجرية / ١٩٨٧ م.

(٢) المرجع نفسه ص ٧١.

(٣) المرجع نفسه ص ٧٣.

الأسلوب البولسي بعد أن انتصرت نهائياً، قد كونت مجموعة نصوصها الرسمية (القانون) الذي أبعد كل الوثائق الأخرى التي لا تتفق مع الخط المختار من الكنيسة ^(١).

ويزيدنا الدكتور أحمد شلبي إيضاحاً عن حركة الاضطهاد الموجهة إلى المسيحيين الأصليين أتباع عيسى عليه السلام، فيذكر أن المسيحية التي خرجت ظافرة لم تكن مسيحية عيسى بل مسيحية بولس، ومسيحية الفلسفة الإغريقية «ولما كانت هذه المسيحية قد ابتدعت أشياء لا يرضى بها المسيحيون الأصليون كألوهية المسيح والتثليث وغيرهما، فقد بدأ صراع جديد اعتبر فيه المسيحيون الأصليون متمردين، وأوقعت بهم المسيحية الإغريقية أو مسيحية بولس ألوانا من العنت والاضطهاد» ^(٢).

وبعد.. فإذا كانت هذه هي العوامل التي أحاطت -تاريخياً- بكتابة الأناجيل فإن محاولات التنقيح مازالت قائمة على قدم وساق، حيث «هناك ادّعاءات كثيرة لتناقضات في الكتاب المقدس لم يستطع العلماء حلها حتى الآن، وفيها ما يسر كل كافر ملحد. فهناك بعض الصعوبات النصية التي مازال العلماء يتصارعون معها إلى يومنا هذا. ولا ينكر هذه الحقيقة إلا من كان جاهلاً بالكتاب المقدس» ^(٣) هذا ولعل التعريف بنسخة الملك جيمس تقرب إلينا فهم هذه المحاولات.

(١) المرجع نفسه ص ٧٣.

(٢) مقارنة الأديان (٢ - المسيحية) للدكتور أحمد شلبي ص ٥٠ - ط. مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥م.

(٣) الحقيقة المجردة - يوليو ١٩٧٥: نقلاً عن (هل الكتاب المقدس كلام الله؟) ص ٧٧.

كتاب طائفة البروتستانت

نسخة الملك جيمس

وصفت هذا النسخة بأنها «أنبل إنجاز في تاريخ النشر الإنجليزي، فمراجعوها عام ١٨٨١/ أعجبوا ببساطتها، وسموها بقوتها ونغماتها المرححة... وإيقاعها الموسيقي وتعبيراتها اللبقة، فقد دخلت في تكوين خصائص المؤسسات الحكومية في الدول المتحدة باللغة الإنجليزية»^(١).

ومع هذا فإن علماء اللاهوت الذين راجعوها، وساعدتهم في إخراجها هيئة استشارية تمثل خمسين طائفة دينية، هم أنفسهم قرروا أن «نصوص الملك جيمس بها عيوب خطيرة جداً، وأن هذه العيوب والأخطاء عديدة وخطيرة مما يستوجب التنقيح في الترجمة الإنجليزية»^(٢).

مع العلم بأن هذه النسخة أقرّها البروتستانت بعد حذف سبعة كتب من أصل كتاب الرومان الكاثوليك، باعتبارها كتب مشكوك في صحتها (ويسمونها الأبوكريفا (Apocrypha).

ويذكر القسيس سوجارت سبب الاستبعاد بأن البروتستانت يؤمنون بأن الأسفار المستبعدة ليست وحيّاً فيقول (وهناك بعض الأسفار، تعرف (بأبوكريفا) وهي لم توضع مع أناجيل البروتستانت، ولكن الكاثوليك يضعونها مع أناجيلهم لأسباب خاصة بهم، والسبب الذي يجعلنا لا نضم هذه الأسفار إلى الإنجيل: هو ببساطة أننا نؤمن بأنها ليست وحيّاً، وعندما نقوم بفحصها، نجد أمامك أسباباً كثيرة تكفي لإظهار أنها ليست وحيّاً)^(٣).

وعندما نهض الشيخ أحمد ديدات ليدلي بدلوه في المناظرة، ألقى الضوء على كلمة «أبو كريفا» واعتبرها من المصطلحات «الفنية» التي يستخدمها القساوسة بينما لا تعرف

(١) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ للداعية أحمد ديدات ص ١٩، ترجمة نورة أحمد النومان - مكتبة أبي القاسم / جدة.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠ أما نسخة الكنيسة الكاثوليكية من الإنجيل فهي نسخة (واي أوليز) والمقصود بنسخة الملك جيمس تلك التي أهداها البطريرك (كيرلس لوكا) بطريرك القسطنطينية إلى الملك جيمس الأول (١٦٠٣/١٦٢٥م).

(٣) المناظرة الحديثة ص ١٢١.

الجماهير المسيحية معناها (ومعناها: مشكوك في أمره -ضعيف- ليس أهلاً لأن يوضع في كتاب الله، ولهذا السبب استبعدوا البروتستانت واعتبروها تلفيقاً)^(١).

ثم أشار إلى نسخة الملك جيمس باعتبارها النسخة المعتمدة وتساءل: «معتمدة ممن؟ ليس من الله تعالى، معتمدة من الملك جيمس، إنه هو الذي اعتمدها، وليس الله تعالى»^(٢).

إنجيل متى:

يصف بوكاي هذا الإنجيل بقوله: «يشغل إنجيل متى المكانة الأولى بين الأناجيل الأربعة، في ترتيب تقديم كتب العهد الجديد، وهذا مثبت تماماً لأن هذا الإنجيل في صورة ما، ليس إلا امتداداً للعهد القديم.

إنه كتب ليُعرف بأن (عيسى عليه السلام) يكمل تاريخ بني إسرائيل)^(٣).

لذلك فقد كتب متى إنجيله بالعبرانية ليُشير اليهود بالمسيحية.

أما عن تاريخ كتابته ومدى صحة نسبه إلى متى، فإن بعض العلماء والنقاد (يميلون إلى القول بأن هذا الإنجيل من تأليف أتباع متى، وأكثر العلماء يرجعون به إلى تلك الفترة البعيدة المحصورة بين عامي ٨٥ و ٩٠ م)^(٤).

وحول ما يدور من علامات استفهام حول تاريخ تدوينه وترجمته ومعلوماتنا عن شخصية المترجم، غير ذلك من بيانات ضرورية لتوثيق نصوصه يقرر الشيخ أبو زهرة أن كل هذا يؤدي إلى فقد حلقات في البحث العلمي^(٥).

(١) نفس المصدر ص ١٣١.

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٢.

(٣) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم -موريس بوكاي ص ٨٠ ترجمة الشيخ حسن خالد - ط المكتب الإسلامي ١٤٠٧ هجرية / ١٩٨٧ م.

(٤) محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد ص ١٣٤ ويذكر إن متى يعتمد على المعجزات التي تعزى إلى المسيح، ويحرص حرصاً شديداً - يدعو إلى الريية - على أن يثبت أن كثيراً من نبوءات العهد القديم قد تحققت في شخص المسيح عليه السلام).

(٥) محاضرات في النصرانية ص ٥٤.

كذلك يقرر الكاهن (جيمس كلسي) أن (التعاليم القديمة تعزو هذا الإنجيل إلى الحوارى متى. هذا ما يقوله الناس، لكن العلماء في عصرنا الحاضر يرفض معظمهم وجهة النظر هذه)^(١).

وربما يعتمد في ذلك على ما يراه بعض الباحثين المسيحيين «أن الجزء الذي ألفه متى الحوارى ضاع في زمانه، وأن ما بين أيدينا الآن لم يصرح مؤلفه فيه باسمه»^(٢).

لذلك يتساءل الأستاذ أحمد ديدات متعجباً (فإذا لم ينسب هذا الكتاب (بشارة متى) إلى الحوارى متى، فكيف قبله كلام الله؟)، وهو يستند في نفي نسبة الكتاب إلى متى -إلى رأى الأستاذ فيليبس- وهو عالم في اللاهوت بالكنيسة الإنجليزىة الذى يقول «لقد اعتمد الكاتب على الغامضة التى ربما كانت مجموعة من التراث الشفهى». ويعنى بالـ Q هنا كلمة Quella بالألمانية وتعنى مصادر)^(٣).

إنجيل مرقص:

ومن الثابت تاريخياً أن مرقص لم ير المسيح عليه السلام. يقول عبد الله الترجمان: (وأما مرقص فما رأى أيضاً - عيسى عليه السلام - قط، وكان دخوله في دين النصارى كذلك بعد رفع عيسى وتنصر على يد «بترو» - أي بطرس- الحوارى)^(٤).

واختلف الباحثون حول الإنجيل المنسوب إليه، فمن قائل إن كاتبه هو «بطرس» رئيس الحوارين عن مرقص في مدينة رومية ونسبه إلى مرقص، ومن قائل إن مرقص ما كتب إنجيله إلا بعد وفاة بطرس وبولس^(٥) (وليس بين أيدينا ما نرجح به إحدى الروايتين عن الأخرى فمن الذى كتبه؟).

(١) المناظرة الحديثة ص ١٥٥ أي بمعنى آخر: إن القديس متى لم يكتب البشارة التى تحمل اسمه ص ٤٦ هل الكتاب المقدس كلام الله؟

(٢) تاريخ الإنجيل والكنيسة - أحمد إدريس ص ٦٩.

(٣) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ أحمد ديدات ص ٤٦.

(٤) تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب ص ٦٦ عبد الله الترجمان (القس انسليم كورميديا) تقديم وتعليق د/محمود على حماية - ط. دار المعارف ١٩٨٤م.

(٥) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم - موريس بوكاي ص ٨٦.

ولم يقف التساؤل عند هذا الحد، بل تداعى إلى غيره حيث ظهر أمام الدراسة النقدية لمضمون إنجيل مرقص، سؤال آخر عن مصادره التي نقل عنها فقد اعتبر الكتاب المحدثون أن القسم الأخير منه عملاً مضافاً. يقول كولمان: (إن مخطوطات يونانية أكثر حداثة، وبعض نصوص أضافت إلى هذا القسم خلاصة رؤى ليست لمرقص، بل هي مأخوذة من أناجيل أخرى) (١).

ويرى الأب كنغر وهو عالم كبير في اللاهوت إنه بعد انتشار الكتابات المتقاربة لمتى ولوقا ويوحنا، خلص العلماء إلى نتيجة هامة عن مرقص، وهي أنه يأخذ المواد من يمين وشمال لدى الإنجيليين الآخرين. ويتضح من ذلك مدى الحرية التي كان يمارسها الأسلوب الأدبي للسرد الإنجيلي حتى بداية القرن الثاني.

وعندئذ يعلق موريس بوكاي على هذه النتيجة بقوله في صيغة تعجب: (فياله من اعتراف لا عوج فيه عن وجود الممارسة البشرية في نصوص الكتابات المقدسة تقدمه لنا هذه الأفكار من عالم كبير في اللاهوت!) (٢).

إنجيل لوقا:

نذكر أولاً ما اتفق عليه المؤرخون عن واقعة ثابتة تحقق منها العلماء المحدثون أيضاً، وهي أن لوقا «لم يدرك عيسى ^{عليه السلام}»، ولا رآه أبداً، وإنما تنصّر بعد رفع عيسى، وكان ممن تنصّر على يد بولس الإسرائيلي، وبولس لم يدرك عيسى ولا رآه، وكان أكبر أعداء النصارى (٣)، ويذكر الشيخ أبو زهرة أن الباحثين متفقون على أنه من تلاميذ بولس ورفقائه، ولم يكن من تلاميذ المسيح ولا من تلاميذ حواربيه (٤).

أما عن وصف إنجيله، فنجد أنفسنا أيضاً حيال عدة احتمالات واقتراضات تكاد تتساوى مع بعضها البعض، فيتعذر على الباحثين المدققين الاختيار بينها إلا بصعوبة بالغة،

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم - موريس بوكاي ص ٨٦.

(٢) السرج نفسه ص ٨٧.

(٣) تحفة الأريب ص ٦٤/٦٥.

(٤) محاضرات في النصرانية ص ٥٨/٥٩.

حيث يتوالى ظهور مشكلات أخرى بغير حل كما سنرى: فقد اختلف الباحثون في مكان مولده - وهل هو أنطاكي أم روماني؟ وهل اشتغل بمهنة الطب أم كان مصورا؟

ويدعوننا الاختلاف - حول مهنته بالذات - إلى التوقف قليلا لمناقشة من يرجّح امتحانه لصناعة الطب، لأن (هذه المهنة لها قيمتها الخاصة لأنها تلقي على حياة لوقا نورا ساطعا، فترينا الرجل العلمي العملي المدقق المحقق الرقيق الأسلوب الجميل الديباجة، لأن الرومان لم يسمحوا في وقتهم لأحد أن يتعاطى مهنة الطب، إلا لمن جاز امتحانات عدة على جانب عظيم من الصعوبة والدقة والخطورة)^(١).

ولكن موريس بوكاي لم يأخذ بهذا الرأي الذي يشير أيضا إلى أن (الكثيرين قد تأكدوا من المهنة الطبية لكاتب الإنجيل من دقة وصفه للمرضى)، ويرى أن هذا التقدير مبالغ فيه، ولأن لوقا لم يعط (وصفات) من هذا النوع بالذات، والمفردات التي يستعملها هي ذاتها التي يستعملها كل إنسان مثقف في زمانه)^(٢).

وبمراجعة الأسطر الأولى من إنجيل لوقا يتضح أنه يروي عن آخرين، بينما لم يكن هو من الشهود المعانين، فقد قال ما يأتي:

(١) (إذا كان كثيرون قد أخذوا في ترتيب قصص الأمور المتيقنة عندنا)

(٢) (كما سلمها إلينا الذين كانوا معانين منذ البدء وخادمين للكلمة)

(٣) (رأيت أنا أيضا بعد أن أدركت جميع الأشياء من الأول بتدقيق أن أكتبها لك بحسب ترتيبها أيها العزيز تاوفيلس).

(٤) (لتعرف صحة الكلام الذي وعظت به)^(٣).

لهذا كان لوقا في نظر كولمان مؤرخاً، وفي نظر الأب كننغر (قصاصاً بارعاً)^(٤).

(١) محاضرات في النصرانية ص ٥٨.

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ص ٨٨.

(٣) إنجيل ربنا يسوع المسيح للقديس لوقا (الفصل الأول) نقلاً عن (هل الكتاب المقدس كلام الله؟) لأحمد ديدات ص ٨٣.

(٤) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي ص ٨٧، وثاوفيلي هذا - كما وصفه ابن البطريق - رجل من عظماء الروم. وهناك من يقول إنه كان مصرياً لا يونانياً (محاضرات في=

ونظراً لأن لوقا كان وثنياً اهتدى إلى المسيحية، فقد أشار كولمان في دراسته إلى تجاهله الآيات الأكثر يهودية لدى «مرقس»، وإبرازه لكلمات عيسى -عليه السلام- ضد كفر اليهود، في حين كان «متى» يجعل المسيح يطلب من الرسل البعد عنهم. ويعلق موريس بوكاي على ذلك بقوله: (وهذا مثل رهيب من كثير، يوضح لنا أن الإنجيليين كانوا يقولون عن المسيح ما يناسب رؤاهم الشخصية، فيقدمون لنا بحسن نية أكيدة وبقناعة شخصية من كلمات المسيح، النص الذي يتفق مع وجهة نظر الطائفة التي ينتمون إليها) ^(١).

وبالمقارنة بين سلسلة نسب المسيح -عليه السلام- عند لوقا ومتى، تبرز إحدى أبرز التناقضات في الكتاب المقدس، فيقول الأستاذ ديدات: (من بين داود وعيسى "أوصى" الله لمتى بتسجيل ستة وعشرين سلفاً فقط «لابنه» ولكن لوقا الملهم أيضاً سجل واحداً وأربعين سلفاً لعيسى) ^(٢).

إنجيل يوحنا:

يصف الأستاذ الشيخ أبو زهرة هذا الإنجيل بقوله: (لهذا الإنجيل خطر وشأن أكثر من غيره في نظر الباحث، لأنه الإنجيل الذي تضمنت فقراته ذكراً صريحاً لألوهية المسيح -عليه السلام-) ^(٣).

وكان الرأي المعتمد في العصور الماضية هو اعتبار يوحنا (ابن خالة عيسى -عليه السلام-)، ويزعم النصارى أن عيسى حضر في عرس يوحنا، وأنه حول الماء خمراً في ذلك العرس، وهذه أول معجزة ظهرت لعيسى، وأن يوحنا لما رأى ذلك ترك زوجته، وتبع عيسى على دينه وسياحته) ^(٤).

=النصرانية ص ٥٩)

(١) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ ص ٧٥.

(٢) المرجع نفسه ص ٨٨ ويقول: (وفي المقابلة بين السلوك العام لكل من إنجيل لوقا وإنجيل متى كان الدليل على ذلك).

(٣) محاضرات في النصرانية ص ٦٠.

(٤) تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، عبد الله الترجمان ص ٦٦.

ولكن لم يعد هذا الرأي مسلماً به في العصر الحديث، بعد إجراء التحقيقات والدراسات في الكتب المقدسة، حيث صححت كثيراً من المعلومات الخاطئة السابقة، وبدأ البعض يسأل (من هو الكاتب؟ إنه سؤال موضوع جدال. إذ الآراء تختلف كثيراً في هذا الموضوع)^(١).

وتأتينا الإجابة على لسان الأستاذ "موريس فوردن" ناظر مدرسة العلوم العليا في باريس والمدرس في القسم الديني بها، وقد صدق على شهادته خمسمائة عالم في جمعية دار المعارف الكبرى بباريس.

قال الأستاذ موريس (وأما عن إنجيل يوحنا فإنه لا مزية ولا شك أنه كتاب مزور أراد صاحبه أن يضاد الحوارين متى ويوحنا، وادعى أن هذا الكتاب المزور هو للحواري يوحنا الصياد الذي يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علامتها وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري، ووضعت اسمه على الكتاب نصاً مع أن صاحبه غير يوحنا يقينا، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين من نسبت إليه...) (٢).

ويرى الأستاذ محمد تقي العثماني -بعد مراجعة مستفيضة لآراء العلماء ونتائج بحوثهم في مضمون هذا الإنجيل والملابسات الدائرة حوله- يرى أن المحرّر هو أحد تلاميذ بولس (وزاد إليها من جاء بعده جملاً وعبارات كشف عن كون المؤلف شاهد عيان لسيدنا المسيح ﷺ) (٣).

إنجيل برنابا «أحد الأناجيل غير المعترف بها»:

قبل الحديث عن إنجيل «برنابا»، فلنأخذ نحب توضيح موقفنا منه أولاً؟ فلنسنا حريصين على الاسترشاد به لإثبات نبوة نبينا محمد ﷺ، فلنا أدلتنا الكافية بذاتها - كذلك

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ص ٩٠.

(٢) محمد ﷺ نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن ص ٧٢، المستشار محمد عزت الطهطاوي - مكتبة النور بمصر الجديدة ١٩٨٦م، كذلك أبدى شكه في صحة نسبة الأناجيل الثلاثة الأولى حتى مرقس ولوقا إلى من نسبت إليهم من الحواريين لدرجة تعادل الرفض تماماً.

(٣) ما هي النصرانية ص ١٥٣.

ندفع الزعم بأنه من تأليف المسلمين ^(١) - لأنه ليس من عقائدنا ولا مبادئنا اتباع طريقة (الغاية تبرر الوسيلة)، وإزاء ذلك فإن الإقرار بصحة هذا الإنجيل أو استبعاده لدينا سواء.

إن الحديث إذن عن إنجيل برنابا أدنى لقضية الخلاف العقائدي بينه وبين بولس، إذ يبدو من نصوصه أنه تحمله كثيرا، ثم أعلن على الملأ أوجه الخلاف بعد أن طفح الكيل ولم يعد يحتمل الصبر عليه، وضمّن ذلك صدر إنجيله، فقال تحت عنوان (الإنجيل الصحيح ليسوع المسمى بالمسيح: نبي جديد مرسل من الله إلى العالم بحسب رواية برنابا رسوله). ثم يصف نفسه بأنه رسول يسوع الناصري المسمى المسيح... إلخ، فلماذا استبعد هذا الإنجيل ولم يعترف به؟...

العوامل الحقيقية وراء استبعاد إنجيل برنابا

لنعد مرة أخرى للإمام بأجواء النزاعات التي ظهرت فيها الأناجيل، حيث ظهر الصراع بين طائفتي المسيحيين الأصليين أتباع المسيح عليه السلام والمسيحيين البولسيين أتباع بولس.

وفي ذلك الوقت كان «برنابا» من أوائل الذين عرفوا حقيقة «بولس» ففضح نواياه، وأذاع على الملأ خبايا عقيدته الباطلة التي دسها على المسيحيين دسّا.

ثم ظهرت كتابات برنابا لتكشف القناع عن المشادة التي حدثت بينهما في قوله: (أيها الأعداء، إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبّيه يسوع المسيح، برحمته العظيمة للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان

(١) يقول الأستاذ محمد عبد الرحمن عوض (لو ألف هذا الكتاب شخص ما.. مسلماً أو غير مسلم لنسخه أعداء المسيحية وروجوا له واستدلوا به - وهو ما لم يحدث- بل ظل في طي الكتمان حتى ظهر مترجماً إلى الإيطالية ثم إلى الإنجليزية والأسبانية وأخيراً إلى العربية) ص ٥٥ من كتابه / الاختلاف والاتفاق بين إنجيل برنابا والأناجيل الأربعة، دار البشير بالقاهرة ١٩٨٦ م، مع العلم بأن القرار بتحريم إنجيل (برنابا) صادر ١٤٩٥ م أي: قبل البعثة المحمدية. ص ٤٧.

الذي أمر به الله دائماً، مجوّزين أكل لحم نجس الذي ضل في عدادهم بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى^(١).

ويمضي في حديثه محذراً من أتباع بولس، ومؤكداً مخالفته لتعاليم يسوع عليه السلام لأنه عاشره بنفسه وعرف تعاليمه فيقول: (وهو السبب الذي لأجله أسطرّ ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي يسوع، لكي تخلصوا، ولا يضلّكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله، وعليه فاحذروا كل أحد يشركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه، لتخلصوا خلاصاً أبدياً)^(٢).

ويصبح استبعاد إنجيل برنابا مفهوماً في ضوء انتصار المسيحية البولسية على المسيحية اليهودية، ولصيقاً يبحث مضامينه العقائدية المخالفة لعقائد النصرانية الحالية، ولما كان من المستحيل التوفيق بين النقيضين، فما أسهل استبعاده.

أجل هذه هي القضية، وكان إنجيل برنابا (أكثر اتساقاً في عرضه لحقيقة الألوهية مع شريعة موسى وما جاءت به التوراة، وكان برنابا شاهد صدق على أن عيسى ابن مريم جاء متمماً للناموس وليس ناقضاً له)^(٣).

ومهما يكن من أمر، فإننا كما قلنا من قبل لسنا في حاجة كمسلمين إلى الاسترشاد بهذا الإنجيل، كل ما هنالك إننا نبغي إيضاح ما يستخلصه كل باحث بالمقارنة بينه وبين الأناجيل الأخرى، فإذا اتبع في تقويم مضمونه موازين التوثيق للكتاب المقدس (فإن إنجيل برنابا في ضوءها يأتي موثقاً به)^(٤).

ومن أجل معرفة الحق والدعوة إليه، نضمّ صوتنا إلى صوت الإمام محمد أبو زهرة، فإن (من أجل خدمة تسدى إلى الأديان والإنسانية، أن تعنى الكنيسة بدراسته، ونقصه، وتأتي بالبيانات الدالة على هذا النقص، وتوازن بين ما جاء في رسائل بولس ليعرف القارئ والباحث أيهما أهدى سبيلاً وأقرب إلى الحق وأوثق به اتصالاً)^(٥).

(١) مقدمة إنجيل برنابا - نقلاً عن محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد ص ٩٣.

(٢) إنجيل برنابا ١: ٢ - ٩ نقلاً عن ما هي النصرانية؟ محمد تقي العثماني ص ٢٠٢.

(٣) الاختلاف والاتفاق بين إنجيل برنابا والأناجيل الأربعة، محمد عبد الرحمن عوض ص ١١٨.

(٤) ما هي النصرانية؟ ص ٢٥٨.

(٥) محاضرات في النصرانية ص ٨١. وينظر أيضاً (ما هي النصرانية) لمؤلفه محمد تقي العثماني الذي

عدد فيه أموراً أربعة تنفي كون إنجيل برنابا من تأليف رجل مسلم (ص ٢٤٢٤ - ٢٤٦).

تعقيب:

وبعد هذا العرض الموجز للأناجيل، والإحاطة بملابسات تدوينها والتعريف بكتابها، أصبحنا أمام خطوة تالية يقتضيها منهج بحث علم الأديان المقارن، وذلك على ضوء الاتفاق على مبادئ أساسية تحدد الأركان اللازم توافرها في أي كتاب سماوي، من حيث الثبوت من مصدره، وتوافر ضمان النقل بسلاسل إسناد موثوق بها ومتصلة.

ولنتفق أولاً على الأركان اللازمة للإقرار بصحة هذا الكتاب، فإن (أي كتاب سماوي يستحق أن نخضع له والامتنال لأحكامه لا يكفي في إسناده إلى شخص ذي إلهام مجرد الظن والوهم، بل أن يثبت ذلك الكتاب أنه من الله -عز وجل- أولاً، وأنه هو الذي أنزله على النبي الفلاني ثانياً. وهذا الثبوت يكون بسند متصل في جميع طبقاته متواتر في عامة مراتبه، أي رواه أناس كثيرون يؤمن تواطؤهم على افتراء الكذب، فلا يكون هناك تغيير أو تبديل أو زيادة أو نقصان^(١) .

وعلى ضوء ذلك، نعفي أنفسنا من الخوض ثانية في الحديث عن سلاسل الإسناد بعد ما عرضناه آنفاً، إذ لم يسلم إنجيل من الأناجيل الأربعة من أوجه الطعن والتشكيك والالتهام للكتاب مما نقلناه عن علماء النصراني أنفسهم^(٢)، غير أنه لا يصح الانتقال إلى نقد المضمون، إلا بعد ثبات تقريرين صريحين:

أولهما:

إثبات التحريف نصاً على لسان بطرس في رسالته الثانية حيث قال: (إن الرسائل كلها منها أشياء عسرة الفهم يحرفها غير العلماء وغير الثابتين كباقي الكتب أيضاً)^(٣) .

(١) محمد ﷺ نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن المستشار محمد عزت الطهطاوي ص ٦٤.

(٢) قال علي بن ربن الطبري (وكان نصرانيا فأسلم): على أن من أدى تلك الأخبار إليكم لم يكن فيهم أجداد عسى أنه أخذها من شاهد المسيح أو موسى عليهما السلام من آبائه وأجداده، كما تدعي العرب عن آبائنا وأجدادها الذين شاهدوا النبي ﷺ، فإن الرجل منهم يحدثه عن جده أو جد جده أو بعض بما رأى.

(٣) محمد ﷺ ص ٦٦، وأذاه إلى أعقابه (الدين والدولة ص ٢٠٤) ويستطرد قائلاً: (فأما أخباركم=

والثاني:

مبررات التحريف نفسها، أي الجذور النفسية والأخلاقية لأعمال التحريف، إذ رُبما هان الأمر لو كان استثناء، أما استناده إلى فلسفة ثابتة، فهذه هي الطامة الحق يقول أحد المؤرخين: (كان بين متبعي رأي أفلاطون وفيثاغورس مقولة مشهورة هي أن الكذب والخداع لأجل أن يزداد الصدق وعبادة الله ليسا بجائزين فقط، بل قابلان للتحسين، وتعلم هذا الكلام منهم يهود مصر قبل المسيح - ويظهر ذلك جليا في كثير من كتب اليهود القديمة، ثم أثر وباء هذا الخطأ السيئ في المسيحيين، كما يظهر هذا الأمر بجلاء من الكتب التي نسبت إلى الكبار كذبا^(١)).

نقد المضمون:

إن المسلمين والنصارى متفقون، كما يذكر الأستاذ أحمد ديدات - على أن وحي الله -تعالى- لا بد أن يخدم واحدا من هذه الأغراض الأربعة:

إما أن يعلمنا المبادئ والعقائد.

أو يلوّمنّا على خطأ ارتكبناه.

أو يقدم لنا الصواب.

أو يهدينا إلى الصلاح^(٢).

وقد أخذ الأستاذ ديدات يفحص الكتاب المقدس، وفق هذه الأغراض فأذهله العثور على نماذج تبعث على الخجل والاستياء مما تضمنته من رواية قصص عن زنا المحارم بل إن نبوة «حزقيال» تتضمن تفاصيل جنسية تخجل منها الكتب الجنسية الممنوعة^(٣).

=فإنها أداها إليكم عراقي عن جزري عن شامي وشامي عن عبراني وفارسي عن رومي ومشرقي عن مغربي، بأسباب مظلمة متفاوتة - تحقيق عادل نويهض - دار الآفاق الجديدة بيروت ١٣٩٣ هجرية / ١٩٧٣ م.

(١) برشليم المؤرخ في بيان علماء القرن الثاني ص ٦٥ المجلد الأول من تاريخه المطبوع ١٨٣٢ م نقلاً عن المصدر السابق ص ٦٦.

(٢) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ أحمد ديدات ص ٦٧.

(٣) المرجع نفسه ص ٧١. وقد ذكر الأستاذ ديدات أثناء مناظرته للقس سوجارت أن هيئة الرقابة=

ومما يلاحظ في سلوك الأطفال أن هذه القصص أثرت تغييرات راسخة في نفوسهم -بناء على التجارب التي أجراها الدكتور فيرنون جونز - عالم النفس الأمريكي المشهور، فلا بأس إذن من انتشار حوادث الاغتصابات وجرائم القتل وزنا المحارم التي تسجلها الجرائد اليومية، بل ليس (من العجيب إذن أن يقيم الرومان كاثوليك والميثوديون «إحدى الطوائف النصرانية» أعراسا بين اللوطيين في " بيوت ربهم "، حتى قام شانية آلاف لوطي بمسيرة استعراضية في حديقة هايد بارك بلندن في يوليو ١٩٧٩ م مصاحبا بتشجيع وهتافات وسائل الإعلام)^(١).

هذه هي شرة بعض نصوص الكتاب المقدس، ثم لنعقد مقارنة جزئية بشمرة تعاليم القرآن، الذي جاء مؤيدا للحق بالكتب السابقة ومهيماً عليها. فمن أقوال عيسى عليه السلام (كل شجرة طيبة تطرح شرة طيبة، وكل شجرة خبيثة تطرح شرة خبيثة) أجل (هذا هو المحك، المحك الثمرة. لقد أوجد الإسلام أكبر مجتمع في العالم لا يتعاطى المسكرات، يوجد حوالي ألف مليون مسلم في العالم وهم في عمومهم لا يعاقرون المسكرات، ولا يشربون الخمر، هذه هي الثمرة)^(٢).

=بحكومة جنوب أفريقيا قد أصدرت أمرا يحظر تداول بضعة صفحات من الكتاب المقدس، دون أن تدري أنه جزء من سفر حزقيال من الإصحاح الثالث والعشرين. (من كتاب المناظرة الحديثة ص ١٥٠). ويحكي العقاد عن إحدى القصص الجنسية الفاضحة التي رفضت الرقابة الأمريكية نشرها بحجة إفساد الأخلاقيات العامة، فاحتكم المحامي إلى الكتاب المقدس الذي يحتوي على (قصص فاضحة ومخجلة ومهينة للإنسان، فكيف تضعون مثل هذا الكتاب في أيدي الأطفال والفتيان، بينما رواية ليست كتابا مقدسا، ولا يمكن أن تكون منتشرة مثل الكتاب المقدس، فإما أن تفرجوا عن هذه الرواية وإما أن تصادروا الكتاب المقدس). وأفرجت المحكمة عن الرواية. ص ١١١ - ١١٢ من كتاب (في صالون العقاد كانت لنا أيام) أنيس منصور - ط. دار الشروق ١٤٠٣ هجرية / ١٩٨٣ م.

(١) المرجع نفسه ص ٦٨ واستشهد بقول برناردشو ص ٧٠: (الكتاب المقدس من أخطر الكتب الموجودة على وجه الأرض، احفظوه في خزانة مغلقة بالمفتاح).

(٢) المناظرة الحديثة ص ١٧٥. كذلك أثبت نصاً من مجلة الحقيقة المجردة أكتوبر ١٩٧٧ (إن قراءة قصص الكتاب المقدس للأطفال يفتح الباب لغرض مناقشة العبرة وراء الجنس، وإن الكتاب =

ويرجع ذلك إلى تحريم القرآن الكريم للخمر ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة : ٩٠].

ولنقارن ذلك بما يحدث بالأمة الأمريكية، حيث يوجد - حسب قول سوجارت أحد عشر مليون سكير، وأربعة وأربعون مليوناً من مدمني الخمر (هذه هي أمتكم والأخ سوجارت لا يجد اختلافاً بين الخمسة والخمسين مليوناً؟ هو يعتبرهم مدمني خمر، أما الإسلام فلا شرب خمر، حتى على سبيل المحاملات الاجتماعية)^(١).

ومن إجابات الدكتور محمد علي البار عن أسئلة حول أسباب انتشار مرض الإيدز، علّله بانتشار الشذوذ الجنسي في الولايات المتحدة، إذ يوجد أكثر من عشرين مليون شخص، ولهم جمعيات خاصة وكنائس خاصة تزوّج الرجال بالرجال !!

كذلك لا بد من ملاحظة الفاحشة هناك بدرجة مذهلة مستندا إلى مثال من صحيفة «هيرالد تريبيون» التي ذكرت في عددها بتاريخ ١٩٧٩/٦/٢٩ أن عشرة بالمائة من العائلات الأمريكية تمارس ما يسمى بنكاح المحرمات، ويقدر عدد الفتيات الأمريكيات اللواتي نشأت علاقة جنسية بينهن وبين آبائهن بحوالي ١٥ مليون فتاة.

[الشرق الأوسط في ١٨/٣/١٩٩٠ ص ٩].

ويضيف الأستاذ ديدات بيان أثر الكتاب المقدس على السلوك الشائن ممثلاً في زنا المحارم، حيث تنتشر بمعدلات وبائية بين البيض في جنوب أفريقيا، يصل إلى ثمانية في المائة، كذلك بلغت النسبة معدلات وبائية في أمريكا، كما بين سوجارت (ويضرب مثلاً من الكتاب المقدس، فيذكر إن الإنجيل يحتوي على عشر حالات من زنا المحارم)^(٢). وإزاء ذلك فإنه لا يعقل أن يكون هذا الكتاب من عند الله^(٣).

المقدس إذا لم يهذب وينقح قد تعتبره مجالس الرقابة صالحاً للكبار فقط لمن جاوزوا الثامنة عشرة من العمر) ص ٧٠ هل الكتاب المقدس كلام الله؟

(١) المرجع نفسه ص ١٧٦.

(٢) المناظرة الحديثة ص ١٤٢.

(٣) المرجع نفسه ص ١٤٣.

والآن تأتي المناسبة للحديث بإيجاز عن الكتاب المنزل من عند الله -تعالى- حقاً، المحاط من كل جانب بما يبرهن على أنه - كتاب الله عز وجل وحده - الذي سلم من التبديل والتحريف.

القرآن الكريم كلام الله تعالى

وتسنع الفرصة الآن لنعطر حديثنا عن القرآن الكريم، إذ سيقى بحثنا ناقصاً لو لم نخرج على الحديث عنه لأنه كلام الله تعالى، إذا تبين بعد التمهيد والمنافشة والاستدلالات المتنوعة استبعاد أن يتضمن الكتاب المقدس الوحي الكامل الصحيح من الله تعالى، ففي الطرف المقابل تتجلى وتشع حقيقة القرآن الكريم — كلام الله تعالى — وتصبح أضواء بهاء وأشد لمعاناً، لأنه الكلام الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وتكفي الإشارة في هذه العجالة إلى حقيقتين بارزتين:

أولهما: كيفية تلقيه وحفظه، ونستند في ذلك إلى أقوال الأستاذ (سفساف الأرثوذكسي) عضو الجمعية العلمية بأوروبا في كتابه المسمى «أصول الفقه الإسلامي»، فإنه سجل الأحداث التاريخية بحذافيرها، شأن كل باحث أمين مدقق بموضوعية كاملة فأثبت حقيقة الوحي وكيفية نزوله على رسول الله ﷺ وهي الحالة التي شاركه فيها الأنبياء والرسل قبله كدانيال وموسى وغيرهما (وتستمر هذه الحالة ما دام الوحي حتى إذا تم أخبر الرسول ﷺ أصحابه بنفس ألفاظ الملك فيحفظونها على الفور عن ظهر قلب حرفياً، وكانوا يعتنون بذلك الاعتناء الذي لا مزيد عليه لأن الحفظ الحرفي لسور وآي القرآن كان عندهم من أعظم العبادات وأقرب القرب.... فكان أصحاب الرسول ﷺ تفرغ وسعها وتبذل جهدها المستطاع لتنقش في حافظتها ألفاظ الوحي مضبوطة محكمة بمجرد نزوله، حتى كانوا من مزيد عنايتهم به بعد حفظ الآية من الرسول ﷺ يترددون عليه غير مرة ويطلبونها أمامه حتى يزداد تثبتهم في حفظها وأدائها كما هي).

ويمضى بعد ذلك فيسجل مراحل كتابته وجمعه بواسطة أكابر الحفاظ حسب رواية البخاري، حتى لم يبق مجال لأدنى شك في نهاية الضبط التام الكريم، إلى أن دعا الحال

زمان عثمان بن عفان رضي الله عنه لنشر الكتاب في الجهات فصدر ثلاثة مصاحف إلى الأمصار، وقد رأى أستاذه بعيني رأسه مصحفاً منها بدار الإفتاء الحنفي بدمشق ^(١).

وشهد بنفس هذه الشهادة أهم مجادلي البروتستانت وهو المستر سنوبارت في لكهنؤ ببلاد الهند. ويقول أيضاً الأستاذ موير وهو من أمهر وأحذق خصماء المسلمين: إن جميع ما في المصحف هو نص ما صدر من بين شفتي النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وكذلك يقر الدكتور فل الكاثوليكي بألمانيا أنه «لا نسبة بين القرآن وبين الكتب النصرانية من حيث الضبط والدقة» ^(٢).

الثانية:

نفس القرآن الحكيم وآياته وأحكامه وتشريعاته وأخلاقياته، وما احتوى عليه من قضايا التوحيد وصفات الألوهية والنبوات والقدر والدار الآخرة وخلق الإنسان وأطواره ومصيره وقصص الأمم والأنبياء والرسل، وغير ذلك مما لا نحيط به حصراً في هذه الصفحات.

وبعبارة أخرى فإن جميع آياته الباهرة تأخذ بمجامع القلوب وترشد العقول الباحثة عن الحق إلى بر الأمن والإيمان الذي لا يعتريه شك.

تجربة علي بن ربن الطبري:

يروى لنا علي بن ربن الطبري هذه التجربة الذهنية: (وذلك أني لم أجد لأحد عربي أو عجمي هندي ولا رومي كتاباً جمع من التوحيد والتهليل والثناء على الله عز وجل، والتصديق والتهليل والثناء على الله عز وجل، والتصديق بالرسل والأنبياء، والحث على الصالحات الباقيات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والترغيب في الجنة وأيضاً التهديد في النار مثل هذا القرآن منذ كانت الدنيا، فمن جاءنا بكتاب هذه نسبته ونعته، وله من القلوب هذا المحل والجلالة والحلاوة، ومعه هذا النصر واليمن والغلبة، وكان

(١) محمد صلى الله عليه وسلم نبي الإسلام ص ٨٠ المستشار محمد عزت الطهطاوى.

(٢) المرجع نفسه ص ٨١.

صاحبه ﷺ الذي نزل عليه أمياً لم يعرف كتابة ولا بلاغة قط، فهو من آيات النبوة لا شك فيه ولا مرية^(١).

أما علوم القرآن فقد اجتهد علماؤنا من أعلام الفقه والحديث والتفسير وأصول الدين في محاولة عددها وإحصائها:

فمن قائل أنها ثلاثة أقسام كالطبري «٣١٠ هـ» وهي: التوحيد والأخبار والديانات، ولهذا قال ﷺ: «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن».

ثم توسع القاضي أبو بكر بن العربي (٥٤٤ هـ) في بيان مضمون هذه الأقسام: فالتوحيد تدخل فيه معرفة المخلوقات ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله، والتذكير ومنه الوعد والوعيد والجنة والنار وتصفية الظاهر والباطن، والأحكام ومنها التكاليف كلها، وتبين المنافع والمضار والأمر والنهي والندب.

ومن قائل أن القرآن يشتمل على ثلاثين شيئاً: الإعلام، والتنبيه والأمر والنهي والوعد والوعيد ووصف الجنة والنار، وتعليم الإقرار باسم الله، وصفاته وأفعاله، وتعليم الاعتراف بإنعامه والاحتجاج على المخالفين والرد على الملحدين، والبيان عن الرغبة والرغبة، والخير والشر والحسن والقبيح، ونعت الحكمة وفضل المعرفة، ومدح الأبرار، وذم الفجار، والتسليم والتحسين والتوكيد والتفريع والبيان عن ذم الإخلاف، وشرف الأداء. وقائله علي بن عيسى الرماني «٣١٠ هـ».

ومن قائل أن القرآن لا يُستدرك ولا تحصى غرائب وعجائبه، (وهو القاضي أبو المعالي عزيزي «٤٩٤ هـ» لقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] ^(٢).

وبعد هذه الإمامة الخاطفة حول كتاب الله - عز وجل - التي اقتضاها المقام بسبب تداعي المعاني وتوارد الخاطر ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] نستأنف الحديث عن أبرز عقائد النصراني، وهي عقيدة التثليث، التي جاء القرآن بإبطالها والرد عليها.

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج ١ ص ١٦-١٩ باختصار — تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م.

(٢) الدين والدولة ص ٩٨/٩٩ .

حول عقيدة التثليث:

تكتنف هذه العقيدة كثيراً من الغموض الذي يصعب إزالته، حتى باستخدام الأحكام العقلية المجردة (ويقولون: إن الله واحد في ثلاثة أقانيم هم الأب (الله) والابن (الله) والروح القدس (الله) وهؤلاء الثلاثة هم الله، كيف؟ هذا هو سر الثالوث الأقدس الذي لا يستوعبه عقل بشري لأنه فوق مستوى إدراكه).^(١)

ومع هذا فإننا سنعرض لبعض الشروح التي دارت حولها بحيدة تامة، محاولين تقريب العقيدة إلى الأفهام ما أمكن:

(١) يستمد هذا الشرح من التأمل في التركيب الجسماني للإنسان إذ إن كيانه (يتألف من الأجزاء المادية المتجانسة، التي تستطيع الأنظار المادية أن ترى هيئتها الاتحادية، فمثلاً العظم واللحم والدم، من اتحاد هذه الأشياء الثلاثة يقوم الجسم الإنساني في الوجود، ولو فقد واحد منها لما تم وجود الجسم الإنساني)^(٢).

ولكن إذا تأملنا هذا المثال نجده لا يتفق مع العقيدة المسيحية في التثليث. ويقول محمد تقي العثماني: (على حين أن المسيحية لا تؤمن بثلاثة أقانيم كثلاثة أجزاء، وإنما تؤمن بها كثلاثة أشخاص مستقلين ومن هناك فإنها لم تستخدم للأب والابن والروح القدس كلمة (الأجزاء) وإنما استعملت كلمة (الأقانيم) Persons أو (الأشخاص)، ولا شك أن أحداً لا يقول بأن اللحم وحده، أو العظم وحده، أو الدم وحده (إنسان)، وإنما يقول إنه جزء من الإنسان وعلى العكس من ذلك فإن المسيحية تعد من الأب والابن والروح القدس إلهاً، ولا يعده جزءاً من الله)^(٣).

(٢) التجلي أو الحلول:

عبر الأب سوجارت على ذلك بقوله: إن الرب يعلمنا بوجود إله واحد وليس اثنين أو خمسة... (وإنه تجلى في ثلاثة أشخاص، ثلاث شخصيات مختلفة، نحن نؤمن

(١) كنت نصرانياً، واصف الراعي ص ١١٠ مطابع الفرزدق بالرياض ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

(٢) ما هي النصرانية؟ محمد تقي العثماني ص ٤٧/٤٨.

(٣) المرجع نفسه ص ٤٩.

بوجود الأب السماوي، والإله الابن ونؤمن بالروح القدس الذي غشي مريم.. إنه أيضاً، وهم كل لا يتجزأ بمعنى أنهم متفقون تماماً، وفي توحد وانسجام لا يختلفون أبداً ولن يختلفوا أبداً^(١).

وعندما أعطيت الكلمة للأستاذ ديدات، قام فأفصح عن تعجبه الشديد من قيام الأب سوجارت بتغيير الكلمة المعبرة عن الرب، حيث كان في صباح يوم المناظرة نفسه يستخدم في خطابه لمجموعة من كنيسة كلمة (المولود لله)، وهي مستخدمة أيضاً في إنجيل الملك جيمس المعتمدة بالنص (لأنه هكذا أحب الله العالم.. حتى أنه أعطى ابنه الوحيد)، والتعبير الإنجليزي الوارد بالنص يستخدم كلمة (بجتن) أي المولد لله.

ولكن بعد ثماني ساعات فقط، وأثناء المناظرة غير الأب سوجارت كلمة (بجتن) إلى كلمة (المتفرد)^(٢).

وعندما سئل الأب سوجارت عما تعنيه كلمة (متفرد) أجاب بأنها في الأصل اليوناني تعني ببساطة: (لم يكن مثله أحد من قبل، وما كان أحد مثل ابن الله، فهو متفرد، ولم يكن أحد من قبل مثل مريم التي أنجبت ابن الله.. أنها تعني ببساطة أن أحداً لم يكن أبداً مثله من قبل، ولن يكون أحد مثله من بعد. يكون متفرداً، كابن الله، متجسداً في هيئة بشرية)^(٣).

ثم أوضح أن المسيحيين لا يعتقدون بوجود ثلاثة آلهة، وسخر من الذين يظنون أنهم يعتقدون أن الله متزوج ويسكن في شقة في السموات، وأنه أنجب أطفالاً، ووصف ذلك بأنه سخافات. ثم عبر عن الإيمان الصحيح عندهم حيث يؤمنون بأن الله بسبب حبه للناس تعطف ونزل على هذا الكوكب، وعاش بين الناس ومشى بينهم، وتحدث إليهم وفي هيئة بشر تجسد ليموت على الصليب، كالفادي تكفيراً عن خطايا البشرية. فالإنسان عاجز عن إنقاذ نفسه، ولقد فعل ذلك وقال للناس: إنكم ستقتلون هذا الجسد،

(١) المناظرة الحديثة ص ١٩٩.

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٥ ويقول الأستاذ ديدات: (وبالمناسبة فإن كلمة (بجتن) تعني أيضاً: الإنتاج يا سيدي. فإله أُنْتَج ولده. (نفسه ص ١٨٠).

(٣) ص ١٩٥ من كتاب المناظرة الحديثة.

وفي خلال أيام ثلاثة سأرفعه إليّ مرة أخرى (وهكذا فهو متفرد في ذلك، كذلك كان متفرداً في معجزاته، متفرداً في نبوءته، متفرداً في ميلاده، متفرداً في حياته، متفرداً في رسالته، متفرداً في موته، متفرداً في قيامته، متفرداً في صعوده، وعندما يعود فسوف يكون متفرداً في عودته) (١).

ولكن هذا الأسلوب الإنشائي الخطابي لا يحل مشكلة الغموض، وربما كان فرارا من المواجهة التي لا بد منها. (إنه يقول -أثناء حديثه أيضا- شخص وشخص وشخص، إلا أنهم ليسوا ثلاثة أشخاص بل شخص واحد).

وعندئذ وجه الأستاذ ديدات الخطاب إلى الأب سوجارت وضرب له المثل الآتي: «أنت وأخواك لنفترض أنكم ثلاثة توائم متشابهة، وأنا لا نستطيع التمييز بينكم أنتم الثلاثة لأنكم متطابقون تماماً. فإذا اقترف أحدكم جريمة قتل، هل يمكن أن نشق الآخر؟ جوابك: كلا. وأسألك: ولماذا لا يشق فتقول لي: إنه شخص آخر، وأوافقك على هذا» (٢).

ثم أوضح أن استخدام الكلمات يستدعي صوراً ذهنية حول (الأب السماوي المحب)، (والإله الابن) و(الروح القدس).

إذن هناك ثلاث صور ذهنية مختلفة، (ومهما حاولتم فلن تتطابق هذه الصور الثلاث في صورة واحدة، سيكون في ذهنكم دائماً ثلاث صور، ولكن حين أسألكم: كم صورة ترون؟ تقولون: واحد) (٣).

... وهذا لا يطابق الواقع.....

(٣) مثال الشمعة:

وهذا المثال مشهور متداول فالله عندهم -تعالى علواً كبيراً- كالشمعة (فالشمعة واحدة ولكنها مادة ونور وحرارة، فهي ثلاثة في واحد) (٤).

(١) المرجع نفسه ص ١٩٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٤.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٠٥.

(٤) كنت نصرانياً ص ٢٥.

وهذا المثال متهافت أيضاً لا يعبر عن العقيدة النصرانية، لأن الأقانيم عندهم ثلاثة أصول.

والشمعة أصل واحد (أما الضوء والحرارة فمظهران حادثان طرأ على الشمعة بعد إضاءتها، فإذا انطفأت عادت إلى أصلها الواحد، وفاتهم أن هناك مصدراً ما أشعل الشمعة فما دوره في الأقانيم الثلاثة وأين مكانه من هذا التشبيه؟) (١) ..

إن هذا المثال إذن، مخالف للثالوث النصراني الذي "بحكم صياغته - يقرر تعدد الشخصيات في الإله، وينسب - كما يرى البروفيسور عبد الأحد داود - ... خصائص شخصية منفصلة لكل شخص.

وقد ناقش البروفيسور هذه العقيدة من الوجهة الرياضية البحتة، ليبين عدم تطابقها مع البديهيات العقلية، والعلم الرياضي هو أدق العلوم كما هو معروف، قال: (والرياضيات كعلم إيجابي تعلمنا أن الوحدة ليست أكثر من واحد ولا أقل. وأن واحداً لا يمكن أن يساوى واحداً + واحداً + واحداً، وبعبارة أخرى فإنه لا يمكن أن يكون الواحد مساوياً لثلاثة، لأن الواحد هو ثلث الثلاثة.

وقياساً على ذلك فإن الواحد لا يساوى الثلث. وبالعكس فإن الثلاثة لا تساوى واحداً، كما أنه لا يمكن للثلث أن يساوى الوحدة...

والذين يقولون بوحداية الله في ثالوث من الأشخاص إنما يقولون أن كل شخص هو (إله قدير، موجود، دائم، أزلي، وكامل، ولكنه لا يوجد ثلاثة آلهة قادرين، وموجودين، ودائمين، وأزليين، وكاملين، ولكنه إله واحد قدير.

وإذا لم تكن هناك سفسطة في المنطق المذكور أعلاه، فإننا سنطرح هذا اللغز الذي تقدمه الكنائس، ويكون طرحنا له بالمعادلة التالية:

$$\text{إله واحد} = \text{إله واحد} + \text{إله واحد} + \text{إله واحد}$$

$$\text{كذلك فإن إلهاً واحداً} = \text{ثلاثة آلهة.}$$

أولاً:

لا يمكن لإله واحد أن يساوى ثلاثة آلهة بل يساوي واحداً منها فقط.

ثانياً:

بما أنك تسلم بأن كل شخص إله كامل مثل قرينه، فإن استنتاجك بأن $1 + 1 + 1 = 1$ ليس استنتاجاً رياضياً^(١).

ثم ينتقل البروفيسور بعد ذلك إلى مناقشة التثليث من الناحيتين المنطقية والعقائدية بناء على تصور أن لكل شخص في الثالوث صفات لا تنطبق على الاثنين الآخرين (وتدل هذه الصفات طبقاً للمنطق الإنساني واللغة الإنسانية، على وجود «قبلية وبعدية» فيما بينهما. فالأب دائماً يحظى بالرتبة الأولى، ويتقدم على الابن. أما الروح القدس ليس متأخراً فحسب لكونه الثالث في الترتيب العددي، بل إنه أقل من أولئك الذين انبثق منهم).

ويبقى بعدئذ التساؤل الذي لا مفر منه للتمييز بين الإقرار بهذه العقيدة أو الزندقة (ألا يعتبر نوعاً من الإلحاد إذا ما أعيد ذكر هذا الثالوث ترتيباً معكوساً؟.. ألا يعتبر إنشاء الصليب، عند مشاهدة القربان المقدس أو تجاوز مبادئه، نوعاً من الزندقة عند الكنائس إذا عكست العبارة وصارت على النحو التالي: باسم الروح القدس والابن والأب؟ لأنها إذا كانت متساوية ومتعاصرة فإنه لا داعي لمراعاة ترتيب الأسبقية بدقة^(٢)).

عقيدة التثليث فوق طور العقل:

أما دفاع النصارى عن عقيدة التثليث بدعوى أنها حقائق هي وراء طور العقل والقياس، فلا مناص من تصديقها من غير محاولة الاعتماد على العقل فيها^(٣) هذا الدفاع لم يقبله ابن تيمية في مجال مناقشة عقائدهم، فهو يرى ضرورة التمييز بين نوعين من الحقائق:

أحدهما:

ما هو باطل ومستحيل عقلياً.

(١) محمد ﷺ في الكتاب المقدس، عبد الواحد داود ص ٤٥ ترجمة فهمي شا - مراجعة وتعليق أحمد محمد الصديق، من مطبوعات رئاسة المحاكم الشرعية بقطر ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٦.

(٣) الحافظ أحمد بن تيمية الإمام أبو الحسن الندوى ص ٢٠٤، ط. دار القلم - الكويت - تعريب سعيد الأعظمي الندوي ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

الثاني:

ما يتقاصر عنه العقل، وجاءت الأنبياء لتوضحه، ولكن النصارى «لا يميزون بين ما يحيله العقل ويطله، ويعلم أنه ممتنع، وبين ما يعجز عنه العقل فلا يعرفه ولا يعلم فيه، بنفي ولا إثبات وأن الرسل أخبرت بالنوع الثاني، ولا يجوز أن تخبر بالنوع الأول، فلم يفرقوا بين محالات العقول ومحارات العقول، وقد ضاهوا في ذلك من قبلهم من المشركين الذين جعلوا لله ولداً وشريكاً»^(١).

وزعم الولد أو الابن لله -تعالى- دال على استخدام ألفاظ الأنبياء - لو صحت - في غير مواضعها، فإن الموقف المنهجي الصحيح المفسر لكلام الأنبياء يقتضي الاستمسك بظاهر كلامهم، فإن الابن ظاهره لا يراد به شيء من صفات الله، بل يراد به وليه وحبيه وروح القدس لا يراد به صفته، بل يراد به وحيه وملكه، ولكن النصارى عدلوا عن ظاهر اللفظ إلى معنى لا يدل عليه البتة^(٢).

قال ابن تيمية: (فإذا وجد في كلام المسيح ﷺ أنه قال: عمّدوا الناس باسم الأب والابن والروح القدس، ثم فسروا الابن بصفة الله القديم والأزلية، كان هذا كذباً على المسيح حيث لم يكن في لفظ الابن يراد بصفة الله القديمة الأزلية، كذلك إذا لم يكن في كلام الأنبياء أن حياة الله تسمى روح القدس، وإنما يريدون روح القدس ما ينزله الله -تبارك وتعالى- على الأنبياء والصالحين ويؤيدهم)^(٣).

الصليب والتكفير عن خطيئة البشر:

يعد الصليب أحد الشعائر البارزة في العقيدة النصرانية، إن لم يكن أبرزها؛ فإن الصليب رمز عقيدة النصارى الذي يعبر عن الإيمان بالتكفير عن خطيئة البشر وأصبح لزاماً عليهم رسم علامته في كل مناسبة. يقول العالم المسيحي الشهير "نرتو ليانوس": «بمناسبة كل حال وترحال، وذهاب ومجيء وخلع نعال، واغتسال، وأكل وإيقاد شمع

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ص ٨٩، ج ٢ نقلاً عن المصدر السابق.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٢

(٣) الجواب الصحيح ج ٣ ص ١٨١/١٨٢، نقلاً عن المصدر السابق.

ونوم وجلس، وبالجملة بمناسبة كل حركة وسكون نصنع فوق حواجبنا علامة الصليب»^(١).

أما عن تعليل صلب المسيح ﷺ في زعمهم فيستندون فيها إلى ما جاء في الكتب المقدسة عندهم أن «الله محبة»، وظهرت هذه المحبة في تدبيره الخلاص للعالم، لأن العالم من عهد سقوط آدم في الخطيئة، وهبوطه هو وبنيه إلى الدنيا، مبتعد عن الله بسبب تلك الخطيئة، ولكن الله من فرط محبته وفيض نعمه رأى أن يقرب إليه بعد هذا الابتعاد، فأرسل لهذه الغاية ابنه الوحيد إلى العالم، ليخلص العالم»^(٢).

ولئن كانت رواية الصلب واردة بالإنجيل، إلا أن الدارس الفاحص عندما يقارن الحادثة بالإنجيل بعضها ببعض، يستخلص منها -على خلاف المعتقد - نفي صلب المسيح ﷺ وإليك البيان: وردت قصة المحاكمة في إنجيل لوقا بالنص الآتي:

(وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون، وتبعه تلاميذه أيضا. ولما صار إلى المكان قال لهم: صلوا لكيلا تدخلوا في تجربة، وانفصل عنهم نحو رمية حجر، وجثا على ركبتيه وصلّى قائلاً: يا أبتاه إن شئت أن تجيز عني هذا الكأس، ولكن لتكن، لا إرادتي، بل إرادتك. وظهر له ملاك في السماء يقويه. وإذا كان في جهاد كان يصلي بأشد الحاجة. وصار عرقه كقطرات الدم نازلة على الأرض، ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه، فوجدتهم نياما من الحزن فقال لهم: لماذا أنتم نيام؟ قوموا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة)^(٣).

كذلك صرح إنجيل متى بأن «أظلمت الأرض ظلمة شديدة».

من هذا النص وغيره -كما سيأتي - يتضح عند تنقيح الأخبار والبحث في الملابس المحيطة بالواقعة تأكيد نفي حادث الصلب عن المسيح ﷺ حيث يستخلص

(١) ما هي النصرانية؟ ص ٧٥.

(٢) محاضرات في النصرانية ص ١٢٩ ويقول عبد الله الترجمان: (وهم يزعمون أن لاهوته فارق عند الصلب والقتل، وهبط إلى جهنم فأخرج منها الأنبياء وكان ناسوته في القبر مدفونا حتى رجع إليه لاهوته، فأخرجه من القبر ورجع إليه، ثم صعد به إلى السماء) تحفة الأريب ص ٨١.

(٣) متى ١٧: ٩ نقلا عن كتاب محمد ﷺ في التوراة، والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد ص ١٦٣ وقد قابل الحادثة بما وردت بالإنجيل متى ومرقس ولوقا.

الأستاذ إبراهيم خليل من القصة الآتفة كينونة المسيح كإنسان بشر «يصلي في جهاد، فكان ينزل ملاك من السماء ليقويه ويشد أزره، ثم يعود إلى تلاميذه، فيجدهم ساعة هذه التجربة العظمى نياماً، ومن هنا حدث لبس في شخصية المصلوب»^(١)، فضلاً عن أن الوقت كان ليلاً؛ لأن الرواية تضمنت أن الجمع جاءوا بمشاعل ومصابيح.

وهنا يقول الإمام نجم الدين الطوفي «٧١٦هـ» (ففي تلك الظلمة أطلقت الملائكة المسيح وربطت الذي ألقى عليه شبهه مكانه)^(٢)، ثم يمضي فيحلل الأسباب النفسية لعقيدة الصلب عند كل من النصارى واليهود، «فاعتقدتم أنتم: أن المسيح صلب وقوى ذلك الاعتقاد في نفوسكم: حنقكم على اليهود، وحب تقرير العلم للعدوان عليهم، واعتقدت ذلك اليهود كما اعتقدتموه، وحملهم على ذلك الاعتقاد: حب الغلبة والظفر بمن اعتقدوه عدوا لهم»^(٣).

تحقيق الحادثة:

وقد أجاد علماؤنا أثناء مناقشتهم للنصارى في هذه الواقعة الهامة وقدموا البراهين التي تدحض حادث صلب المسيح ﷺ من واقع الأناجيل نفسها، مستخدمين مناهج مختلفة، منها منهج تحليل الأخبار، حيث يتضح كذب الرواة أو شكهم فيما يروونه، ومنها موازنة بعض نصوص الأناجيل بموازنة العقل والمنطق على ضوء عقائدهم الدينية.

(١) محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن ص ١٦٤.

(٢) كتاب (الانتصارات الإسلامية) - في علم مقارنة الأديان: تأليف نجم الدين البغدادي الطوفي ص ١٠٣ دراسة وتحقيق د/ أحمد حجازي السقا - مطبعة دار البيان بمصر ١٩٨٣ م.

وينظر أيضاً تفسير الطبري ج ٩ ص ٣٦٩ قال: فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال: ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً، فأخذهم ودلهم عليه، وكان شبه عليهم قبل ذلك - أي كانوا لا يعرفونه - فأخذوه فاستوثقوا منه، وربطوه بالحبل، فجعلوا يقودونه ويقولون له: أنت كنت تحيي الموتى، وتنتهر الشيطان، وتبرئ المجنون، أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل؟ ويصقون عليه، ويلقون إليه الشوك، حتى أتوا به الحشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها، فرفعه الله إليه، وصلبوا ما شبه لهم، فمكث سبعة. والرواية بسندها عن وهب بن منبه.

(٣) ط. دار المعارف - تحقيق محمود شاكر ومراجعة وتخريج أحاديث أحمد شاكر.

ورغبة في الإيجاز وتحقيق غايتنا في أقرب الطرق سنختار من بين علمائنا الإمام القرافي صاحب الصولات والجولات في الجدل مع النصارى:

ففيما يتعلق برواة الخبر عن الصلب فهم قليلون، لأن الحواريين فروا عن المسيح ﷺ لأنه لو وجد أحد منهم لقتله اليهود، فحينئذ عدد التواتر متعذر من جهة شيعة النصارى، ومن جهة اليهود فلأن المباشر منهم للصلب إنما هم أعوان الولاية (وذلك من مجرى العادة أن يكون نفر قليل كالثلاثة ونحوها يجوز عليهم الكذب، ولا يفيد خبرهم العلم) ^(١).

أما نصوص الإنجيل والكتب النصرانية فإنها دالة على عدم صلب عيسى ﷺ بذاته، يقيم الإمام القرافي الأدلة على ذلك من واقع تحليله للنصوص وعرض مضمونها على قوانين العقل والمنطق.

فمنها أن لوقا في إنجيله روى كيف صعد يسوع إلى الجبل الجليل، ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا، فبينما هو يصلي إذ تغير منظر وجهه، ولمعت ثيابه كالبرق وإذا بموسى بن عمران وإيلياء قد ظهرا له، وجاءت سحابة فأظلمت فوق النور على الذين معه.

ويستدل إذن من هذه الآيات أن عيسى ﷺ رفع إلى السماء ولم يصلب وإلا فما معنى لظهورهما.

والثانية: إن الأناجيل ذكرت أن المصلوب استسقى اليهود فأعطوه خلا مذاقا بمر فذاقه ولم يسغه، فنادى (إلهي إلهي لم خذلتنى؟)، وهذه الواقعة لا تتطابق مع ما صرحت به الأناجيل بأنه ﷺ كان يطوي أربعين يوما وأربعين ليلة صابرا على العطش والجوع، فكيف به لم يمكث على الخشبة أكثر من يوم وليلة ولم يصبر على العطش؟.... فيتضح إذن أن المدعي للعطش غيره ^(٢)....

والثالثة:

قوله: (إلهي إلهي لم خذلتنى فتركتنى؟) وهو كلام مناف للتسليم بأمر الله تعالى، وعيسى ﷺ منزّه عن ذلك، فيكون المصلوب - إذن - غيره.

(١) الأجوبة الفاخرة ص ٥٣.

(٢) المرجع نفسه باختصار ص ٥٤.

كذلك فيالمقارنة بغيره من الأنبياء والرسل - كإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون - عليهم السلام- فإنهم يجعلونه في مرتبة أقل منهم، إذ روت التوراة أنهم تقبلوا الموت مستبشرين ببقاء ربهم، ولم يجزعوا (مع أنهم عبيده، والمسيح يزعمهم ولد ورب، فكان ينبغي أن يكون أثبت منهم، ولما لم يكن كذلك، دلّ على أن.. المصلوب غيره)^(١).

ويستند الأستاذ أحمد ديدات إلى نفي حادثة الصلب إلى الشواهد والأقوال المنسوبة إلى المسيح عليه السلام، ومنها ما ورد بإنجيل لوقا (انظروا يدي ورجلي إني أنا هو، جسوني وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي، وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه، وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبين قال لهم: أعندكم هاهنا طعام؟ فناولوه جزءا من سبك مشوي وشيئا من شهد العسل فأخذ وأكل قدامهم).

ويعلق الشيخ ديدات على هذا النص بقوله: (والسؤال الذي يطرح نفسه هو إذا ما كان المسيح قد مات «مصلوباً» ثم قام ثلاثة أيام فكيف يقول لتلاميذه إن الروح ليس له لحم وعظام «طالباً» منهم أن يجسوه).

ثم لماذا أكل قدامهم وفق رواية «لوقا» المعتمدة من قبل المؤسسات الكنسية؟ فمن المعروف أن الأرواح لا تأكل ولا تشرب، وأن علمها عند الله، ولكن المسيح عليه السلام من خلال هذا الموقف الذي تقول به مختلف الكنائس، وإذا ما كان هذا قد حدث بالفعل وفق ما يعتقد النصارى، فإننا نقول لهم: إن المسيح عليه السلام أراد أن يثبت أنه لم يميت بعد. أي إنه لم يقتل بعد. أي إنه لم يصلب. أي إنه ليس هناك حادثة (صلب) وبما أنه ليس هناك حادثة (صلب) ففنظرية (الخلاص) لا أساس لها من الصحة، وفي ضوء هذا فالنصرانية معتقد غير صحيح»^(٢).

ومن الناحية اللغوية نجد للشيخ ديدات بحثاً فريداً في تحليله للمصطلح الإنجليزي الدال على الصلب وهو Crucifition حيث توصل أن أصل هذا المصطلح مكون من

(١) المرجع نفسه ص ٥٥.

(٢) من أقواله لمندوب جريدة (المدينة المنورة) عدد الأربعاء رقم ٢٨٥ الصادرة، في ٥ جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ / ١٤ ديسمبر ١٩٨٨ م ص ٧ مع العلم بأنه أصدر كتاباً في هذا الموضوع بعنوان (خرافة صلب سيدنا المسيح)، وهو من مصادر دراستنا.

مقطعين هما Fiction-Cruci ومعناه (رواية الصلب أو خرافة الصلب. إذ إنه لا يوجد في الإنجليزية فعل واحد بالمعنى الذي يقابل الفعل العربي «يصلب»).

ويستنتج من ذلك أنه إذا ما كان المصطلح نفسه عاجزا عن التدليل على معنى «الفعل»... «الحادثة» التي وقعت من وجهة نظر كتبة الإنجيل، فكيف يتسنى لنا إذاً على المستوى اللغوي التحقق من أصل هذه الحكاية كواقع؟^(١).

ويزيد الأمر إيضاحاً بكتابه (صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء) ليثبت أن قصة الصلب لا تعني الموت قتلاً، مستشهداً بتفسير لغوي لإنجليزي بجنوب أفريقيا وشريك له من أمريكا يعترفان أنه (لو كانت كلمة يصلب تعني يقتل على الصليب، فإننا لا نجد كلمة تصور مجرد الصعود على الصليب دون موت عليه)^(٢).

ويقول: ولو كانت (يصلب) تعني فقط (يقتل)، فما معنى الكلمة؟ إن قاموس أكسفورد يعطى للكلمة معنى هو (يقتل بالثبیت على الصليب).

ولكنه يجابه هذا التعريف بسبع حالات صلب على الأقل حدثت في الفلبين ونشرتها إحدى الصحف في ١٩٨١/٥/٣ ولم يمت منهم أي شخص بالصلب! وأغمي على أحدهم بالرغم من دق مسامير في يدي المتقدمين للصلب بالصلب الخشبي، ويختص بالذكر ما حدث للسيد بيتر فان دير بتاريخ ١٩٦٩/٨/٣ الذي صعد على الصليب وتلقى (الركلات) لمجرد الاستمتاع بالإثارة أو كما قال بنفسه لمجرد أن يثبت أن الإنسان يستطيع أن تكون له السيطرة على جسده، أنه تحمل عملية الصلب بكل تفاصيلها ولم يمت، بمعنى أنه ثبت على الصليب «لتمثيل الصلب، لا ليموت صلباً»^(٣).

المنكرون للصلب:

وقد أنكرت بعض الطوائف المسيحية حصول الصلب استناداً على الأدلة التاريخية. ويقول المسيو أرنست دى يونس الألماني في كتابة المسمى «الإسلام والنصرانية الحقّة»

(١) صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء - أحمد ديدات ص ١٧٢.

(٢) المصدر السابق ص ١٨٧، وينظر صورته على الصليب ص ٧٩.

(٣) المرجع نفسه ويقول (وإنني أتحدى أي أسقف أو قس في أي مكان، في أي وقت يوجد في لغته هذا «الفعل»).

إن جميع ما يختص بمسائل الصلب والفداء هو من مبتكرات ومخترعات بولس، ومن شابهه من الذين لم يروا المسيح ﷺ وليست من أصول النصرانية (وقد أنكر كثيرون من المؤمنين بعبسى في بداية النصرانية أن المسيح نفسه هو الذي رفع على الصليب وأصروا على أن أحد أتباعه (يهوذا الاسخريوطي أو شخصا آخر يشبهه تماما هو الذى ألقى القبض عليه وصلب بدلاً منه) ^(١).

ويقول (ملمن) في كتابه «تاريخ الديانة النصرانية» أن تنفيذ الحكم على المصلوب كان أثناء الظلام، مما يستتج منه إمكان استبدال المسيح بأحد المجرمين الذين كانوا منتظرين تنفيذ حكم القتل. ويقول (باسيليوس) إن نفس حادثة القيامة وهي دعوى قيام المسيح ﷺ من الأموات المدعى بها بعد الصلب الموهوم، هي من ضمن البراهين الدالة على عدم حصول الصلب على ذات المسيح ^(٢).

ومنهم أيضاً (كوايليس شيس) الذي أعلن رأيه برفض الأساس العقائدي للصلب، لأن (ذنب آدم لم يضر إلا آدم، ولم يكن له تأثير على بني النوع البشري والأطفال الرضعاء حين تضعهم أمهاتهم يكونون، كما كان آدم فيما قبل أن يذنب) ^(٣).

والثابت تاريخياً أن النصارى في القرون الأولى، قبل الملك قسطنطين لم يعرفوا رسم علامة الصليب على وجوههم بالأصابع، وظهر تبرير ذلك برواية تحكي عن هذا الملك أنه رأى في السماء صورة صليب من ذهب، وملك يقول له: إن كنت تريد غلبة أعدائك، فاجعل هذه الصورة علامة قدامك «وآمن وفعل ما قاله الملك فنصر، وهو الذي بحث عن صليب المسيح حتى وجده مدفوناً، وعمل من المسامير التي كانت فيه لجاما لفرسه، وزين جبينه بصليب من ذهب، فاستمر ذلك لنا علامة على النصر والظفر» ^(٤).

(١) محمد ﷺ في الكتاب المقدس، البروفيسور عبد الأحد ص ٢٢٧.

(٢) نقلا عن محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن ص ١٠٣، راجع بالتفصيل في هذا المصدر هذه الطوائف وتبلغ إحدى عشرة طائفة.

(٣) ما هي النصرانية؟ ص ٩٠.

(٤) الأجوبة الفاخرة للقراي ص ١٦١ والعبارة على لسان قسيسهم وكبيرهم حفص.

ويبقى السؤال وارداً وهو: كيف يرضى النصارى بعلامة الصليب (وهو شنيع على المسيح ﷺ وإظهار لشعائر الإهانة العظيمة الحاصلة لمن يزعمون أنه ربهم، وهذا لا يرتضيه الإنسان لغلامه، فكيف لنبيه، فكيف لربه؟) (١).

ويصرح محمد تقي العثماني بأنه لم يجد على هذا السؤال إجابة في كتابات أي عالم مسيحي (٢).

وختاماً لدراستنا الموجزة حول علم الأديان المقارن، سنجعل مسك الختام منصباً على الحديث عن إثبات نبوة محمد ﷺ، وذلك في بحثين:

الأول:

النبوءات بمحمد ﷺ في الكتاب المقدس (٣).

الثاني:

الأدلة العقلية على صدق نبوته ﷺ.

(١) المرجع نفسه ص ١٦٠/١٦١.

(٢) ماهي النصرانية؟ ص ٧٥.

(٣) لم تقتصر النبوءات على الكتاب المقدس فحسب، فقد ذكر العقاد بأن (بعض الباحثين وجد اسم أحمد مكتوباً بلفظه العربي في السامافيدا من البراهمة، وبعض صفاته ﷺ وكذا كتب الجوس (التاريخ الفارسي) ككتاب زندافستا ينبي عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين "شوشيان" ويتصدى له عدو يسمى أبا لهب، ويدعو إلى إله واحد لم يكن له كفواً أحد وليس له أول ولا آخر ولا صاحب ولا ولد، وكيف تنهض البادية وتتوجه للكعبة وتبسط سلطانها على فارس، وإن نبهم فصيح ذو معجزات) مطلع النور للعقاد - كتاب الشهر - دار الهلال ١٩٦٨م نقلاً عن مختصر إثبات نبوة محمد ﷺ لمحمد إبراهيم حجاج ص ٨٣، الذي يرى أنه لا يبعد أن يكون ذلك من آثار النبوات السابقة من لدن نوح.

الفصل السابع

النبوءات بمحمد ﷺ في الكتاب المقدس

تمهيد:

يلاحظ علماء تاريخ الأديان المقارن أنه بالرغم من كثرة ذكر الرسل والأنبياء بالكتاب المقدس، إلا إنه عندما تأتي البشارة بمحيي محمد ﷺ فإنهم يخفونها أو يجحدونها ولا يعترفون برسالته، فما السبب؟

يرى جارودي أن مصيبة تاريخ الأديان المقارن إنه يحمل في الغرب علامة العصر الذي ولد فيه، ولذلك فهو يتميز بظاهرتين:

الأولى:

إنه فيما يخص الإسلام، فإن الغرب اعتمد على وجهة نظر مسيحية متعصبة وطائفية، وترفض الاعتراف بصحة الوحي الإسلامي اعتماداً على تأكيد صحة وحيها هي. وهذا ما يدعونا للاعتقاد بأن التعصب هو أحد أسباب إنكار نبوة نبينا ﷺ.

الثانية:

المُسَلِّمة الفلسفية الوضعية القائلة باستبعاد كل إمكانية للتسامي بشكل مفاجئ في التاريخ، وهي التي تنزوي في أفكار مسبقة، لتزعم أن لا شيء ينشأ إلا نتيجة ومحصلة لأحكام سابقة^(١).

أما البروفيسور عبد الأحد داود فقد كان أكثر صراحة؛ لأن تمكنه في علم الأديان المقارن وتخصّصه في علم اللاهوت وإحاطته الواسعة بالكتب الدينية عند اليهود والنصارى، وكل ذلك مكّنه من اكتشاف عدة حقائق أعلنها على الملأ في شكل تحقيقات وبحوث علمية موثقة وتستند إلى مراجع لا سبيل لأهل الكتاب في الطعن فيها.

(١) الإسلام دين المستقبل، جارودي ص ٦٦ ترجمة عبد المجيد بارودي - دار الإيمان - بيروت/دمشق

ويذكر البروفيسور - كأحد نماذج التحريف - إنه بدافع حقد اليهود على إسماعيل عليه السلام قام النساخ وفقهاء الشريعة بتحريف وإفساد الكثير من صفحات كتبهم المقدسة فشطبوا اسم (إسماعيل)، ووضعوا اسم (إسحاق) بدلا منه، وقاموا أيضا بحذف الوصف الخاص بإسماعيل (ولذلك الوحيد) لإنكار وجوده.

وقام النصارى بتحريف من نوع آخر، فغيروا ترجمة كلمة من معناها الأصلي إلى معنى آخر مغاير: وتفصيل ذلك أن الأصل في خطاب الله - تعالى - لإبراهيم عليه السلام قوله: (لأنك يا إبراهيم قبلت أن تضحي بابنك الوحيد من أجلي فسوف أزيد وأضاعف من ذريتك).

ولكن المسيحيين عندما قاموا بترجمة هذه الكلمة العبرية التي تعني (وفير) أو (كثير) من الفعل Para ترجموها إلى معنى مغاير لحقيقة اللفظ ألا وهو (الحمار المتوحش) .

وعندئذ ييدي هذا العالم دهشته الممتزجة باللوم والسخط على هذا الفعل ويتساءل (أليس من العار والكفر أن ينعت إسماعيل - بهذا اللفظ - وهو النبي الذي كرمه الله فنعتة (بصاحب الذرية الخصبة الكثيرة العدد) ^(١) .

وأدته دراسته في علم اللاهوت، وتبحره في تاريخ الأديان في معرفة الكتاب المقدس ونبوءاته، وإلى الإقرار بالحقيقة التي لا محيد عنها، وهي أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الهادي، وهو (روح الحق) الذي بشر به المسيح عليه السلام ^(٢) .

واعتنق الإسلام عن اعتقاد تام بعد كثرة البحوث والقراءات والمقارنات، ثم أعلن في تواضع (إني لا أعزو اعتناقي الدين الإسلامي لأي سبب غير التوجيه الإلهي الكريم الذي هداني للإسلام، وبغير هذا الهدى الإلهي، فقد يصاب الإنسان بالحيرة والضلال من تعدد التعاليم الدينية، ومن كثرة الجهود المضنية التي تجابه الإنسان في سبيل البحث عن الحقيقة) ^(٣) .

(١) محمد صلى الله عليه وسلم في الكتاب المقدس، ص ٦١.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٤.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٢.

(أما الإسلام فهو الدين الذي يحقق الهدوء داخل العقل، وداخل البيت مهما كانت الاضطرابات التي تهددنا)^(١).

وفي وصف شامل للإسلام ورسائله وصيغته الفريدة، ومدى صدهاء في نفوس خصومه يعرفه بأنه (لا يوجد أي نظام ديني في العالم يحمل اسماً أو وصفاً أفضل وأشمل وأكثر هيبة، وسمواً من الإسلام، فالدين الحق، لله الحق لا يمكن أن يسمى باسم أي عبد من عباده ولا أن يدعى باسم شعب معين أو اسم بلد معين، إن هذه القداسة والعصمة لكلمة إسلام هي التي توقع الرعب والخوف والاحترام في قلوب أعدائه، حتى عندما يكون المسلمون ضعافاً وخانعين)^(٢).

ودفعه إيمانه ذو الجذور العميقة في نفسه إلى إعلان اكتشافاته العلمية على الملأ، بل الدعوة إلى الإسلام أيضاً لأنه بعد الفحص والتمحيص ثبت لديه أنه الدين الحق.

لقد أراد البروفيسور عبد الأحد -إذن- بوحى من إيمانه العميق إثبات تحريف الكتاب المقدس لنصوص النبوءات، فأتى بالنصوص المحرفة^(٣)، بسبب الترجمة وطابقها مع ما يقابلها مكتوباً باللغة الأصلية، وعندئذ أذهله أن كل النصوص المعنية بالنبوءات تنصب على رسول الله ﷺ، وهذا لم يكن يتوقعه قط بحكم عقيدته السابقة، ونشأته على النظر للإسلام ونبیه بعين ملؤها الحقد والكراهية، أو عدم الإنصاف على أقل تقدير.

ولا يتسع المجال لعرض بحوثه تفصيلاً ولكن يعيننا فقط الإمام بطريقة التحريف المتبعة، والتي بواسطتها ينكرون نبوة نبينا محمد ﷺ.

وستدرج لبنين منهجه أولاً ثم نصل إلى تطبيق هذا المنهج على بعض النصوص الدالة في أصلها على الرسول ﷺ.

(١) المرجع نفسه ص ١٢٨.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) يرى الأستاذ محمد إبراهيم حجاج أنه لكثرة البشارات بمحمد ﷺ وتفرقها في كتبهم لم يستطيعوا إخفاءها كلها، وإن اجتهدوا لتمويهها وتأويلها، فلا تزال تدل على محمد ﷺ. ص ٨٦ من كتابه (مختصر إثبات نبوة محمد ﷺ) المكتبة الإسلامية - عمان ١٤٠٣ هـ.

فمن معالم منهجه أنه أخذ (يعيد قراءة الكتب المقدسة بنصوصها الأصلية مرة بعد مرة) ^(١)، فوقف على أهم الحقائق التي غابت على القساوسة (ولو حاول القساوسة اللاهوتيون النصارى معرفة حقيقة كتبهم المقدسة التي وردت أصلاً باللغة العبرية بدلاً من ترجمتها، كما يفعل المسلمون الذين يقرءون قرآنهم بنصه العربي، لاتضح لهم أن الله -تعالى- هو نفس الاسم القديم السامي الخالق الأعلى الذي أوحى وكلم آدم وجميع الرسل من بعده) ^(٢).

وفي ضوء هذا المنهج مضى ليتحقق من أن النبوءات الواردة بالكتاب المقدس تحققت بالحرف الواحد وصدقت على محمد ﷺ.

وسنكتفي بعرض ثلاث منها بإيجاز:

النبوءة الأولى:

ما ورد في التوراة «سفر التثنية الفصل الثامن عشر الجملة: ١٨»:

«أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه».

ويرى البروفيسور عبد الأحد أن هذه الكلمات ما لم تنطبق على محمد ﷺ فإنها تبقى غير متحققة، فالمسيح ﷺ نفسه لم يدع أنه النبي المشار إليه، وكذلك يتطلع حواريوه إلى عودته لكي تتحقق النبوءة «وحتى الآن، فإنه من الثابت غير المنقوص بأن الظهور الأول للمسيح لم يكن ليدل على ما جاء في الجملة «أقيم لهم نبياً مثلك»، وكذلك فإن عودة المسيح مرة ثانية لا تكاد تحمل معنى هذه الكلمات، وأن المسيح، كما تؤمن به كنيسته، سوف يظهر كقاض وليس كمقدم للتشريع بينما «الموعود» هو الذي يجيء «حاملاً الشريعة النارية المشعة بيده اليمنى» ^(٣).

النبوءة الثانية:

الكلمات الواردة في التوراة في الفصل ٣٣ الجملة «٢» تنص على ما يلي:

(١) محمد ﷺ في الكتاب المقدس ص ٢٨.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٧.

(٣) المرجع نفسه ص ٣١.

«وجاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير وتلاًلاً قدما من جبل فاران، وجاء معه عشرة آلاف قديس، ومن يده اليمنى برزت نار شريعة لهم».

ومن الثابت -في رأي البروفيسور عبد الأحد- أنه لم يكن لأحد من الإسرائيليين بما فيهم المسيح عليه السلام أية علاقة بـ «فاران»، فإن «هاجر» مع ولدها «إسماعيل» هم الذين سكنوا في قفار «فاران»^(١).

وكذلك فإن «بيت الرب الذي بمجد اسمه فيه» المشار إليه في الإصحاح «٦٠» الجملة «٧»، هو بيت الله الحرام في مكة وليس كنيسة المسيح، كما كان يعتقد المفسرون المسيحيون.

وبحكم معرفته الواسعة بالتاريخ وتفاصيله، ووقوفه على أعداد المسلمين الذين دخلوا مكة المكرمة، لفت نظره تحديد عدد العشرة آلاف «فإذا قرأت جميع التواريخ المتعلقة بقفار "فاران" فإنك لا تجد أية حادثة أخرى غير هذه أمامك، وهي أنه عندما فتح النبي ﷺ مكة دخلها على رأس عشرة آلاف مؤمن من أتباعه في المدينة، ثم يعود إلى «بيت الله» ويده اليمنى الشريعة التي حولت جميع الشرائع الأخرى إلى رماذ»^(٢).

النبوءة الثالثة:

وتحتوي على جملتين كل منها تنص على اسم «أحمد» أو "Himda" «أ» الجملة الأولى «وسوف يأتي أحمد لكل الأمم - سفر حجّي ٢-٧». والترجمة المحرفة لبعض الكتب المقدسة في الإصحاح الثاني من سفر حجّي هكذا، يقول «و يأتي مشتهي كل الأمم»^(٣).

(ب) الجملة الثانية ونصها «و لسوف أزلزل كل الأمم، وسوف يأتي حمدا Himda لكل الأمم، وسوف أملاً هذا البيت بالمجد، كذلك قال رب الجنود: ولي الفضة ولي الذهب، وهكذا يقول رب الجنود: وإن مجد ذلك البيت الأخير يكون أعظم من مجد

(١) المرجع نفسه ص ٣٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٤.

(٣) المرجع نفسه ص ٤٩.

الأول، وهكذا يقول رب الجنود: وفي هذا المكان أعطي السلام، وهكذا يقول رب الجنود».

الإصحاح الثاني من حجي، الجملة ٧ - ٩.

ويرى البروفيسور عبد الأحد خطأ ترجمة كلمتي «حمدا» و«شالوم» من أنهما «الأمنية والسلام»^(١)، لأن النبوءة على ضوء هذه الترجمة لا شيء أكثر من «همس غامض مبهم ولا يفهم معناه»، ثم يقول «و لكن إذا فهمنا المقصود من التعبير بكلمة «حمدا» بأنه فكرة ثابتة عن شخص أو عن حقيقة واقعة، وإذا ما فهمنا المقصود من كلمة «شالوم» بأنها ليست حالة مشروطة، بل هي قوة فعالة وديانة رسمية ثابتة ومعترف بها، وعندئذ لا بد من اعتبار هذه النبوءة على أنها صادقة لا إنكار فيها، وأنها مطابقة لشخصية «أحمد» وبعثته بالإسلام، ذلك لأن كلمتي «حمدا» و«شالوم» أو «شلاما» تؤديان بدقة نفس الدلالة والأهمية لكلمتي «أحمد» و«الإسلام»^(٢).

ويرى البروفيسور عبد الأحد أن اسم «أحمد» هو أول اسم علم عرف بهذه الصيغة في تاريخ البشر «و هو بحسب اعتقادي أعظم معجزة جاءت لصالح الإسلام»^(٣).

هذا وقد سبق أن قلنا في الفصل الأول أنه لا بد من القدوة الكاملة في اجتياز طريق الحياة الإنسانية، وقد تحقق ذلك في الإسلام باعتباره خاتم الأديان ﴿أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وخص الله عز وجل محمداً ﷺ: وحده

(١) ويقول البروفيسور: (ولقد قمت بترجمة هذه الفقرة المذكورة من النسخة الوحيدة من الإنجيل الذي كان بحوزتي، والتي أعارتني إياها سيدة آشورية كانت ابنة عم لي، والنسخة هذه هي باللغة الوطنية الدارجة حينذاك، ولكن دعنا نرجع إلى الترجمة الإنجليزية للكتاب المقدس، والتي نجد إنها ترجمت عن الأصل العبري كلمة (حمدا) إلى (الأمنية) وكلمة (شالوم) إلى السلام - ص ٥٠.

(٢) المرجع نفسه ص ٥٠ ويقول ص ٥٢ (أما فيما يتعلق بأصل هذه الكلمات وتاريخها ومغزاها "شالوه" و"شلاما" بالعبرية، وفي العربي (سلام) وإسلام، فإنه لا حاجة بي لأن أعيق تسلسل القارئ في تفكيره، فأجره إلى تفاصيل لغوية، لأن أي عالم في السامية يعرف تماما أن (شالوم) و(إسلام) هما كلمتان مشتقتان من أصل واحد، وتعنيان نفس المعنى، وهو السلام والإذعان أو الاستسلام).

(٣) المرجع نفسه ص ٥٤.

- كحاتم النبيين- بوصفه «الأسوة الحسنة» فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ونعود هاهنا لاستكمال إحدى الحلقات في موضوع النبوة، فنظهر البراهين الدالة على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ، مستخدمين في ذلك طريقتي عالَمين من علمائنا: أحدهما الشيخ ابن تيمية «فيما بين القرنين السابع والثامن الهجريين: ٦٦١ - ٧٢٨ هـ» والثاني الأستاذ محمد لطفي جمعة في العصر الحديث.

ونلاحظ أن الأول استخدم مصطلحات عصره المنطقية «المسلوك النوعي - الشخصي»، بينما استخدم الثاني علوم العصر كالاقتصاد والأخلاق والنفوس في صد حملات التهجم والتشكيك، متمسكا ومعتزا بعقيدته الإسلامية، ومتحديا كتابات المستشرقين من اليهود والنصارى وتلاميذهم من المغتربين المفتونين والملحدين العصريين. كذلك لا بد من التنويه بمنهج العالم الفرنسي مورييس بوكاي الذي عرضنا بعض لمحاته بأحد فصول الكتاب.

وهكذا تبقى طرق الاستدلال العقلية والعلمية متاحة في كل العصور متضافرة لتحلية الحق.

المدخل العقلي لصدق نبوءة محمد ﷺ

لقد حض القرآن الكريم على التفكير في أمر النبي ﷺ واستخدام ميزان العقل للثبوت من صدق نبوته -عليه الصلاة والسلام: تدبروا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِئًا وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

قال القاسمي في تفسير هذه الآية: «أي قياماً خاصاً لله بلا محابة ولا مراة اثنين، وواحدا واحدا «ثم تفكروا» أي في أمره ﷺ وما جاء به من الهدى وإصلاح الأخلاق، ورفع النفس عن عبادة ما هو أخط منها من الأوثان، إلى عبادة فاطر السماوات والأرض، واتباع الأحسن ونبد التقاليد وإنزال الرؤساء إلى مصاف المرءوسين رغبة في الإخاء والمساواة، إلى غير ذلك من محاسن الإسلام وخصائصه المعروفة في الكتب المؤلفة في ذلك. وقوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦] أي جنون، مستأنف

منبه لهم على أن ما عرفوه من راحة عقله كاف في ترجيح صدقه والتعبير عنه ﷺ بـ «صاحبهم» للإيماء أن حاله معروف مشهور بينهم، لأنه نشأ بين أظهرهم بقوة العقل، ورزانة الحلم وسداد القول والفعل «إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ» [سبأ: ٤٦] وهو عذاب الآخرة والمآل (١).

كذلك الرسول ﷺ أيضاً عندما أعلن نبوته عقب صدور الأمر الإلهي إليه، استند إلى دليل عقلي، فقد ألقى إليهم سؤالاً أولاً - كما سيأتي حتى يقرأوا بأمانته وصدقه - أي المقدمة التي سيبنى عليها النتيجة، فلما أقروها أعلن عليهم النبأ.

فقد نفذ الأمر الإلهي إليه ﷺ «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» [الشعراء: ٢١٤] فصعد على الصفا فجعل ينادي لبني قريش حتى اجتمعوا فسألهم: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم كنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» (٢).

والحديث عن نبوة محمد ﷺ يتشعب بنا إذا لم نحصر حديثنا في جانب واحد من السيرة، لأنها أجل وأعظم من أن يحاط بها مؤلف أو مؤلفات على سعتها، فما من مؤلف من مؤلفات السيرة إلا جاء معبرا على أحد جوانبها دون الإحاطة بها جميعاً. وفي نطاق بحثنا المحدود، سنختار مقتطفات من الأدلة على صدق نبوته ﷺ، منها وأولها معجزة القرآن الكريم التي عجز البشر وسيعجزون حتى قيام الساعة أمام التحدي الإلهي «فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا» [البقرة: ٢٤].

وإننا واجدون في إثبات النبوة نفس الطريقة التي يمكن بها أن تثبت أنواعا من العلماء في البشر كالأطباء والفلكيين والأدباء والشعراء والنوابغ في ميادين المعارف والعلوم المختلفة «فما من أحد يدعي العلم بصناعة أو مقالة إلا والتفريق في ذلك بين الصادق والكاذب له وجه كثير... والنبوة مشتملة على أشرف العلوم والأعمال» (٣).

والمسالك كثيرة للاستدلال على النبوة بالأدلة العقلية، نختار منها مسلكين، ومصدرنا شيخ الإسلام ابن تيمية، مع الاختصار:

(١) القاسمي: محاسن التأويل ج ١٤ ص ٤٩٦٦ تصحيح محمد فواد عبد الباقي - ط. عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٢) ابن الوزير اليماني: الذب عن سنة أبي القاسم صلوات الله عليه. ج ٢ ص ١٣١ المطبعة السلفية.

(٣) شرح العقيدة الأصفهانية ص ٨٢ وما بعدها.

الأول: المسلك النوعي:

وبه استدل النجاشي على نبوته ﷺ، فإنه لما استخبر الصحابة القادمين عليه فراراً بدينهم من قريش عما يخبر به، واستقرأهم القرآن، قال بعد سماعه لبضع آيات من سورة «مریم»: «إن هذا -والذي جاء به موسى- ليخرج من مشكاة واحدة» أي إنه عرف أن طبيعة الكلام تدل على وحدة المصدر.

وبنفس الطريقة سبقه إلى ذلك ورقة بن نوفل، عندما هرعت السيدة خديجة -رضي الله عنها- تسأله عن حقيقة ما حدث للنبي ﷺ فأجاب قائلاً: «هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى عليه السلام».

الثاني: المسلك الشخصي:

وبه استدل هرقل ملك الروم عندما وجه أسئلته إلى أبي سفيان وهو حينئذ من أشد الناس بغضاً وعداوة للنبي ﷺ وموجز هذه الأسئلة هي:

- هل كان في آبائه ملك؟ فأجاب بالنفي.
- هل قال هذا القول أحد من قبله؟ فأجاب بالنفي.
- هل هو ذو نسب فيهم؟ فأجاب بالإيجاب.
- هل يتهمونه بالكذب؟ فأجاب بالنفي.
- هل اتبعه الضعفاء من الناس؟ فذكر أن الضعفاء اتبعوه.
- هل يزدون أم ينقصون؟ فذكر أنهم يزدون.
- هل يرجع أحد عن دينه سخطاً له؟ فأجاب بالنفي.
- هل قاتلوه؟ فأجاب بالإيجاب.
- ما طبيعة الحرب بينهما؟ فأجاب بأنه يظهر على أعدائه المرة، والعكس مرة أخرى.
- هل يغدر؟ قال لا.

وكان هرقل يسأل أبا سفيان طالباً ممن معه من تجار قريش إن كذب أن يكذبه فوجدهم موافقين له في إجاباته، وأخيراً سأهم - بماذا يأمركم؟ قالوا «ياأمرنا أن نعبد

الله وحده لا نشرك به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة».

ثم بيّن لهم في النهاية دلائل أسئلته، فقد سأهم عن أسباب الكذب وعلاماته فرآه متتفياً، وسأله عن علامات الصدق فوجدها ثابتة، إذ لو كان في آباءه ملك لقال رجل يطلب ملك أبيه، كذلك فإن تفرد ﷺ بدعوته يدل على أنه بخلاف ما هو معتاد من اتباع الرجل لعادة آباءه واقتدائه بمن كان قبله - وهذا يحدث كثيراً في المجتمعات الإنسانية - أما إذا طلب أمراً لا يناسب حال أهل بيته فإن هذا نادر في العادة لكنه قد يقع، ولهذا أردفه بالسؤال عما إذا كانوا يتهمونهم بالكذب، فلما علم صدقه قال إنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله، ثم أردف ذلك بالسؤال عن علامات الصدق، فمن علامات الرسل اتباع الضعفاء لهم، وسأهم هل يزيدون أم ينقصون، فقالوا بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسأهم هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطاً له بعد أن يدخل فيه، وأيقن من إجابتهم بالنفي أنه نبي لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، وعلم أن من علامات صدق نبوته ﷺ أن أتباعه يزيدون ولا ينقصون، لأن الكذب والباطل لا بد أن ينكشف في آخر الأمر، فيرجع أصحابه عنه، فالمتمني الكذاب لا يدوم إلا مدة يسيرة، وفي الحرب علم أنه تارةً يغلب كما غلب يوم بدر وتارةً يُغلب، وكذلك الرسل تبلى وتكون العاقبة لها؛ فإن سنة الله في الأنبياء والمؤمنين أنه يتلبهم بالسراء والضراء لينالوا درجة الشكر والصبر، كما علم من إجابتهم أنه لا يغدر فكذلك الرسل فإنها لا تغدر أصلاً، إذ الغدر قرين الكذب، وتعرف على صدقه أيضاً من أمره ﷺ بعبادة الله وحده والصلاة والصدق والعفاف والصلة، وينهاهم عما كان يعبد آباؤهم وهذه صفة نبي.

وعلق هرقل في النهاية بقوله: «و قد كنت أعلم أن نبياً يبعث، ولم أكن أظن أنه منكم ولوددت أني أخلص إليه، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه، وإن يكن ما يقول حقاً فسيملك موقع قدمي هاتين» (١).

(١) ابن تيمية: شرح العقيدة الأصفهانية من ص ٨٢: ٨٦ - مطبعة كردستان العلمية بالقاهرة سنة

ونضيف إلى ذلك أن الأدلة العقلية والمنطقية والتاريخية، وما لها ارتباط بعلم النفس والاجتماع والأخلاق، كلها تؤيد أنه النبي الصادق حقاً، وإن كان هذا يتطلب دراسة قائمة بذاتها كما فعل كثير من كبار علمائنا^(١) إلا أننا نختصر هنا الكلام اختصاراً لكي نبرهن على أن المدخل العقلي للعقيدة الإسلامية يتجلى في آياته القرآنية، وصدق رسوله ﷺ إذا ما نظرنا إليه بعين الإنصاف والتجرد للبحث عن الحق.

وكما تحدثنا من قبل عن تعذر الإحاطة بسيرة الرسول ﷺ في كتاب، فما بالنا بعدة صفحات؟

ومع هذا فإنه مما يتصل بدراستنا فحص الآراء التي يلف حولها بعض كتاب الإفرنج ويدورون، لنخرجهم من هذه الدائرة المضللة إلى نور الحق وضياءه، وهذه الآراء لا تخرج في مجملها عن محاولتهم - بطريقة فجحة، بل مضحكة: - إما اصطناع صلة بينه ﷺ وبين الأديان والثقافات السائدة حينذاك في بيئته أو المساس بالقرآن الكريم أو النيل من صفاته الشخصية ﷺ.

وبمراجعة صفحات كتب السيرة، سنجد بحمد الله - تعالى - ما سبقنا به علماؤنا من مواجهة حاسمة مفحمة لكل ما دندن حوله أعداء الإسلام، وكانت نتيجة المواجهة في صالح الحق والعدل.

وسنعرض لهذه الآراء بحسب ترتيبها:

(١) الثقافة في البيئة المكية.

(٢) اختلاف الأسلوب بين القرآن والحديث.

(٣) خلقه ﷺ.

(١) منهم الأستاذ محمد لطفي جمعة - الذي رجعنا إليه في هذه الصفحات مع العلم بأن كتابه في السيرة يمتاز بأنه نتاج اطلاع واسع وغزير جداً - يكاد لا يبارى في العصر الحديث - مع عمق دراسته تحليلية ومقارنة وردا على علماء الإفرنج، ويقع كتابه في نحو ١٠٥٧ صفحة من القطع الكبير - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ م بعنوان: ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله.

١ - الثقافة في البيئة المكية

ومن هذه الأدلة أن العرب «كانوا أميين وثنيين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ الأمم، ومبادئ التشريع وعلوم الفلسفة، وأن مكة عاصمة دولتهم وقاعدة دينهم ومقر كعبتهم ومثوى زعمائهم ورؤسائهم، وملتقى الشعوب والقبائل للتجارة والحج والمفاخرة بالفصاحة والبلاغة والشعر والخطب، لم يكن بها مدرسة ولا مكتب ولم يوجد بها كتاب مخطوط، فكيف يهباً لرجل مثله، وفي مثل هذه البيئة الجاهلة أن يجيء بدين تام وكامل، وشرع عادل عام»^(١).

إن الدراسة المقارنة للعقائد والأديان والنظم تصل بالباحث إلى سمو المعتقدات والأحكام والعبادات والآداب التي جاء بها محمد ﷺ، ولم يكن من الممكن أن يصل إليها عقله وفكره ولا علومه ومعارفه الكسبية، فيتعين أن يكون ذلك بوحى من الله تعالى، ثم إن ما جاء به من هداية الناس وصلاح أمورهم في دينهم ودنياهم كان أعلى في نفسه من معارف البشر في عصره، فيتعين أن يكون وحياً.

ولو كانت النبوة أمراً كان يرجوه محمد ﷺ، وكان قد أتم استعداد له باختلائه وتعبده - كما يزعم ذلك بعض المستشرقين - ما حدث له من رجفة هائلة، ولما عاد إلى زوجته مرتجفاً تصطك أسنانه وترتعد فرائضه ويسيل عرقه - بل كان ينزل إلى أهله فرحاً طروباً منتصباً متشجعاً غير هباب ولا وجل، مثل كل رجل يجد الأمر الذي كان يسعى إليه ويطلبه، ولكن الذي حدث أنه بعد نزول سورة «العلق» انقطع عنه الوحي ثلاث سنوات تباعاً، وكان في هذه الأعوام الثلاثة، وهي التي يسمونها فترة الانقطاع ساكناً هادئاً لم يتل فيها على الناس سورة ولا آية، ولم يدع أحداً إلى شيء ولا تحدث إلى أهله ولا إلى أصدقائه بشيء، لأنهم لم ينقلوا عنه شيئاً، فهذا السكون وحده برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعداده للوحي الذاتي الذي زعموه.

(١) محمد لطفي جمعة: ثورة الإسلام وبطل الأنبياء ص ٥٤٧ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ م.

أما قصة بحيرا الراهب فقد ضعفها بعض العلماء - أمثال عبد العزيز بن راشد النجدي ورشيد رضا ومحمد لطفي جمعة - لأن الروايات الخاصة بها ضعيفة الإسناد، إلا رواية الترمذي وليس فيها اسم بحيرا وفيها غلط في المتن، وليس في شيء منها أن محمدا ﷺ سمع من بحيرا شيئا عن عقيدته أو دينه، ولم يكن بحيرا - إن وجد حقيقة - ساذجا إلى درجة أنه فاتح صبياً صغيراً بمثل هذه الأسرار العليا.

ومن أبعد الروايات عن الإقناع، ادعاء خصوم الرسول ﷺ إنه تلقى ما تلقاه من حداد رومي بمكة، فمن المضحك أن لا يجد النبي ﷺ معلما إلا في شخص الحداد، ولعل محمدا كان يراه في السوق فيقف عليه ليرى صنعته، ولم يفقه لغته ولا يمكنهما التفاهم، ولذا جاء في القرآن ﴿لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وبالجملة لم يجد النقاد شخصا يليق في مكة بأن يكون أستاذا لمحمد ﷺ؛ لأن مكة يهود ونصارى من طبقة العبيد والرقيق لسادتهم العرب، لأن رؤساء قريش لم يكونوا يسمحون لأحدهم ذوي الشأن من النصارى أو اليهود أن يقيموا في مكة، وهي حرمهم المقدس الخاص بأوثانهم، وإن كانوا يتساهلون مع خدمهم وعبيدهم لأنهم في حاجة إليهم، وهؤلاء كانوا من طبقة نازلة ولكنهم جهلاء، ولا يتصور أن محمدا ﷺ يتنزل أو يتدلى إليهم ليتلمذ أو يتلقى عنهم رسالته (١).

ومما يدحض أيضا هذه المفتريات الصادرة عن خيالات كتابها، أن ندرس تاريخ رسالة الأنبياء -عليهم السلام- منذ إبراهيم ﷺ مع التخلص من الروح العنصرية في البحث، لذلك فإن استيعاب هذا التاريخ بنظرة شاملة كلية يتطلب - كما يرى

(١) وينظر د/محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم - دار القلم بالكويت - ص ٦٤/٦٥ ط ١٣٩٧ هـ -

جارودي - التحلي عن النزعة الغربية الإقليمية الضيقة واستيعاب ما جاء به الأنبياء - عليهم السلام - الذين أكملوا رسالة إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ويستطرد فيلسوفنا قائلا: «وحيث يتاح لنا أن نفهم أسباب استبدال المسيحية الناهضة باليهودية المتحجرة، كما يتاح لنا أن نفهم السبب الذي من أجله أصبحت المسيحية خيالية مشوهة، بفعل سياسة الإمبراطور قسطنطين، تلك السياسة التي قلبت المسيحية رأسا على عقب، إن مفهوم «نظام الكهنوت» الروماني المنشأ، والذي صنع فيما بعد بصيغ يونانية ثم أقره مجمع «نيقيا» كعقيدة روحية لاهوتية.. إن المفهوم الذي سرعان ما تصدع وتشظى إلى شيع عديدة لم يستطع أن يقاوم البديل التاريخي وهو الإسلام»^(١).

أي إنه ﷺ جاء بعقيدة ليصحح العقائد التي انحرفت على أيدي اليهود والنصارى بعد إبراهيم عليه السلام.

ككيف يقال: إنه جاء مقلدا لهذه الانحرافات، آخذا عنها؟

٢ - اختلاف الأسلوب بين القرآن والحديث

يقول أحد كتاب السيرة المعاصرين: «إني أتخذ من الاختلاف في الأسلوب بين القرآن والحديث دليلا علميا وعقليا وأديبا على صحة الوحي»، ويشرح ذلك بالرد على الزاعمين انتحال الرسول ﷺ القرآن لنفسه، إذ لو فعل ذلك، لكان أدعى إلى الفخر والمباهاة والشهرة وذبوع الصيت، لدلالته على القدرة الباهرة في نظم الكلام وتأليفه والاطلاع على علوم الأولين والآخرين، وأيضا الوقوف على أسرار الكون والعالم بما لم يسبق لأحد من الحكماء والمشرعين من قبل، ولكن هذا الكذب لا تقبله نفس محمد ﷺ ولا ترضاه سريرته ولا يتحملة ضميره فضلا عن أنه لو كان القرآن هو كلامه، ما تمكن من التفكير في أسلوب آخر ينطق به في أوقات أخرى، خصوصا وأن القرآن كان يأتيه

(١) جارودي، ما يعد به الإسلام ص ٢٤٠.

ويهبط عليه في أحوال شاذة من كرب وضيق وعرق ورجفة، وقد تواتر الصدق في رواية صفته عندما كان يجيء الوحي على هذه الحال، وهي حال استثنائية لا يمكن فيها للكاتب أو المفكر أو الشاعر الذي أحوج ما هو إليه، أن يملك زمام نفسه واعتدال مزاجه، في حين أن حديثه وجوامع كلمه ومواعظه ونصحه، كان ينطق بها وهو على أشد ما يكون راحة وهدوءاً وسلامة بدن وسكون بال^(١).

ويقرر الأستاذ محمد لطفي جمعة بعد الاستشهاد بأقواله وخطبه وحكمه التي ملأت الآفاق، وأصبحت من السنن التي شرعها الله - تعالى - على يديه - أن من أقوى الحجج على صدق الوحي المحمدي وأوضحها وأجلها وأظهرها أن حديث النبي ﷺ الصحيح وجوامع كلمه وحكمه الوجيزة الصائبة وأجوبته المقنعة، وقد سارت كلها مسير المثل، وقيلت بجملتها عفو الساعة، دالة على حضور بديته وصفاء نفسه وقوة ذهنه، كانت جميعها تختلف اختلافاً بينا عن ألفاظ القرآن ومعانيه^(٢).

٣ - خلقه ﷺ

فإذا صعدنا النظر إلى خلقه ﷺ سحرتنا الآيات الباهرات بحيث يصدع لها كل إنسان سليم الفطرة، خلا قلبه من الدغن وشهوات الهوى والزيف والبحث في سيرته، فلا تجد إلا كل خلق عظيم ﴿وَإِلَٰكَ لَعَلَىٰ خُلُقِي عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وقد تفرد بهذا الوصف بلا منازع دون الأنبياء والرسل - صلوات الله عليهم جميعاً - وعن الرحمة في قوله عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال: «هذا خلق محمد

(١) انظر: محمد لطفي جمعة، ثورة الإسلام وبطل الأنبياء ص ٥٤٧، ٥٥٠: ٥٥٨ - مكتبة النهضة

المصرية سنة ١٩٥٩م.

(٢) نفس المصدر ص ٥٧٤.

ﷺ، نعته الله عز وجل» وسئلت السيدة عائشة -رضي الله عنها- عن خلقه فقالت: القرآن (١).

وسنختار في هذا الحيز ثلاثة نماذج فقط من بين مئات الشواهد الدالة على خلق النبوة الحقّة، وهي التي أوردها الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه «النبأ العظيم»:

(١) جلست جواريات يضررن بالدف في صبيحة عرس، وجعلن يذكرن آباءهن من شهداء بدر حتى قالت جارية منهن: وفيما نبي يعلم ما في غد فقال: ﷺ «لا تقولي هكذا، وقولي ما كنت تقولين» رواه الإمام البخاري. ومصادقه في كتاب الله تعالى: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ» [الأنعام: ٥٠]، «وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ» [الأعراف: ١٨٨].

(٢) وكان عبد الله بن أبي السرح أحد النفر الذين استثناهم النبي ﷺ من الإيمان يوم الفتح لفرط إيدائهم للمسلمين وصدّهم عن الإسلام، فلما جاء النبي لم يبايعه إلا بعد أن شفع له عثمان ﷺ ثلاثاً، ثم أقبل على أصحابه فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين كففت يدي عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: هلا أومأت لنا يا رسول الله، فقال ﷺ «إنه لا ينبغي لربي أن تكون له خائنة الأعين». رواه أبو داود والنسائي.

(٣) ولما توفي عثمان بن مظعون ﷺ قالت أم العلاء - امرأة من الأنصار - رحمة الله عليك يا أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال: ﷺ «ما يدريك إن الله أكرمهم؟ فقالت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ قال: أما هو فقد جاءه اليقين والله إني لأرجو له الخير. والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفَعَّلُ بي» قالت: فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً. رواه البخاري والنسائي. ومصادقه في كتاب الله

(١) الأصبهاني: أخلاق النبي ﷺ وآدابه ص ٢٠ - تحقيق أحمد محمد موسى - مكتبة النهضة المصرية

تعالى:

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩].

لم يتخف إذن وراء الدهاء أو السياسة، ولم يسمح لنفسه أن يقول ما يشاء في شأن ما بعد الموت، وهو لا يخشى من يراجع فيه، أو حُكْم التاريخ عليه إذ - منعه خلقه العظيم وتقدير المسؤولية الكبرى أمام حاكم آخر أعلى من التاريخ وأهله ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقْضُنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦، ٧].

ومهما جال الباحث في صفحات السيرة النبوية فلن يعثر إلا على الصفاء والصدق والإخلاص في كل قول من أقواله ﷺ، وفي كل فعل من أفعاله، بخلاف سيرة صنوف البشر جميعاً، إذ نرى الناس يدرسون حياة أساطين الفكر والأدب والفن والشعر، فتعطينا صورا معبرة عن عقائدهم وعوائدهم وأخلاقهم وأساليب معيشتهم، ولا يمنعون زخرف الكلام والشعر وطلاؤه عن استنباط دخالهم والكشف عن حقيقة سرائرهم، وذلك أن للحقيقة قوة غالبة تنفذ من حجب الكتمان، فتُقرأ بين السطور وتُعرف في لحن القول، ومهما تُصنَّع الإنسان العادي فلا يخلو من فلتات في قوله وفعله تنم على طبعه، وما عدا سيرة النبي الصادق ﷺ إذ كان الناظر إليه إذا حسنت فراسته يرى أخلاقه العالية تلوح في محياه، ولو لم يتكلم أو يعمل، ولهذا شرح الله صدر الكثيرين دون أن يسألوه، منهم العشير الذي عرفه بعظمة سيرته: قالت له السيدة خديجة عند بدء الوحي تطيباً لنفسه المكروبة بهذه الكلمات الدالة على صدق حدسها فوصفت خلاصة أخلاقه: «أبشر يا ابن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

كذلك منهم الغريب الذي عرفه بسماءه في وجهه. قال عبد الله بن سلام ﷺ «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه وقيل: «قدم رسول الله، قدم رسول الله» فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبت وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب» رواه الترمذي بسند صحيح^(١).

تم الكتاب بحمد الله

(١) انظر د/محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص ٣٢: ٣٥ - دار القلم - الكويت (نظرات جديدة في القرآن) ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

الفصل الثاني

البرهمية أو الهندوكية (١)

تمهيد:

تفجر العقائد الهندوكية -أو البرهمية- أسئلة كثيرة فتسبح الفرصة للتطرق إلى قضايا دينية لم تخل من تناولها عقيدة من العقائد، سواء كان أصلها سماويًا أو وضعيًا منها: صلة الله -تعالى- بالمخلوقات، والتساؤل عن وجود حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا أم لا.

ومنها: هل يهتدي بنو آدم إلى معرفة الحقائق من غير طريق الأنبياء؟ إذ لو صح الخبر عن إنكار بعض البراهمة للنبوّة والأنبياء، فيؤدي بنا إلى العودة في بحث قدرات العقل ومدى إمكان تحمله أعباء أكثر من طاقته وفوق قدراته.

وتداعى الأفكار للنظر في آراء ظهرت حديثًا لا تقدر النبوّة حق قدرها، فتصف الأنبياء والرسل بالمصلحين والعابرة أو القادة، أو تعطي صفات النبوّة لمن تهوى من البشر^(٢).

ومنها: هل تحقق وعيد إبليس ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠] الحجر، فما هي مظاهر الغواية متحققة، حيث تحولت شعوب وقبائل عن جادة التوحيد، فألجأتهم إلى عبادة البشر والحيوانات والشمس والقمر والكواكب، وغيرها من الكائنات:

وإن يكن ذلك استجابة لغواية إبليس، فما السبب الآخر المحتمل؟

(١) باعتبار الهندوسية (أو الهندوكية) دين متطور وبمجموعة من تقاليد الهند وعاداتهم وصور حياتهم. وأطلق عليها البرهمية ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد نسبة إلى براهما (الإله الخالق) أو القوة العظيمة السحرية الكامنة التي تطلب كثيرًا من العبادات كقراءة الأدعية وإنشاد الأناشيد وتقديم القرابين، ومن براهما اشتقت الكلمة (البراهمة) لتكون علمًا على رجال الدين الذين كان يعتقد أنهم يتصلون في طبائعهم بالعنصر الإلهي، وهم لهذا كانوا كهنة الأمة، لا تجوز الذبائح إلا في حضرتهم وعلى أيديهم (محمد عبد السلام- فلسفة الهند القديمة- ثقافة الهند مارس ١٩٥٣- ص

١٩)، نقلا عن د/ أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ٣٩- مكتبة النهضة ١٩٧٦.

(٢) كما وصف أحدهم في العصر الحاضر بني القومية العربية!

هل هو تقليد الآباء والأجداد، أم تعطيل العقل عن التفكير المنطقي بعيداً عن الهوى؟

ربما كان التحليل النفسي الاجتماعي الذي أداه ابن الجوزي يدلنا على تفسير جزئي لهذه الظاهرة العجبية فقال: «غير أن هوى القوم في متابعة الأسلاف واستحلاء ما اخترعوه بآرائهم، غطى على العقول، فلم تتأمل حقائق الأمور»^(١).

وكانت هناك محاولات للإصلاح، مثل ما فعله المصلح الهندي رامنا كرشنا، إذ رفض الهندوكية، ولم يعد يقدس الجبال والأنهار والحيوانات والأجداد «ولكنه يؤمن بأن العقول والقلوب كلها تتجه إلى قوة واحدة، هذه القوة وراء كل شيء وكل إنسان، وكل دين»^(٢).

ولكن تعديلاته كانت جزئية؛ لأنه ظل معتقداً بوحدة الوجود، فبعد أن درس الإسلام وأقر بأن الإسلام حق، درس النصرانية أيضاً ثم أعلن وحدة الأديان، فهي عنده كلها منسجمة^(٣).

ومما يلفت النظر أيضاً في الديانة الهندوكية الاعتقاد بالتناسخ، فتساوي بين مراتب الوجود الإنساني والحيواني وكأنهما نسيج واحد، وسيكة مختلطة العناصر، فافتقدوا معرفة الروح المميزة للإنسان دون غيره من سائر المخلوقات، وأنكروا البعث والحساب والعقاب في اليوم الآخر.

وتأتي أعجوبة الأعاجيب المتمثلة في عبادة الحيوانات، ومنها البقرة، وسجد الدفاع الحار عن هذا الفعل المنافي لكرامة الإنسان ومكانته ! وما أصدق وصف ابن الجوزي لأمثال هؤلاء إذ وضعهم في مكانهم المناسب فقال: «وقد كان قوم يعبدون الخيل والبقر

(١) صيد الخاطر ص ٣٧٨ تحقيق عبد القادر عطا مكتبة الكليات الأزهرية بمصر سنة ١٩٧٩ م.

(٢) ديانات أخرى ، أنيس منصور ص ١٢٩ ، ١٣٠ ط. دار الشروق ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ثم انتشرت حركته في أوروبا وأمريكا.

(٣) نفسه ص ١٣١ ومن التعديلات التي أدخلت على الهندوكية ما قام به (ناناك) المؤسس لديانة السيخ، فقد تأثر بالإسلام وأعجب ببساطته وساحته وأن الله -تعالى- واحد، ولكنه في الوقت نفسه أنكر القيامة ص ٨٤.

وإن هؤلاء لأخس من إبليس، فإن إبليس -أنف لادعائه- الكمال أن يسجد لناقص فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [ص: ٧٦] وفرعون أنف أن يعبد شيئاً أصلاً^(١).

نماذج من انحدار العقائد من التوحيد إلى الشرك

البراهمة:

لعل من أهم النماذج في هذا الصدد هو نموذج ديانة البراهمة، حيث اجتازت ثلاثة

أدوار:

الأول:

دور التوحيد عند الهنود القدماء، وربما انحدروا من الأصل السامي «نسبة إلى سام ابن نوح معلمهم الأول ومرشدهم، وراثة عن أبيه».

الثاني:

دور الكهنة البرهمنين ونشأة الثالث الهندي «برهما، فشنو، سيفا».

الثالث:

دور الشرك والوثنية، حيث اتسع نفوذ الكهنة فأنشأوا الامتيازات والاختصاصات ووضعوا نظام الطبقات، وزعموا أنهم يتفردون بمعرفة الحقائق العلوية، وستروا الحقائق عن الشعب فجنح إلى الشرك وتعدد الآلهة، وانحدر إلى عبادة الأشخاص والتمائيل والحيوانات^(٢).

ولعل الأدوار الثلاثة ارتبطت بعقيدة التثليث في الديانة الهندية البرهمنية، حيث كانت الديانة في دورها الأول قاصرة على عبادة إله واحد «تحت إرشاد بعض العباد والحكماء المخلصين، يعبدون القيوم، ويسبحونه دون البحث عن كيفية وجوده أو ماهية جوهره»^(٣).

أما الدور الثاني فقد ظهر فيه الكهنة وأنشأوا الطقوس، وأحدثوا عقيدة الثالث

(١) السيد محمود أبو الفيض المنوفي: الدين والفلسفة والعلم ص ٤٦، ٤٩.

(٢) صيد الخاطر ص ٣٧٧.

(٣) المرجع نفسه ص ٤٦.

الهندي البرهمي: برهما الإله الخالق، وفشنو الإله الحامي للخلقية وسائسها المعمر وسيفا القوة التي تلاشى أو المفني المعيد^(١).

وكان الدور الثالث معبراً عن سيطرة الكهنة وتعميق نفوذهم على الشعب لإبقائه على حال من الجهل والغفلة ليتوصلوا إلى تسلم زمامه والاستعلاء عليه حيث وضعوا أنفسهم في المرتبة العليا من السلم الاجتماعي الطبقي، وجعلوا باقي الطبقات دونهم كما يلي:

- طبقة الكهنة والعلماء:

- رجال الحرب وحماة الأوطان.

- الزراعة والتجار.

- أرباب الحرف والمهن الدنيئة وهم المنبوذون^(٢).

ونعود فنرى في دور الكهنة -كما بينا من قبل- أحد الأسباب الرئيسية في مسخ العقائد وتغييرها، والانحراف بالبشرية من عبادة الواحد الأحد إلى تأليه الكهنة والوسطاء، ويعبر عن ذلك الاعتقاد بأن برهما حل في «البرهمانات» وهو رئيس الكهنة^(٣) ونلاحظ أنه لا مكان للنبوة في عقائدهم، فما سببه؟

نفي النبوات:

ومما يلفت نظر الباحث أن المصادر الحديثة لم تشر إلى أحد المعالم البارزة في عقيدة البراهمة، وهي إنكارهم للنبوات، حيث عرف مؤرخونا -ومنهم الشهرستاني- أبرز عقائدهم، وشرحها بشيء من التفصيل مع اهتمامه -بصفة خاصة- بإنكارهم للنبوات، والرد عليهم^(٤).

(١) المرجع نفسه ص ٤٧- وهناك رأي لباحثين آخرين يتلخص في القول بأن هذه الديانة تعبر عن عقائد الآريين، ثم تأثرت بعد احتلالهم للهند بفلسفات وأفكار نشأت في الهند، ثم أصبحت الهندوسية بعيدة عن العقائد الآرية الأصلية (ص ٤٠ أديان الهند الكبرى للدكتور أحمد شلبي).

(٢) المرجع نفسه ص ٤٩.

(٣) المرجع نفسه ص ١٠١.

(٤) يرى الدكتور محمود حمية أن الشهرستاني قد أخطأ في نسبة إنكار النبوة إلى البراهمة، كغيره من المؤرخين كالباقلائي والبغداددي ص ٢٢٧.

يقول الشهرستاني «من الناس من يظن أنهم سموا براهمة؛ لانتسابهم إلى إبراهيم عليه السلام، وذلك خطأ، فإن هؤلاء هم المخصوصون بنفي النبوات أصلاً، فكيف يقولون بإبراهيم عليه السلام؟» ثم يذكر أنهم انتسبوا إلى رجل منهم يقال له «براهم» الذي مهد لهم نفي النبوات مقررًا استحالة ذلك بوجهه، ويمضي فيبين لنا أهم هذه الوجوه، وتلخص في الآتي:

أولاً:

أن الذي يأتي به الرسول لم يخل من أحد أمرين: إما أن يكون معقولاً، وإما أن لا يكون معقولاً. فإن كان معقولاً فقد كفانا العقل التام بإدراكه والوصول إليه، فلا حاجة إلى رسول. وإن لم يكن معقولاً فلا يكون مقبولاً.

ثانياً:

دل العقل على أن الله -تعالى- حكيم، والحكيم لا يتعبده الخلق إلا بما تدل عليه عقولهم، فننظر في آيات خلقه بعقولنا، ونشكره بآلائه علينا، وإذا عرفناه وشكرنا له استوجبنا ثوابه، وإذا أنكرناه وكفرنا به استوجبنا عقابه، فما لنا نتبع بشراً مثلنا يأكل مما نأكل ويشرب مما نشرب؟^(١).

وكان الشهرستاني بارعاً في الرد عليهم إذا اتخذ من إقرارهم بحكمة الله -تعالى- مدخلاً لإثبات ضرورة النبوة، وحاجة البشرية إلى الرسل والأنبياء؛ لأنه تعالى كما أنه حكيم، فإنه أمر ناه، حكم على خلقه، ولا يحيط العقل بمفرده بالحكم والأسباب والعلل ويستطرد فيقول: «وليس كل عقل إنساني على استعداد ما يعقل عنه أمره ولا كل نفس بشرية بمثابة من قبل عنه الحكمة، بل أوجبت منته ترتيباً في العقول والنفوس، واقتضت قسمته أن يرفع **بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَيْكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**»، [الزخرف: ٣٢]، فرحمة الله الكبرى هي النبوة والرسالة،

وربما قصد الشهرستاني لإحدى طوائف البراهمة، وهي ليست وحدها، بل يشاركها في نكران النبوة طوائف أخرى، كالصائبة والذهرية والسمنية ص ٢٢٩ / ٢٣٠ من كتابه (ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان) ط. دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣ م. وعلى أية حال، فقد اهتم علماء أهل السنة بقضية النبوة واحتلت مكانتها بكتب العقائد.

(١) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٥١: ٢٥٢ - تحقيق سيد الكيلاني - ط. الحلبي ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م.

وذلك خير مما يجمعون بعقولهم المختالة»^(١).

وقد احتلت قضية النبوة مكانتها في كتب العقائد، واهتم أهل السنة والجماعة بشرحها وبيان تفاصيلها للرد على المخالفين حتى من المسلمين أنفسهم، كالمعتزلة القائلين بوجوب إرسال الأنبياء والرسل على الله -تعالى- بالنظر إلى ذاته حيث يقول السفاريني: «والحق أنه جائز عقلاً في حقه -تعالى- واجب سمعاً وشرعاً»^(٢)، ثم يبين أن إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وشرع الشرائع منه من الله تعالى وفضل لا واجب عليه ذلك، وإنما هو على سبيل اللطف بالخلق، والفضل عليهم فبعثه -تعالى- جميع الرسل من آدم إلى محمد ﷺ أجمعين إلى المكلفين لطف من الله بهم ليلغوهم عنه -سبحانه- أمره ونهيه ووعدته ووعدته، ويبينوا لهم عنه -سبحانه- ما يحتاجون إليه من أمور المعاش والمعاد^(٣).

ويمضي السفاريني فيشرح دور الرسل كوسائط بين الله تعالى، وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، إذ أرشدوهم إلى توحيده -تعالى- وإثبات صفاته وإثبات القدر، وذكر أيام الله -تعالى- في أوليائه وأعدائه وهي القصص التي قصها على العباد، والأمثال التي ضربها لهم، وأرشدوهم إلى العلم بتفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله ويكرهه، وكذلك بينوا لهم وجوب الإيمان باليوم الآخر والجنة والنار والثواب والعقاب، وكل ذلك لا يهتدي

(١) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٥٢.

(٢) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية (شرح الدرر المضية في عقيدة الفرق المراضية للسفاريني ج ٢ ص ٢٥٦).

(٣) المرجع نفسه ص ٢٥٩. ويقول ابن تيمية: (وكم يقول العلم بالنبوة لا يحصل إلا بعد النظر، وأنا لا أنظر، أو لا أعلم وجود النظر حتى أنظر) ومن جواب هؤلاء أن حجة الله برسله قامت بالتمكن من العلم. فليس من شرط حجة الله -تعالى- علم المدعوين بها. ولهذا لم يكن إعراض الكفار عن استماع القرآن وتدبره مانعاً من قيام حجة الله -تعالى- عليهم. وكذلك إعراضهم عن استماع المنقول عن الأنبياء وقراءة الآثار الماثورة لا يمنع الحجة. إذ المكنة حاصلة. فلذلك قال الله -تعالى-: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِشْرَةٌ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧] الرد على المنطقيين ص ٩٩ -المكتبة الإمدادية- مكة المكرمة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.

العقل إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها.

كذلك استند إلى رأي ابن تيمية في حديثه عن المفاضلة بين العقل والشرع، إذ ليس المراد بالشرع التمييز بين النافع والضار، فإن الحيوانات تفعل ذلك؛ بل التمييز بين الأفعال التي تنفع الإنسان في معاشه ومعاده، كنفع التوحيد والعدل والبر والصدق والإحسان والأمانة والعفة والشجاعة والعلم والصبر وأداء الحقوق وإخلاص العمل والتوكل على الله، والاستعانة به والرضا بمواقع أقداره والتسليم لحكمه، وتصديق رسله في كل ما أخبروا به، ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل المنافع والمضار، بل إنه لا بقاء لأهل الأرض إلا بدوام آثار الرسالة موجودة فيهم، فإذا درست آثار الرسل من الأرض، وانمحت معالم هداهم، خرب الله العالم العلوي والسفلي وأقام القيامة^(١).

وعلى أية حال، فإن علماء الإسلام كانوا محقين تمامًا في الإفاضة بشرح دور الرسل والأنبياء؛ لأن من العلامات البارزة في الإسلام الإيمان بالرسل جميعًا وخاتمهم محمد ﷺ. ويزداد تقديرنا لاهتمامهم بقضية النبوة إذا علمنا أنه إزاء إنكار النبوات، ظهرت دعوة أخرى لا تقل خطورة في آثارها، وهي إنكار ختم النبوة وظهور أنبياء كذبة.

أما باقي عناصر الديانة البرهمية «أو الهندوسية»، فإنها تحتوي على خرافات وأساطير وعبادة الحيوانات -وعلى رأسها البقرة التي تحتل عبادتها المكانة المرموقة في عقيدة الهنادك حتى الآن- كما سنرى ذلك على لسان غاندي زعيمهم المعروف، بالإضافة إلى الاعتقاد بتناسخ الأرواح والقول بوحدة الوجود، وقبل الخوض في هذه الموضوعات نعرّف -أولاً- بأقدم كتبهم وهي الفيدا».

الفيدا: veda أو الويدا:

يوصف بأنه أهم كتبهم، ولا يعرف تاريخ كتابتها على وجه الدقة، إذ كانت موجودة قبل خمسة عشر قرناً، وهي مجموعة أشعار يزعمون أن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها^(٢).

(١) نفسه (باختصار) ص ٢٦٠: ٢٦٢.

(٢) الإمام أبو زهرة: الديانات القديمة ص ٥١.

والفيدا أربعة كتب:

(١) الرجفيدا Rig Veda وهو أشهرها وأشدّها سحرًا للهنود وتأثيرًا فيهم وتحتوي على أناشيد مختلفة، منها ما يتصل بأناشيد تناول شراب «سوما» المقدس عند الهنود، خاصة بأساطير وحكايات خرافية.

وتذكر الرجفيدا آلهة كثيرات، منها الشمس والقمر والنجوم والسماء والأرض والشجر والمطر والرياح والنور والحيوان.. الخ «وكل هذه الآلهة التي لا تحصى لكثرتها إنما هي في حقيقتها إله واحد، تعددت مظاهره فسمي كل مظهر إلهًا»^(١). وتكمن في هذه الفكرة عقيدة وحدة الوجود.

(٢) ياجورودا Yaiur Veda وتشمل العبارات الثرية التي يتلوها الرهبان عند تقديم القرابين.

(٣) ساما ويدا Sama Veda وتشمل الأغاني التي ينشدونها المنشدون أثناء إقامة الصلوات وتلاوة الأدعية.

(٤) آثار ويدا Athar Veda وتشمل مقالات في السحر والرقى.^(٢)

وقد طفحت كتب الفيديا بالأساطير والخرافات. ويصف لنا أحد الهنود المسلمين الذي خاض تجربة البحث عن الحق واهتدى إلى الإسلام فيقول: «لم أجد فيه إلا أساطير الأولين عن عبادة النار والبحر والأحجار وغيرها من الجمادات والبهايم التي لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا، فكيف بغيرها؟ كما يعلل خلق الكون فيها أحيانا بصورة شنيعة قبيحة تنبعث منها رائحة منتنة يفر منها الإنسان اللبيب»^(٣).

ومن النماذج المنفرة والمنافية للعقول السليمة، ما أورده بوصفه جزءاً من الباب الأول لكتاب يعتبر المصدر الأساسي لقانون الهندوكيين الذي يبحث في الخلق ونصه: «إن هذه الدنيا كانت غامضة لا توجد لها علاقة ولا وسيلة وليس في مقدرة أحد أن يتوصل

(١) أحمد عبد الغفور: الديانات والعقائد ص ٨٨ : ٨٩.

(٢) د/ أحمد شليبي- أديان الهند الكبرى ص ٤٢ : ٤٣.

(٣) عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا ج ٢ ص ١١٥ - دار القلم - الكويت ١٣٩٣ هـ -

إليها بالحجج والبراهين، ثم ظهر «بيرميشور» إله الآلهة بمادة التكوين وأراد أن يخلق خلقاً من ذاته، فخلق الماء وألقى فيه نقطة، فصارت هذه النقطة بيضة فخرج منها «برهما» الخالق وكسر البيضة نصفين، فخلق من أحدها الجنة ومن الثاني الأرض والسموات وما بينهما والجهات الثمان والبحور الهادئة، ثم أخرج من فمه «براهمن» ومن عضده كهتري ومن فخذه «ویش» ومن رجله «شودرا»، فما دام براهما مستيقظاً فالدنيا باقية، وإذا أخذه النوم تقوم القيامة»^(١).

عبادة الحيوانات - وبخاصة البقرة:

يصف غوستاف لوبون عبادة الهنود للحيوانات والجمادات والإنسان بقوله: «وهيئات أن تجد هندوسيا لا يعبد عدداً من الآلهة، فالعالم عنده زاهر بها حتى إنه يصلي للنمر الذي يفترس أنعامه، ولجسر الخط الحديدي الذي يصنعه الأوروبي، وللأوربي نفسه عند الاقتضاء»^(٢).

ويرى الأستاذ عباس العقاد أن عبادة الهنود للحيوانات نشأت عن الفكر الطوطمي، أو عن اعتقادهم بأن الله يتجلى في بعض الأحياء فيحل فيهم يحتمل حلوله في هذا الحيوان أو ذاك؛ أو لأنهم آمنوا بالتناسخ فجاز عندهم أن يكون الحيوان جداً قديماً أو صديقاً عائداً إلى الحياة^(٣).

وتحتل عبادة البقر بصفة خاصة مكانة بارزة بين المعبودات، كما يأتي الحديث عنها وعن قدسيتها، والصلاة لها في كتاب «الفيدا».

وقد أورد الدكتور أحمد شلبي نصوصاً هامة تعبر عن مدى التقديس الذي يكنه الهنود للبقرة في أنفسهم. منها نص الصلاة إلى البقرة كالآتي:

«أيتها البقرة المقدسة، لك التمجيد والدعاء، في كل مظهر تظهرين به أنت تدرين اللبن في الفجر وعند الغسق، أو عجلاً صغيراً، أو ثوراً كبيراً فلنعد لك مكائاً واسعاً نظيفاً

(١) المرجع نفسه ص ١١٧.

(٢) غوستاف لوبون: حضارة الهند ص ٣٦٨ نقلاً عن أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ٢٨.

(٣) الأستاذ عباس العقاد: الله ص ٧٧ نقلاً عن د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ٢٩.

يليق بك، وماء نقيًا تشربينه، لعلك تعمين بيننا بالسعادة»^(١).

ويقول الأستاذ أنيس منصور^(٢):

أما الثور فعلى الرغم من أن أمه بقرة وجدته بقرة، وابنته بقرة أيضًا، إلا أنه ليس محترمًا، وتطبق عليه أقصى أنواع القوانين والعقوبات فهو منبوذ- وفي الهند فئة من المنبوذين عددها حوالي ٦٠ مليون نسمة- ولا أعرف بالضبط عدد الثيران ولكن هذا الحيوان المنبوذ يجزى العربات ويحرث الأرض ويضربه الفلاحون، واليد التي تضربه هي نفس اليد التي ترتفع بالتحية لأمه أو لجدته أو حفيده.

ثم يأتي المهاتما غاندي^(٣) فيخاطب البقرة ويناديها باسم «أمي البقرة» فيقول: إن حماية البقرة التي فرضتها الهندوسية هي هدية الهند للعالم، هي إحساس رباط الأخوة بين الإنسان، وبين الحيوان، والفكر الهندي يعتقد أن البقرة أم للإنسان وهي كذلك في الحقيقة، إن البقرة خير رفيق للمواطن الهندي، وهي خير حماية للهند.

عندما أرى البقرة لا أعدني أرى حيوانًا، لأني أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع.

وأمي البقرة تفضل أمي الحقيقية من عدة وجوه، فالأم الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين وتطلب منا خدمات طول العمر نظير هذا، ولكن أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائمًا، ولا تطلب منا شيئًا مقابل ذلك سوى الطعام العادي.

وعندما تمرض الأم الحقيقية تكلفنا نفقات باهظة، ولكن عندما تمرض أمنا البقرة فلا نخسر لها شيئًا ذا بال، وعندما تموت الأم الحقيقية تتكلف جنازتها مبالغ طائلة وعندما تموت أمنا البقرة تعود علينا بالنفع كما كانت تفعل وهي حية؛ لأننا ننتفع بكل جزء من جسمها حتى العظم والجلد والقرون.

أنا لا أقول هذا لأقلل من قيمة الأم؛ ولكن لأبين السبب الذي دعاني لعبادة

(١) د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ٣٠.

(٢) أنيس منصور، حول العالم في ٢٠٠ يوم -ص ٤٥- المكتب المصري الحديث -١٩٨٨ م الطبعة الأولى ١٩٦٣ م.

(٣) المهاتما= الروح الكبير، ويعني بذلك المفكر العظيم أو الشيخ المبجل.

البقرة. إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال، وأنا أعد نفسي واحداً من هؤلاء الملايين^(١).

ولكن تلميذه «نهر» اعترض على سجن الناس لأنفسهم طويلاً في طقوس وتعاليم أكلت صحتها ووقتها وطاقاتها على العمل، وانشغالهم كثيراً فيما يجب أن يأكلوه وأن يشربوه، وعن هذا الذي يسمحون له بأن يكون قريباً يلمسونه أو لا يلمسونه وانشغلوا بالطبقات والطوائف أيها أشرف وأيها أقبح، وتوجه نهر إلى مواطنيه بالخطاب: «اتجهوا إلى العالم بنفس حماسكم للدين، إنه وحده يخلصكم من ظلام عشرات القرون»^(٢).

أما الشاعر الحكيم محمد إقبال، فله موقف آخر يعد دليلاً على تهافت الاحتجاج بتقليد الآباء والخضوع لسنن المجتمع الباطلة ما دامت لا تقوى على الصمود أمام النظر العقلي الباحث عن الحق. فمن المعروف إن إقبال نشأ وسط الأوثان وعبادة البقرة، ولكنه رفض اعتناق عقائد هذا المجتمع، واختار لنفسه الطريق السوي، ولهذا فهو حجة أيضاً أمام المتعللين بظروف البيئة والعصر الذين جعلوا لهما قوة أكثر فاعلية من إرادة الإنسان!

قال محمد إقبال: «إننا وإن ولدنا في بلاد عريقة في الوثنية إلا أننا رفضنا نعبث الثور والبقرة، وأبينا أن نطأ رءوسنا أمام الكهان، فلم نخر بين يدي الآلهة القديمة، ولم نطف حول بلاط الملوك وقصور الأمراء»^(٣).

نستنتج من هذا أن الاختيار ما زال قائماً أمام الإنسان الذي يستطيع بمحض إرادته وبموجب اختياره، إما أن يحترم كيانه ويعرف دوره وهدفه، ويؤكد عزته وكرامته كإنسان ينبغي ألا يخضع إلا لربه - عز وجل، ولا يعبد سواه، أو يغفل عن ذلك كله فيخضع بإرادته لحيوان أبكم، أو صنم أصم، وعندئذ ينطبق عليه وصف الله تعالى: «أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» [الفرقان: ٤٤].

وقوله عز وجل: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا

(١) المرجع نفسه ص ٣٢: ٣٣.

(٢) ديانات أخرى، أنيس منصور ص ١٩ ط دار الشروق ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨.

(٣) من روائع إقبال: للندي.

يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُتَصَرُّونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩].

التناسخ:

تقوم عقيدة التناسخ -أو تكرار الولادة والوفاة أو تجوال الروح- على أساس فكرة العقاب للذين لم يستطيعوا أن يندمجوا في «الكل» الذي هو الإله في العقيدة البرهمية لارتباطها بتصور أن الوجود واحد، فإذا ما مات الإنسان الشرير لا تنتقل روحه إلى إنسان آخر «بل يجوز أن تحل في كلب أو شجرة، وما يزال تكرار الوفاة فالولادة إلى أبد الآبدين، إذا لم تستطع أن تتجرد من الشهوات تجردًا تامًا يصعد بها إلى حيث يمكنها الاتحاد مع الكل، فإذا استطاعت الروح التخلص من إसार الشر فإنها ستندمج في الكل لتنعم بالاتحاد معه، وهذا الاتحاد تنجو من العذاب الذي يتجلى في الولادة الجديدة المتكررة»^(١).

ونستخلص من هذا تحول دار الدنيا عند البراهمة من دار ابتلاء واختبار والآخرة دار حساب وجزاء، إلى اعتبار الأرض دار جزاء وثواب^(٢).

وترجع فكرة التناسخ إلى نظر البراهمة للنفس كجوهر «خالد صاف عالم مدرك تمام العلم والإدراك ما دام منفصلاً عن الجسد، فإذا فاض على الجسد واتصل به اعتكر صفائه ونقص علمه»^(٣).

ويوضح لنا النص الذي نقله العلامة البيروني في هذه الفكرة توضيحاً تاماً على لسان قول باسريو لارجن يحرضه على القتال: «إن كنت بالقضاء السابق مؤمناً فاعلم أنهم ليسوا ولا نحن بموتى ولا ذاهبين ذهاباً لا رجوع معه، فإن الأرواح غير مائة ولا متغيرة، وإنما تتردد في الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة، ثم الشيخوخة التي عقباها موت البدن، ثم العود له».

كذلك يصف له النفس بأنها «أبدية الوجود، ولا عن ولادة، ولا إلى تلف وعدم، بل هي ثابتة قائمة لا سيف يقطعها، ولا نار تحرقها، ولا ماء يغرقها ولا ريح توبسها،

(١) الديانات والعقائد في مختلف العصور، أحمد عبد الغفور العطار ص ١٠٣.

(٢) أديان الهند الكبرى: د/ أحمد شلبي- ص ٦٥.

(٣) الإمام محمد أبو زهرة ص ٤٣: الديانات القديمة -ط. دار الفكر العربي ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م.

ولكنها تنتقل من بدن نحو آخر كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق، فما عملك لنفس لا تبید؟^(١)، وهو بذلك يحرضه على القتال بشجاعة بلا خشية من الموت والقتل ما دامت النفس أبدية الوجود.

وانبثقت من عقيدة التناسخ أيضاً مجاهدة الهندوسي لنفسه والسعي نحو إلغاء إرادته ورغبات نفسه، أو باصطلاحهم «الفناء» في الكل.

وقد وردت العبارة الآتية عنهم «من لم يرغب في شيء ولن يرغب، وتحرر من رق الأهواء، واطمأنت نفسه في نفسه، فإنه لا يعاد إلى حواسه، ويتحد بالبرهما فيصير هو، ويصبح الفاني باقياً»^(٢).

وقد انتقلت الفكرة إلى بعض صوفية المسلمين حيث كانوا يسعون إلى إماتة شهواتهم، وإعدام رغباتهم في سبيل الفناء في الله -تعالى- وهو ما لا سبيل للوصول إليه، ولهذا لقوا معارضة قوية من علماء السنة^(٣).

(١) ما للهندي من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة للبيروني، نقلا عن المصدر السابق، نقلا عن صفحة رقم ٤٤.

(٢) د/ أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ٦٦.

(٣) ينظر كتابنا ابن تيمية والتصوف -ط. دار الدعوة بالإسكندرية.

أما الفناء الصحيح في رأيه فهو يتمثل في تحقيق شهادة لا إله إلا الله ويقول ابن تيمية لشرح (الفناء) المحدود عند العارفين أنه تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله. فلا تشهد لمخلوق شيئاً من الإلهية، فيشهد أنه لا خالق غيره ويشهد أنه لا يستحق العبادة غيره، ويتحقق بحقيقة قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وإلا فإذا شهدت أنه المستحق للعبادة مع رؤيتك نفسك لم تشهد حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وإذا شهدت حقيقة أنه الفاعل لكل شيء ولم تشهد أنه المستحق للعبادة دون ما سواه وأن عبادته إنما تكون بطاعة رسوله ﷺ، لم تشهد حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وإذا تحققت بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تحققت بالفناء في التوحيد الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كيبه قال الله -تعالى: ﴿وَإِذْ ذَكَرْنا اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَيَّنْا إِلَيْهِ تَبَيَّنْا رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨، ٩] وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠] الرد على المنطقيين ص ٥٢١.

وحدة الوجود:

ومن تصور التناسخ أو ولادة الأرواح تتضح عقيدة وحدة الوجود، لأن العقيدة البرهنية تنطوي على الظن بأن الكائنات تعود كلها في نهاية مطافها إلى المصدر الأول الذي نشأت عنه وهو الله «والإنسان أحد هذه الكائنات فيعرض له ما يعرض لها، وروحه قطرة من نور الله، انفصلت عن الله إلى أجل محدود، واتصلت به، ثم تتصل بعده بكائن آخر وآخر وهكذا على طريق التناسخ، وتجوّل الأرواح، ثم تعود في النهاية إلى الله متى جاء الأجل» وهي تشبه دورة قطرة الماء في دورتها من صعودها بخاراً من البحر إلى انتقالها وتحولها من الثلج أو البرد وجريانها في الأنهار ثم رجوعها أخيراً إلى البحر الذي انفصلت عنه (١).

إن هذه الفكرة تقوض الإيمان بالله من أساسها، وهي -كما يصفها الشيخ الغزالي- عنوان آخر للإلحاد في وجود الله أو تعبير ملتو للقول بوجود المادة فقط، وما دام لا يوجد شيء وراء هذا العالم، فالقول بأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بنكرانه.

ولو كانت الأرض لؤلؤاً ومرجئاً، ما صح أن تكون «ذات الله». إن الصاروخ شيء غير الإنسان الذي أطلقه، وكذلك فالعالم شيء غير الرب الذي أبدعه وسيره» (٢).

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٢، ٦٣]..

وبنفس الدرجة من الاهتمام لتوضيح هذا المعتقد وقف علماءنا على امتداد تاريخنا للدفاع عن عقيدة التوحيد، وإفراد الله -تعالى- بالعبادة، حيث يعتبر فهمها على وجهها الصحيح بمثابة الحصن الذي لاذ به المسلمون لصد أي غزو ديني من خارج الإسلام للانحراف بعقيدته أو شريعته عما نزل به الوحي.

وفي ضوء دراسة الأديان بمنهج مقارن، نرى الإسلام وحده متميزاً بهذه الحصانة التي صد بها كل المحاولات الخبيثة الملتوية لتشويهه أو خلطه بتصورات أخرى منذ محاولة عبد الله بن سبأ ومن تبعه، ممن انحرفوا بالعقيدة، كنفي الصفات الإلهية بواسطة جهنم بن

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام للدكتور عبد الواحد وافي ص ١٦٥ : ١٦٦.

(٢) تأصيل اليقظة وترشيد الصحوه -أنور الجندي ص ٨٨- دار الاعتصام ١٩٨٧ م.

صفوان، والحلول عند الحلاج، ووحدة الوجود عند ابن عربي والفيض أو الصدور عند ابن سينا.

وتوالى قافلة العلماء المحددين الذين تنبها إلى مظاهر الزيغ في العقيدة التي تنحرف بها من التوحيد إلى الشرك أو تخلط بين مشاركة الله - تعالى - وغيره في الألوهية. وكان قد حدث في تاريخ الإسلام موقف مشابه، عندما تسلت إلى بعض المسلمين من الجهمية «أتباع الجهم بن صفوان» فكرة أن الله - تعالى - «هو في كل مكان، وليس هو في مكان، ولا يختص بشيء». يجمعون دائماً بين القولين المتناقضين، لأنهم يريدون إثبات موجود، وليس عندهم شيء فوق العالم فيتعين أن يكون هو العالم، أو يكون فيه، ثم يريدون إثبات شيء غير المخلوق فيقولون: ليس هو في العالم، كما ليس خارجاً عنه»^(١).

وهناك تصدى لهم الأئمة، أمثال مقاتل بن حيان وسفيان الثوري والإمام أحمد بن حنبل، مبينين التصور الصحيح للعقيدة الإسلامية، شارحين ما اختلط عليهم في فهم الآيات القرآنية التي تؤيدها الأدلة العقلية أيضاً: قال سفيان الثوري عن قوله - تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] قال: علمه. وقيل لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: الله - عز وجل - فوق السماء السابعة على عرشه، من خلقه وقدرته وعلمه وفي كل مكان؟ قال نعم: نعم على العرش «وعلمه» لا يخلو منه مكان»^(٢).

ومن هؤلاء الأئمة أيضاً ابن تيمية الذي أزعجته هذه المظاهر، حيث تسلت إلى المسلمين من خلال التصوف فكرة وحدة الوجود عن طريق ابن عربي «٦٣٨هـ» الذي جوز هو وأتباعه عبادة كل شيء، وكأنهم ما عبدوا إلا الله لأن المذهب يدور حول أن الوجود واحد.

يقول ابن عربي:

وقد كنت قبل اليوم أكره صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني

(١) نقض المنطق، ابن تيمية ص ٥٠: ٥١ تصحيح محمد حامد الفقي - مكتبة السنة احمديّة بالقاهرة.
(٢) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة. للالكائي ج ٣ ص ٤٠١: ٤٠٢ - تحقيق د/ أحمد سعد حمدان - دار طيبة للنشر والتوزيع بالرياض.

فأصبح قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف وقرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه، فالحب ديني وإيماني^(١).

ويقول أيضاً: «فإن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء»^(٢).

ولقد عورضت فكرة وحدة الوجود بسبب انعكاساتها على العقيدة والأخلاق؛ لأنه وفق هذه النظرة تصبح عبادة قوم موسى للعجل هي عبادة لله أيضاً، وتساوي بين عبادة الأصنام وعبادة الله -تعالى- كما أدت هذه العقيدة الباطلة إلى تفسيرات مناقضة تماماً للتوحيد الإسلامي، ومعاني الآيات القرآنية الجليلة الواضحة. ومثال ذلك: رأي ابن عربي المخالف لصريح الآية القرآنية، حيث يصف موسى عليه السلام بأنه كان قرة عين لفرعون الذي آمن عند الغرق «فقبضه طاهراً مطهراً، ليس فيه شيء من الخبث؛ لأنه قبضه عند إيمانه قبل أن يكتسب شيئاً من الآثام»^(٣).

وعندئذ يعلق ابن تيمية، إذ يرى أن «قوله لم يسبق إليه فما أعلم أحد من أهل القبلة؛ لأن النص القرآني صريح في فسق فرعون، وكونه من المكذبين لموسى، الظالمين الداعين إلى النار»^(٤).

ويأتي تلميذه ابن القيم ليؤكد عقيدة التوحيد الإسلامية، ومن مقتضياتها التنزيه في أدق صوره وأرقاها، لأن الإسلام جاء ليصحح العقائد الباطلة كافة ويعيد بني آدم إلى الصراط المستقيم في العقائد والعبادات والشرائع. يقول ابن القيم: «وأنت إذا تدبرت القرآن وأجرته من التحريف وأن تقضى عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلمين، أشهدك ملكاً قيوماً فوق سمواته على عرشه يدبر أمر عباده، يأمر وينهى ويرسل الرسل وينزل

(١) ابن عربي: ترجمان الأشواق ص ٤٣: ٤٤.

(٢) فصوص الحكم ص ١٩٢.

(٣) فصوص الحكم ص ٢٠١.

(٤) محيي الدين بن عربي وغلاة التصوف، لعباس الغراوي ص ١٤٢- من الكتاب التذكري (محيي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده).

الكتب، ويرضى ويغضب ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، يرى من فوق سبع، ويسمع ويعلم السر والعلانية، فعال لما يريد، موصوف بكل كمال، منزه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع»^(١).

أما أثر وحدة الوجود في مجال الأخلاق، والسلوك الإنساني، فإنها تؤدي إلى جبرية صارمة وتعطيل للإرادة، وتوقف التفكير، وامتناع التفرقة بين الخير والشر، والتمييز بين الثواب والعقاب، وسقوط قيمة الإلزام الخلقي، وزوال المسؤولية الأخلاقية بإسقاط ركنيها: العقل وحرية الاختيار^(٢).

أما ديانة السيخ «وهي متفرعة من الهندوكية» فتنسب إلى رجل هندي اسمه «ناناك» ولد بولاية بنجاب سنة ١٤٦٩ م وتأثر بالإسلام وأعجب ببساطته وسماحته، وأن الله واحد وأنه هو الأول والآخر، وإن ظل على اعتقاد الهنادكة بوحدة الوجود.

كما ظل متأثراً بالهندوكية لإنكاره البعث واعتقاده بالتناسخ، مع اختلافه مع الهنادكة، في قولهم بالفناء، مفضلاً كلمة الاتحاد بالله، متصوراً أن الروح لا تفنى فيه ولكن تبقى ذات وجود متميز.

كذلك أحل الصفاء محل «النرفانا- أي: انعدام الرغبة»، وصفاء الإنسان عنده يعني العجز عن الشر، إذ بعد اجتيازه لأنواع من الرياضات النفسية يصبح الصفاء هو منتهى الإيجابية في تحقيق الخير! ويقدر عدد السيخ في البنجاب وفي الهند بما لا يزيد على عشرة ملايين، وهم منتشرون في أوروبا وأمريكا^(٣).

(١) الفوائد - ص ٦٥ - الناشر: زكريا إبراهيم - مطبعة العاصمة بالقاهرة - بدون تاريخ.

(٢) فتاوى ابن تيمية - ط. الرياض ج ٢ ، ص ٢٧٩ (توحيد الربوبية).

(٣) من كتاب ديانات أخرى، أنيس منصور ص ٨٤، ٨٥، ٨٩.

أوجه الشبه بين عقائد الهند والنصرانية

يمكن القول بأن هناك أوجه للشبه بين عقيدة النصارى، وعقائد البراهمة، وربما كان المسئول عنها بولس، الذي اقتبس «اتجاهات التثليث وصلب المسيح ابن الله تكفيراً عن خطيئة البشر»^(١) وغير ذلك من الملامح البارزة لعقيدة النصارى.

وهذا ما يدفعنا إلى بيان أوجه الشبه باقتضاب^(٢) بين العقائد الهندوسية والنصرانية، كما توجهنا هذه المناسبة إلى التعرف على أحد معالم الإسلام البارزة في الاحتفاظ بأصوله سليمة، لم تمسها يد بشر مما ترتب عليه سهولة التمييز بين الأصيل والدخيل، بين السنة والبدعة، ومن ثم فضح كل من يحاول الانحراف بعقائد الإسلام أو عباداته أو شرائعه.

ونرى أن ابن تيمية كان محقاً في قوله «إن مثل بولس في النصارى كمثل ابن سبأ في المسلمين»، والقياس مع الفارق كما سيتضح بعد قليل، ولكنه قصد أن كليهما أراد إفساد الدين. وإذا كان نجاح بولس ساحقاً في تغيير العقائد من جذورها، وتحويل النصارى جميعاً إلى وجهة أخرى لم يردّها المسيح ﷺ، بل إنه بريء منها، نرى أثر ابن سبأ لم يتعدّ دائرة الشيعة -أو الغلاة منهم- فقد طلبه على بن أبي طالب، «ﷺ» لقتله وحرّقه بعض أتباعه، فهرب ولم يستطع -بالرغم من نجاحه المحدود -النفوذ إلى القاعدة الصلبة من صفوف المسلمين حينذاك، وهم جميعاً أصحاب الوعي العقائدي المستند إلى القرآن والسنة؛ ولأن نور النبوة الساطع جعل ابن سبأ وأتباعه القليلين يخفون في الظلام كالحفائش.

هذا وقد أورد مورس وليمس صاحب كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية»^(٣) مواضع المطابقة بين أقوال الهنود على لسان كرشن -وهو من أشهر فلاسفتهم «ولد حوالي ٤٨٠ قبل الميلاد»، وبين ما جاء بالأناجيل عن المسيح ﷺ، وذلك في خمسة وأربعين موضعاً، تجتزئ بعضها فيما يلي:

(١) د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ٩٦.

(٢) للاستزادة راجع كتاب (الديانات القديمة) للشيخ محمد أبو زهرة من ص ٣٠ إلى ص ٤٢ الذي اعتمد على كتاب مورس وليمس (العقائد الوثنية في الديانة النصرانية).

(٣) ومقابلة النص الصريح بين كرشن ويسوع المسيح، يقع في الصفحات من ص ١١٩ إلى ص ١٣١ والكتاب نشره وعلق عليه وقدم له محمد بن إبراهيم الشيباني -ط-. مكتبة ابن تيمية.

أقوال الهنود الوثنيين في كرشنه ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين في المسيح ابن الله
كرشنه: هو المخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس، وهو الأب والابن والروح القدس.	يسوع المسيح: هو المخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس، وهو الأب والابن والروح القدس.
قد مجد الملائكة ديفاكى والددة كرشنه ابن الله، وقالوا يحق للكون أن يفاخر بابن هذه الطاهرة.	دخل الملاك على مريم العذراء والددة يسوع المسيح وقال لها سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك.
كان كرشنه من سلالة ملوكانية ولكنه في غار بحال الذل والفقر.	كان يسوع المسيح من سلالة ملوكانية ويدعونه ملك اليهود ولكنه ولد في حالة الذل والفقر بغار.
وسمع حاكم البلاد بولادة كرشنه الطفل الإلهي وطلب قتل الولد وكى يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذكور الذين ولدوا في الليلة التي ولد فيها كرشنه.	وسمع حاكم البلاد بولادة الطفل يسوع الإلهي وطلب قتله، وكى يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذين ولدوا في الليلة التي ولد فيها المسيح.
واسم المدينة التي ولد فيها كرشنه مطرا وفيها عمل الآيات العجبية ولم تزل محل التعظيم والاحترام عند الهنود العابدين للأوثان والقائلين عن كرشنه إنه ابن الله وإنه الله إلى يومنا هذا.	واسم المدينة التي هاجر إليها يسوع المسيح في مصر، لما ترك اليهودية المطرية ويقال إنه عمل فيها آيات عديدة.
وفي أحد الأيام لسعت حية بعض أصحاب كرشنه الذي يلعب معهم فماتوا فأشفق عليهم لموتهم الباكر ونظر إليهم بعين ألوهيته فقاموا سريعاً من الموت وعادوا أحياء.	وبينما كان يسوع يلعب لسعت حية أحد الصبيان الذين كان يلعب معهم فلمس يسوع ذاك الصبي بيده فعاد إلى حال صحته.
وأول الآيات والعجائب التي عملها كرشنه شفاء الأبرص.	وأول الآيات والعجائب التي عملها يسوع المسيح هي شفاء الأبرص.

كرشنة صلب ومات على الصليب.	يسوع صلب ومات على الصليب.
ومات كرشنة ثم قام من بين الأموات.	ومات يسوع ثم قام من بين الأموات.
وصعد كرشنة بجسده إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعداً.	وصعد يسوع إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعداً.
ولسوف يأتي كرشنة في اليوم الأخير ويكون ظهوره كفارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد وأشباه على جواد أشهب وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر والشمس والقمر وتزلزل الأرض وتهتز وتتساقط النجوم من السماء.	ولسوف يأتي يسوع في اليوم الأخير كفارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد أشهب وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر وتزلزل الأرض وتهتز وتتساقط النجوم من السماء.
وهو أي كرشنة يدين الأموات في اليوم الآخر.	ويدين يسوع الأموات في اليوم الآخر.
كرشنة هو برهما العظيم القدوس وظهوره بالناسوت سر من أسرارهِ العجيبة الإلهية.	يسوع هو يهوه العظيم القدوس وظهوره في الناسوت سر من أسرارهِ العظيمة الإلهية.

ولا شك أن هذا التشابه يثير التساؤل:

أهو التقليد والمحاكاة للبيئات والمجتمعات المجاورة؟

أم خضوع للمألوف والمتوارث عن الأجداد الوثنيين مع التبديل والتعديل؟ كل هذا جائز ومحمّل، ونضيف إليه عاملاً آخر نعطيه قدرًا أكبر من الأهمية والفاعلية لأنه ناجم عن أمر صادر من أحد رجال الدين:

جاء في كتاب يسوع المسيح للقس بولس إلياس: «أنه في مفتتح القرن السابع الميلادي كتب البابا غريغوريوس الأول الكبير إلى القديس أوغسطينوس أسقف كنتبري بريطانيا يقول: دع البريطانيين وعاداتهم وأبق لهم أعيادهم الوثنية واكتف بتنصير تلك الأعياد والعوائد واضعاً إله المسيحيين موضع آلهة الوثنيين»^(١).

ويلحق الشيخ أبو زهرة على هذه المقارنات بقوله: «وإذا كانت البرهمية أسبق من

(١) ملكوت الله: عبد المجيد الجندي ص ١٧٣ نقلاً عن: المسيح الدجال - سعيد أيوب ص ١٥٤ دار

النصرانية المحرفة، فقد علم إذن المشتق والمشتق منه، والأصل وما تفرع عنه، وعلى المسيحيين أن يبحثوا عن أصل دينهم»^(١).

وإذا قال قائل بأن الاعتقاد بالتناسخ قد تسلل إلى بعض المسلمين، فإن ذلك يحتاج إلى شرح وبيان:

أثر الهندوكية لدى بعض المسلمين:

يمكن القول بأن الأثر الملموس الذي تركته الديانة الهندوكية في بعض المسلمين كان في نطاق ضيق محدود، إذ سرعان ما اكتشف بطلانه بسبب وعي علماء الإسلام بدينهم وعقائدهم، وقيامهم بدور التنبيه والتحذير من أية عقائد زائفة تتسرب إلى المسلمين عن طريق احتكاكهم بالأُمم والثقافات والأديان الأخرى.

خذ مثلاً الاعتقاد بالتناسخ، فقد فضحه الأئمة والعلماء، ومنهم الإمام ابن حزم، الذي حصر القائلين به منبهاً إلى بطلانه: قال ابن حزم: «افترق القائلون بتناسخ الأرواح على فرقتين: فذهبت الفرقة الأولى إلى أن الأرواح تنتقل بعد مفارقتها الأجساد إلى أجسام أخرى، وإن لم تكن من نوع الأجساد التي فارقت، وهذا قول أحمد بن حافض، وأحمد بن ناموس تلميذه وأبي مسلم الخراساني، ومحمد بن زكريا الرازي الطبيب الذي صرح بذلك في كتابه المسمى «العلم الإلهي» وهو قول القرامطة. وقال الرازي في بعض كتبه: لولا أنه لا سبيل إلى تخليص الأرواح من الأجساد المتصورة بالصورة البهيمية إلى الأجساد المتصورة بصورة الإنسان إلا بالقتل والذبح لما جاز قتل شيء من الحيوان أو ذبحه البتة»^(٢).

ومما تسرّب إلى بعض فرق الشيعة متصلاً بالتناسخ القول بالرجعة فهي عودة الروح لحياة جديدة ولكنها في الرجعة تعود إلى الجسم، أي أن الشخص نفسه جسماً وروحاً يعود للحياة بعد الموت، وقد قال بعض الإمامية بعودة علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وقال أكثرهم بعودة الإمام الثاني عشر وهو المهدي وسموه «المهدي المنتظر»، وقالوا: إنه سيعود للأرض فيملؤها عدلاً بعد أن ملئت ظلماً.

وعلق ابن حزم على هذا الاتجاه وهو القول بالتناسخ بأنه دعاوى وخرافات بلا

(١) المرجع نفسه ص ٢٩.

(٢) الفصل ج ١ ص ٩٠ نقلاً عن أديان الهند الكبرى للدكتور أحمد شليبي.

دليل^(١).

أما انحراف بعض عامة المسلمين الذين أدخلوا في عقائدهم بعض الاتجاهات الهندوسية، فإن ذلك يخرجهم من الإسلام، مثل: بعض اتجاهات الأحمدية واتجاهات بعض أتباع «معين الدين شسيتي» وهناك وثيقة نشرها الدكتور أحمد شلبي تجعل زيارة ضريح هذا الشيخ تنوب عن الحج إلى بيت الله الحرام، وتقرر أن الطواف حول ما سماه ابن الشيخ «الروضة الشريفة» كالطواف حول الكعبة وتسمى الباب المؤدي لساحة الضريح «باب الجنة»^(٢).

وإذا أخرجنا هؤلاء بسبب هذه العقائد من دائرة الإسلام، فلا صحة إذن لما يراه جوستاف لوبون من تكون حضارة جديدة نشأت من اتصال الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي بالحضارة الهندوسية والفكر الهندوسي، وتبادل التأثير بينهما وأطلق عليها اسم «الحضارة الهندية الإسلامية».

إننا لا نقرّ (لوبون) على رأيه إذ أنه خلط بين الحضارتين، بل دمج بينهما بسبب وجود تشابه عرضي بين بعض عامة^(٣) المسلمين الذين تأثروا ببعض عقائد الهندوس، وبين الآخرين الذين تأثروا بدورهم ببعض عقائد الإسلام وشعائره ووجه القصور في نظرية لوبون وغيره من فلاسفة الغرب أنهم لا يميزون بين الخصائص المميزة للإسلام التي تستند أساساً على عقيدة التوحيد، وبين ما لحق بالمسلمين من آثار ثقافية واجتماعية ظهرت إما بسبب تفشي الجهل بين عامتهم، أو بسبب الغزو الثقافي المتعمد أثناء الغزو العسكري للعالم الإسلامي في العصر الحديث، أضف إلى ذلك أن لوبون وغيره من الفلاسفة الغربيين لا يملكون الحصيلة العلمية الوفيرة عن الإسلام بشعبه كلها، فضلاً عن الوجدان السليم الذي يمكن صاحبه من الفرز بين ما هو إسلامي وما هو غير إسلامي، ومن ثم اختلطت في أذهانهم العقائد والنحل

(١) أديان الهند الكبرى ص ٦٥.

(٢) المرجع نفسه ص ٩٧.

(٣) من ذلك مثلاً أن بعض عامة المسلمين يمارسون تقديس الذخائر المماثلة لتلك التي يعبدوها البوذيون، وحدث مرة ثورة في كشمير لأن شعرة يقدسها المسلمون سُرقت لاعتقادهم أنها من شعرات الرسول ﷺ (ينظر ص ٩٨ وما بعدها من نفس المصدر).

فأدخلوا في دائرة الإسلام أمثال غلام أحمد القادياني وفرق الإسماعيلية والبهاية أو البابية، وعلى حين أن هؤلاء قد خرجوا من دائرة الإسلام ولا ينتمون إلى حضارته، بل إنهم بما أعلنوا من عقائد وما ابتدعوا من نحل يعتبرون معادين للإسلام.

ومن هذه النقطة نميز بين من ينتمون إلى الإسلام بعقيدته الصحيحة، وما يتصل بها من عبادات وشرائع، وبين المخالفين لها أيًا كانت جنسياتهم أو ألوانهم وأوطانهم أوقومياتهم، لننتقل منها إلى تصور عالمية الإسلام.

وخلاصة القول أن دائرة الحضارة الإسلامية تتسع عالمياً فتشمل المسلمين على وجه الأرض ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وبناء على هذا التصور فإن علماء الهند المسلمين المستمسكين بالمنهج الإسلامي الصحيح ينتمون إلى الحضارة الإسلامية الأم، ولا صلة عقائدية تربطهم بالحضارة الهندية، حتى لو ولدوا في الهند وعاشوا وماتوا بها؛ لأن عقيدة التوحيد هي الرابطة التي تربطهم بالأمة الإسلامية، وتفصل بينهم وبين الحضارة الهندية.

وقد سجل التاريخ أسماء الآلاف من علماء الهند جيلاً بعد جيل الذين أسهموا بجهودهم العلمية في المحافظة على الإسلام وعلومه، وقامت المدارس والجامعات بدورها في توعية المسلمين لمواجهة حملات الغزو الغربي، لا سيما في العصر الحديث. وكانت الهند - كما يقرر الشيخ الندوي - في طليعة دول المواجهة الإسلامية، وكان الشعب الإسلامي الهندي أرهف شعوراً دينياً، وأرق وعياً إسلامياً، وأشد غيرة على الإسلام من البلاد الإسلامية الأخرى، مستدلاً على ذلك بمساهماتهم القومية بعد حركة الخلافة، وحرصهم الشديد على التمسك بحضارتهم الإسلامية العريقة وبشعائيرهم الدينية^(١).

والآن، بعد أن استعرضنا هذه الديانة وآثارها وما يدور حولها، يصح التوقف

(١) الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين ص ٢٧ مؤسسة الرسالة ١٤٠٣ هـ /

١٩٨٣ م، ويعد الإمام الندوي الهند من بلاد الإسلام الأربع (أي تركيا ومصر وإيران والهند) التي واجهت منذ منتصف القرن التاسع عشر المسيحية، الحضارة والثقافة والأفكار والفلسفات والمثل الغربية ص ٢٣، نفس المرجع.

للاستفادة من ذلك كله في تعليق نوجزه في المسائل الآتية:

(١) اتخاذ أديان الهند دليلاً واقعياً على التردّي من عقيدة التوحيد إلى عقائد الشرك والوثنية «فالديانة البراهمية كانت في أصلها- على ما يبدو من نصوص أسفارها- ديانة توحيد، مشوبة بعقائد وحدة الوجود وتناسخ الأرواح.. ولكنها تغيرت وحرّفت على مر الأيام، وحلت محلها عقيدة تثليث»^(١).

ومن هنا يتبين أن منهج علماء السنة والجماعة المرتبط بالنصوص الموثقة كان عاصماً من الوقوع في الانحرافات العقائدية التي وقعت فيها الأمم الأخرى.

(٢) المهاوي التي يتردد إليها الإنسان حيث يتسفل إلى عبادة البقر إذا بعد عن عبادة الله الواحد الأحد.

(٣) افتقاد التشريع الإلهي بسبب وقوع المظالم الاجتماعية الصارخة التي نراها في نظام الطبقات في أشنع صورة، بينما نرى العدالة الاجتماعية متحققة في ظل التشريع الإسلامي عندما كان سارياً في دولة الإسلام^(٢).

(٤) الانحراف عن تصور حقيقة الإنسان بوحدته النفسية والجسمية معاً، حيث أدى الغلو في «الروح» إلى إهمال الجسد وتعذيبه بافتعال التقشف والزهد، بل إحراقه بعد الموت.

(٥) تفيدنا دراسة الأديان بمنهج الموازنة في تتبع المؤثرات الوافدة من العقائد الأخرى إلى المسلمين كوحدة الوجود والفناء والتناسخ.

(٦) مسؤولية الأمة الإسلامية لرفع أنواع الظلم الواقعة على المسلمين في الهند

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص ١١ للدكتور عبد الواحد وافي نهضة مصر ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

(٢) وهذا المبدأ ما زال يشع نوره لطالبي الهداية. يقول محمد ضياء الرحمن المهتدي للإسلام- وكان هندوكياً قبل إسلامه:- (من يعتنق الإسلام يصبح فرداً من عشيرة المسلمين لا فرق بينه وبين الذي يولد مسلماً، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] من كتاب رجال ونساء أسلموا/ عرفات كامل العشي الحلقة ٢/.

وغيرها من بلاد جنوب شرق آسيا، حيث يعاني المسلمون هناك ألواناً من الاضطهاد والظلم والاعتداءات على الأنفس والأعراض والأموال لا لسبب إلا لاستمساكهم بالإسلام. يقول محمد ضياء الرحمن المهتدي للإسلام: «وكانت العداوة للإسلام والمسلمين راسخة في قلوبنا نتيجة للاتهامات الكاذبة الشائعة عن ملوك المسلمين على لسان المؤرخين الهنالك» ... «ومهما يكن من أمر معاداة الإسلام كانت من تراث آبائنا»^(١).

(٧) ويبقى من مهمتنا أخيراً إقناع المدافعين عن الوثنية بزعم أنها تعبر في مرحلة ما عن حاجة البشر الفطرية، ثم تعداها إذا ما نضجت البشرية وبلغت سن الرشد، فحينئذ يستغني الإنسان عن «الوثنية» فتصبح التماثيل علامات ورموز، فنقول: إن إقناع أولئك سهل ميسور إذا وضعنا أمامهم الواقع المائل أمام دارسي العقائد والعبادات في الهند وغيرها - والتي ما زال أصحابها يعضون عليها بالنواجذ لأنهم يعكفون عليها بإصرار وبصفة نهائية، حيث يتضح أن المعركة بين التوحيد والوثنية مستمرة، وإن أخذت شكلاً آخر في المجتمعات الغربية التي تعظم التماثيل وتنتهي لها القاعات الخاصة والميادين العامة، وتحفها بمظاهر الإجلال والتقديس الدالة على عقيدة وثنية متغلغلة في النفوس، وليست كما يدعون تعبيراً عن مظهر حضاري، وإلا فما الفرق بين نظرة الهنادكة للتماثيل ونظرة الغربيين لها؟ إنهم يحيطونها بنفس مظاهر التقديس بالوقوف أمامها بخشوع وتارة بانحناء، مع وضع الزهور والرياحين والاحتفال بأعياد أصحابها.

ويصف الإمام أبو الحسن الندوي العصر إجمالاً بقوله: (...) في مكان تعبد الأصنام والأوثان، وفي آخر تعبد العناصر والأجناس والأقوام، وفي أرض تعبد الأهواء والشهوات، وفي أخرى تعبد القوة والسلطة، وفي مكان تعبد الملوك والسلاطين، وفي مكان تعبد الأحرار والرهبان^(٢).

(١) رجال ونساء أسلموا ص ١١٣: ١٤١ الحلقة / ٢ إعداد وترجمة: عرفات كامل العشي - دار القلم / الكويت / ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

(٢) ص ٢١ من كتابه: رسالة سيرة النبي الأمين إلى إنسان القرن العشرين - دار حراء - المحلة الكبرى

ونتابع حديثنا عن نحلة أخرى انسلخت من البرهمية واثارت عليها، وهي البوذية نسبة إلى «بوذا» -لنرى هل استطاع بدوره حل مشكلات الحياة ولغزها كما زعم هو وأتباعه؟ أم أن الإنسان سيظل يتخبط في متاهات الجهل ما دام بعيداً عن الإذعان لوحي الله -تعالى- وشرعه، مصراً على وضع العقائد والأنظمة لنفسه؟.

الفصل الثالث

البوذية

إن الحديث عن البوذية يذكرنا بالطرفين المتقابلين في تصور حقيقة السعادة الإنسانية وكيفية تحقيقها قديماً وحديثاً: أي الفلسفة الأبيقورية قديماً والنفعية حديثاً، فكان أبيقور يعلن: «علينا ألا نتجنب اللذات، بل يجب أن نختارها»^(١).

وتبني نفس الغاية (ستيورات مل) في العصر الحديث مع بعض التعديلات، ويقابلها في الطرف المضاد الفلسفة الرواقية، ورائدها (زينون) الذي تخيل السعادة في الزهد وحياة التقشف وإماتة الرغبة في الحياة الطيبة، وصبغ الحياة بطابع التشاؤم بسبب الاعتقاد بالجبرية، وعبر عنها (شوبنهاور) في العصر الحديث، الذي رأى الكف عن النضال، فلا طائل من وراء أن تناضل الإرادة الفردية، ضد الإرادة الكونية^(٢).

وكلتا النظرتين خاطئتان؛ لأنهما افتقدتا التقويم السليم للإنسان، وعجزتا عن تقديم الإجابات الكافية الشافية عن الغرض من الحياة الدنيوية وعن المال والمصير.

وتأتي دراسة البوذية لتزيد من تقديرنا -وتقدير كل باحث عن الحق متحرراً من الهوى -لكمال الإسلام، حيث نعث فيه على إجابات لكل التساؤلات حول حياة الإنسان ومصيره ودوره، كذلك يغذى بعقائده وعباداته احتياجاتنا، ويشبع أشواقنا عن طريق منهج في العبادات وطريق وسط في التقرب إلى الله عز وجل، وشريعة قويمه تبيح الطيبات من الرزق وتستجيب لنوازع الإنسان في إشباع اللذات، بلا إفراط أو تفريط بميزان معتدل لا تترجح كفتاه بين ضرورات الجسد وأشواق الروح، مع مزاولة النشاط الإيجابي في العمل والسعي للرزق وتعمير الأرض فضلاً عن المذهب الإسلامي الأخلاقي المتكامل الأركان^(٣)؛ لذلك ستحدث عن البوذية كديانة خرجت على البرهمية، ومذهب فلسفي أخلاقي:

(١) قصة الفلسفة: ويل ديورانت ص ٢٠٣ ترجمة أحمد الشيباني المكتبة الأهلية بيروت ١٩٦٥ م.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٢.

(٣) ينظر كتابنا الأخلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام، ص ١٦٥ وما بعدها - ط دار الثقافة العربية بالقاهرة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م.

الخروج على البرهمية:

أدى نظام الطبقات، واستبداد البراهمة وإحساس طائفة الكشترى (أي: الحكم والسلطان وأعمال الجراءة والحرب) بالظلم، أدى ذلك إلى ثورتي خروج على البرهمية: «أ» الجينية:

وتنسب إلى الزعيم مهاويرا «أي البطل العظيم» ويسمى أيضاً جينا «أي القاهر والمتغلب».

«ب» البوذية:

نسبة إلى بوذا ^(١).

وتتفقان معاً في العزوف عن المتع والملاذ الدنيوية، والميل إلى الرهينة والتبتل ^(٢). وسكتفي بالحديث عن «البوذية» باعتبارها أكثر اتباعاً، وأبعد نفوذاً في الهند والصين واليابان ^(٣)، بينما لا يتجاوز عدد الجينيين الآن نحو المليون. أما معالم اختلافهما مع الهندوكية أو البرهمية، فإن الهندوكية تتضمن مجموعة كبيرة من الآلهة، بينما «أنكرت الجينية الإله، ورفضت البوذية الحديث عنه، ولكن هذه الهوة لم يطل عمرها، فسرعان ما أله الجينيون مهاويرا والبوذيون بوذا، واختلطت التماثيل والآلهة» ^(٤).

لذلك اختلف الباحثون حول ما إذا كانت البوذية ديناً أو فلسفة، والسبب في إثارة هذا الاختلاف أن المتتبع لحياة بوذا يلاحظ أنه لم يتعرض في مباحثه لوجود الله، وأن الأساس الذي حاول فيه حل مسألة الحياة، أساس فلسفي، فالبوذية بناء على هذا الرأي فلسفة، ولكنها في رأي البوذيين دين ^(٥).

(١) كان اسمه عند ولادته (سدهاتا) وفي مرحلة الرهينة (غوتاما) أي: الراهب أو (موني) أي: المنفرد المنعزل عن الناس، ثم في النهاية (بوذا) أي: العارف المستيقظ والعالم المتنور.

(٢) كتاب أدريان الهند الكبرى للدكتور أحمد شليبي ص ١٠٨ : ١٠٩ باختصار.

(٣) حيث اقتحمت حوالي ثلاثين قطراً في آسيا بل تعدتها إلى أوروبا ص ١٨٤.

(٤) المرجع نفسه ص ١٩٤ : ١٩٥.

(٥) المرجع نفسه ص ١٧١.

ويرى الإمام أبو زهرة أن مذهب بوذا إصلاحى اجتماعى خلقى، أكثر منه ديني^(١).

وسيتضح ذلك بصورة أوضح إذا تتبعنا حياته وأفكاره وخططه الإصلاحية.

حياة بوذا:

اتفق الباحثون في تاريخ الأديان والعقائد على أن سيرة بوذا لا تخلو من قصص خيالية وأساطير حكت حوله منذ مولده حتى وفاته، حيث ينسبون إليه معجزات وكرامات.

وعلى أية حال، فسنسرد أهم وقائع حياته توطئة لاستخلاص مذهبه ودعوته التي انتشرت في الآفاق حتى الآن:

ولد في عام ٥٦٨ ق. م ونشأ في قصور أبيه الذي يعد من طبقة المحاربين وعاش عيشة ترف، وتعلم الفروسية ثم تزوج في السادسة عشرة من عمره.

ولكن هذه الحياة الرغدة المنعمة لم تحل بينه وبين مشاركة التعساء والمصابين أحزانهم، وآلامهم «فقد خرج من القصر ذات يوم فرأى شيخاً فانياً وعاد إلى منزله يفكر فيما يفعل الزمن بالمرء من تغيير، حيث يسلبه القوة والنضارة والحيوية والعافية، وفي اليوم الثاني رأى مريضاً أثلفه السقم والداء، فرجع حزيناً يفكر: لماذا يمرض هذا المسكين؟ من الذي يغير حاله؟ ولماذا تستحيل حياته عذاباً، وفي اليوم الثالث رأى جنازة ميت، فعاد والحزن والألم يعتصران قلبه^(٢).

وعمقت هذه المشاهد في نفسه إحساس التشاؤم، ودفعته إلى التساؤل عن كيفية الحل لهذه المشكلات في رأيه، أي: الشباب الذي يذوي والصحة التي تفنى والعمر الذي يمضي. وأدت به إلى ما تحفل به الدنيا من ألم وشقاء وتعب، فأخذ يبحث عن سبيل الخلاص، مصمماً على البحث عن الحقيقة مهما كلفه الأمر، وكان حينذاك في التاسعة والعشرين من عمره، حيث ودع زوجته وابنه وترك القصر هائماً على وجهه، ثم استبدل ملابسه مع سائل في الطريق، وتوجه إلى الكهوف ليقيم مع بعض النساك البراهمة،

(١) محمد أبو زهرة: الديانات القديمة ص ٧٠ ط. دار الفكر العربي ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م.

(٢) الديانات والعقائد في مختلف العصور ج ١ ص ١٧: أحمد عبد الغفور عطار.

فنافسهم في حياة الزهد والتنسك.

ولم يكتف بهذا القدر من الزهد والتقشف على طريقة النساك البراهمة، وإنما أدرك أن البرهمية عاجزة عن حل لغز الوجود، ومشكلة الحياة، فانصرف إلى غاية أخرى، وازداد قوة على نفسه متقلِّباً في أشد ضروب التقشف والحرمان وإذلال البدن، وقضى ست سنوات في هذه الحياة حتى أشرف على الهلاك، وذاع صيته في الآفاق.

وتبالغ الأسطورة في وصف حالته آنذاك فتصوره بأنه أخذ في تعذيب جسده حتى لم يبق به حركة، فبلغ السكون التام حتى كانت الطيور تقع عليه آمنة وتحرك الوحوش خلفه مطمئنة.

ولما بلغت به حالة التقشف والحرمان إلى فقدان القوة عن الحركة، وعطلت فيه قوى الفكر، قرر ترك هذه الحياة المفسدة في تعذيب الجسد عائداً إلى الطعام والشراب والكساء. فبدأ يستعيد نشاطه وقوته، فمضى سائراً في سبيله حيث وجد شجرة فجلس يستظل بظلها^(١).

وعندئذ حدثت واقعة حصوله على المعرفة «النرفانا»...

النرفانا:

تروي الأساطير أنه أثناء جلوسه تحت ظل الشجرة -وهي شجرة تين في رواية- فاض عليه العلم، وانكشفت له كثير من أسرار العالم^(٢)، أو أنه حصل على الإشراق التي كان يترقبها^(٣)، فما هي هذه الأسرار؟ وما صفة هذه الإشراق وطبيعتها وثمرتها؟ لنندعه أولاً يعبر عن نفسه حيث يقول: «جلست تحت تلك الشجرة في تلك الليلة من شهر الأزهار، وقلت لعقلي وجسدي: اسمع، لا تبرح هذا المكان حتى أجد ذلك الحق، لينشف الجلد، ولتقطع العروق ولتفصل العظام، وليقف الدم عن الجريان، لن أقوم من مكاني حتى أعرف الحق الذي أنشده فينجيني».

وإذا تأملنا إفصاحه عن تجربته الإشراقية نراها لا تروى غليظاً في معرفة «الحق»

(١) نفس المصدر السابق باختصار من ص ١١٦: ١٢٠.

(٢) أبو فيض المنوفي: الدين والفلسفة والعلم ص ٥١.

(٣) د. أحمد شليبي: أديان الهند الكبرى ص ١٤٢.

الذي كان يبحث عنه، وصلة الحق بهدف «النجاة»، وممّ يطلب النجاة؟^(١).

وما دامت قد أعيّتنا الحيلة، فلنحرب الاسترشاد بشروح الباحثين، ومنهم أحد علماء الهند -محمد عبد السلام الرامبوري- حيث يصف «بوذا» بأنه استغرق في التأمل فغاب عن نفسه، وعن كل ما حوله وانتقل من حال إلى حال وأخذ شعوره يتجلى رويدا رويدا فأشرق له الكون، وتجرد عقله من شوائب المادية ورأى العالم في تقلباته. ثم يمضي مستطرذاً: «وقد غلب اللاهوت وتنور اللاهوت، فذاق سروراً ما خطر بباله قبل، ووجد قوة ما استشعر بها قط، فأبصر ينابيع الحياة وأحاط بمنابع الآلام، واستوعب منابت البؤس، واكتشف مقاليد السرور، ورأى سبلا يهدي إلى تلاشي الأحزان وزهوق الآلام، فأدرك متمناه: ونال مبتغاه وتخلص من تقلبات الحياة، ونجا من حزازات الآلام، وتيقظ شعوره وتنورت بصيرته»^(٢).

تلك هي خلاصة الصورة البيانية لتجربة بوذا حيث يدور معظمها حول معاني مبهمة أقرب إلى الصور الخيالية منها إلى التعبير الدقيق عن الأحوال التي مر بها. وكل ما نستخلصه من شرح أحواله أنه تقلب من الآلام إلى السرور، بعد أن غاب عن نفسه وعمّن حوله، وأشرق له الكون حين تجرد عقله من شوائب المادية هذا، وقد بلغ من

(١) اتفق الباحثون على صعوبة تفسير الترفانا؛ لأن بوذا نفسه رفض شرحها بطريقة مفهومة كما يقول (ردها كرشنن) ويقرر أنه لا يجدي نفعاً أن نحاول فهمها؛ بل ربما كانت اللغات البشرية لا تستطيع شرح الترفانا (نفس المصدر ص ١٦١).

(٢) بحث في ثقافة الهند (ديسمبر ١٩٥٢) نقلاً عن أديان الهند الكبرى ص ١٦١.

(أما مفهوم التركيز الإبداعي فقد بدا وكأنه أهمل أو أشير إليه بطريق عابرة، أو اختلط لدى عديد من الباحثين بمفهوم (التأمل المتعالي) أو (الصفاء الروحي أو الترفانا) الآتي من جنوب شرق آسيا، وقد انتشرت التدريبات الخاصة به في الولايات المتحدة وأوروبا في العقد الثامن من هذا القرن (١٩٧٠-١٩٨٠) وتتكون من جلستين كل منهما من ١٥-٢٠ دقيقة يوضع الفرد فيها في وضع مريح مغلق العينين ويركز على صوت أو فكرة معينة ويسمح لذنه بالتعامل الحر معها، ويقال إن هذا يتيح للذهن أن يكون حرّاً في أن يتحرك أكثر إلى المستويات الإبداعية من التفكير).

مقال: عمليات التركيز الإبداعي في الأدب والفن: مجلة المنهل -العدد ٤٧٤ السنة ٥٦ المجلد ٥١ صفر سنة ١٤١٠ هـ / سبتمبر سنة ١٩٨٩ م د. شاكِر عبد الحميد سليمان آداب القاهرة.

سيطرة فكرة النرفانا حدًا جعلتها تختلط عند كثير من الباحثين بمفهوم التركيز الإبداعي بأوروبا وأمريكا. يقول الدكتور شاكر عبد الحميد بمقال «عمليات التركيز الإبداعي في الأدب والفن»: ولكن بقي أن نفهم المقصود «بالفناء» حيث تروي الأساطير أن رحلة الروح تصعد إلى «النرفانا» حيث العدم العام، وفناء النفس، الذي يفسره بعض فلاسفة البوذيين العصريين بأنه ليس الفناء المعروف «وإنما هو وجود يفنى في وجود مثل فناء ألوان الطيف في الشمس في البياض الناصع الذي لا لون له.. ولا يتم الوصول إلى النرفانا إلا بعد صفاء النفس والانفصال عن عالم الحس والواقع، ولا يمكن الوصول إلا بتعذيب النفس والعبادة الظاهرة»^(١).

وحاصل البحث والتنقيب في كل ما تقدم يدفعنا إلى الكف عن المضي في التفسير والتحليل، مكتفين بقبول التصور العام للنرفانا كطريقة موصلة إلى المعرفة الإشراقية بعد تخليص النفس من رغباتها.

إن هذا الإيضاح نجده بالتفصيل لدى الدكتور أحمد شلبي، حيث خلص إلى تقرير أن النرفانا مرت بمراحل تاريخية، إذ كان مفهومها عند بوذا في البداية الاندفاع في الله والفناء فيه، وعندما أنكر وجود إله، أصبح للنرفانا أحد معنيين:

(أ) أن يطهر الفرد نفسه بالقضاء على جميع رغباته وأغراضه لأن الأغراض الشخصية الباطلة تجعل الحياة دنيئة أو ذليلة.

(ب) إيقاظ نفسه من تكرار المولد بالقضاء على الرغبات والتوقف عن عمل الخير والشر^(٢).
.. ولنقوم الآن النرفانا بميزان الإسلام^(٣):

النرفانا في ميزان الإسلام:

قبل المضي قدمًا في عرض المذهب الأخلاقي للدين البوذي، نرى ضرورة تحليل موقف بوذا من النرفانا من وجهة النظر الإسلامية:

(١) الديانات والعقائد في مختلف العصور -أحمد عبد الغفور عطار ج ١ ص ١٢١.

(٢) أديان الهند الكبرى ص ١٦١.

(٣) وسنقصر التعليق على الرواية المنقولة عن بوذا بأنه سمع صوئًا من داخله، ثم غالى بعض الباحثين الغربيين فاعتبروه وحيا -نفسه ص ١٤٢.

وتمهيداً لذلك نرى أولاً أنه من المحتمل أن بوذا أصيب بنوع من المرض النفسي أو العصبي نتيجة حياة الحرمان والتقشف والانقطاع عن الناس والحياة داخل الكهوف، ومزاولة طريقة المعيشة المخالفة للطبيعة البشرية السوية المتوافقة مع الفطرة، فخيّل إليه سماع ذلك الهاتف، وسيطر عليه، وملك نفسه وساعد على التمكن منه الضعف الجسماني والاستهلاك العصبي الشديد.

أما تقويم ما حدث لبوذا في تجربة النرفانا، فتتلخص فيما يلي:

أولاً:

لو سلمنا بصحة سماعه لصوت هاتف فإننا نرجّح أنه استمع إلى هاتف شيطاني وتفسيرنا يستند إلى الاعتقاد بأن الشيطان يتسلط على كل من يبعد عن ذكر الله -تعالى- وعبادته، حيث يذكر الإمام ابن القيم إن العبد إذا أصبح وأمسى والدنيا همه، حمله الله همومها وغمومها وأنكادها ووكله إلى نفسه، وهذا شأن كل من أعرض عن عبودية الله -تعالى- وطاعته ومحبته مستشهداً بقول الله -تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] ^(١).

والذي لا يعرفه أتباع النحلة البوذية أن الإنسان يتلقى هاتفين: أحدهما من الشيطان والآخر من الملك. وما لم يستطع التمييز بينهما، فإنه سرعان ما يستأثر به الشيطان لنفسه ويزين له الباطل ويقوده حيث يريد.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية «فلاعتقادات والإرادات الفاسدة تحصل بسبب شياطين الإنس والجن. والاعتقادات الصحيحة والإرادات الحمودة قد تحصل بسبب الملائكة وصالحى الإنس، فإن سماع الكلم قد يؤثر في قلب المستمع. فالتكلم فاعل، فإن كان السامع قابلاً انتقش كلامه في قلبه، وإن لم يكن قابلاً لم ينتقش فيه» ^(٢).

إنه يستند في ذلك إلى قول سلف الأمة الإسلامية والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين «فإنهم يقولون: إن الشياطين توسوس في نفوس بني آدم كالعقائد الفاسدة والأمر

(١) ابن القيم: الفوائد ص ٧٧ الناشر زكريا علي يوسف - مطبعة العاصمة بالقاهرة بدون تاريخ.

(٢) الرد على المنطقيين ص ٥٠٩ - المكتبة الإمدادية بمكة المكرمة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م. ويذكر أن

العاصم من الوقوع في الزلل هو خبر الأنبياء عليهم السلام.

باتباع الهوى، وإن الملائكة بالعكس إنما تقذف في القلوب الصدق والعدل.

قال ابن مسعود «إن للملك لمسة وللشيطان لمسة، فلمسة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق، ولمسة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الملائكة ومن الجن» قالوا: «ولياك يا رسول الله؟» قال: «وياي، إلا أن الله أعاني عليه فأسلم» وفي لفظ «فلا يأمرني إلا بخير»^(١).

ثانيًا:

لا تتحقق السعادة الكاملة في الحياة الدنيوية، بل يستحيل النجاة من الأحزان فيها لأنها دار ابتلاء وامتحان، وأنها موضوعة على الكدر والمعاناة، فلا راحة فيها، فمن طلب فيها الراحة فإنه يبتغي من الدنيا «ما ليس في طبيعتها ولا موجود فيها ولها»^(٢).

ولكن لا يدفعنا هذا الاعتقاد إلى تبني النظرة التشاؤمية الغالية التي تلقي بشاكرها فقط على منابع الآلام ومنابت البؤس، فإن من يفعل ذلك كمن ينظر إلى الحياة الدنيوية بعين واحدة، فإن الدنيا لا تمضي على وتيرة واحدة، بل لا بد فيها من اليسر والعسر، والخوف والطمأنينة، والراحة والتعب، والحزن والسرور، والفقر والغنى وهكذا دواليك، إذ ربما لا يسير نهر الحياة في مجرى مستقيم يجتاز خطأً واحداً؛ بل يتفرع وينساب هنا وهناك حسب طبيعة الأرض التي يجتازها مجراها، ولكن لا يمنعه ذلك من استمرار جريانه حيث يصل إلى مصبه.

(١) الرد على المنطقيين ص ٥٠٦ وقد خرج محقق الكتاب الشيخ عبد الصمد شرف الدين الحديثين على النحو الآتي: الأول: رواه مسعود عن عطاء وابن السائب وأبي الأحوص عن ابن مسعود موقوفاً، ورواه الترمذي والنسائي وابن حبان، وابن أبي حاتم، عن ابن مسعود مرفوعاً. والثاني: أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، وقوله «فأسلم» برفع الميم وفتحاً فمن رفع قال معناه (أسلم أنا من شره وفتنته) ومن فتح قال: «إن القرنين أسلم من الإسلام»، وصار (مؤمناً لا يأمرني إلا بخير) النووي.

(٢) تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين للراغب الأصفهاني ص ٣٩ سلسلة الثقافة الإسلامية - ذو القعدة ١٣٨٠ هـ - إبريل ١٩٦١ م.

إن البديل إذن مستمد من نظرة أوسع للحياة وللمصير، يغذيها إيمان لا يتزعزع بالحكمة الإلهية التي تقصر أفهامنا عن إدراكها لأول وهلة، وربما يأتيها الفهم بعد انقضاء الأحداث والوقائع التي نظن أنها -للهولة الأولى- مؤلمة للنفس.

كذلك لا يتحقق التكيف النفسي المؤدي إلى انشراح الصدر إلا بالافتناع بحقيقة الابتلاء في الدنيا، ومن ثم فإن المسلم يكيف حياته وفق هذا القلب، ويصحح نظرتة ويعد لها أولاً بأول إذا ما مر بتجارب مؤلمة، أو عانى من الإخفاق في نيل بعض أغراضه ومقاصده.

وها هو ابن الجوزي «٥٩٧هـ» يضع الصياغة الملائمة للموقف الصحيح المؤدي إلى تقبل آلام الحياة عن افتناع بمبادئ خسة هي:

١- إن طلبت النفس أغراضها ولم تصبر على الحرمان، فإن ذلك ينافي طبيعة الدنيا كدار ابتلاء واختبار «وهل الابتلاء إلا الإعراض وعكس المقاصد؟».

٢- إن النفس مملوكة لخالقها -عز وجل- وواجبها أداء حقه، ولا يجب على المالك تبليغها ما تهوي.

٣- وقف المعاصي عقبة في طريق إجابة الدعاء وتحقيق الرغبات، بينما سبب الراحة التقوى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ .. [الطلاق: ٢، ٣] ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

٤- ربما تطلب النفس ما لا تعلم عاقبته وربما كان فيه ضررها، والمدبر لها -عز وجل- أعلم بالمصالح ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٥ - إن المطلوب ينقص الأجر ويحط من المرتبة، فالأولى طلب ما يصلح الآخرة^(١).

ثالثاً:

إذا حاول الإنسان التحليق بروحه في الآفاق ظناً أنه يتخلص من دوافع النفس، وهوائف الغرائز، فكأنما يبحث عن المحال، اللهم إلا إذا توهم «الفناء» -أي: العدم -أمراً ممكن التحقيق.

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي ص ٢٤٤ - ٢٤٥ بتصرف- تحقيق عبد القادر عطا- مكتبة الكليات

فإذا علمنا أن الموت نفسه ليس فناء، بل هو نقلة من حياة الدنيا إلى الحياة البرزخية، فكيف نتصور أو نصدق تجربة بوذا التي هي أقرب إلى الوهم والخيال منها إلى الحقيقة والواقع؟ دعك من اتخاذها دينًا يدين به الملايين، ويحق التساؤل أيضًا هاهنا: «وكيف تكون الآراء والخيالات وسوانح الأفكار دينًا يدان به؟»^(١).

النرفانا وأثرها عند الصوفية:

وكان للنرفانا -بتجربتها النفسية والأخلاقية- بريق خاص في دائرة الصوفية، كما كان لفكرة «الفناء» عند الهندوس صداها أيضًا -كما قلنا من قبل:

إن الحديث عن النرفانا -كطريقة للمعرفة- يثير لدينا قضية تسللها إلى الصوفية إذا دار النقاش بينهم وبين المتكلمين، لأن الصوفية تبني المنهج القريب من النرفانا، فمنهم من رأى أن «صاحب» الرياضة قد يسمع كلام الله كما سمعه موسى بن عمران عليه السلام^(٢)، ويقصدون بالرياضة تصفية القلب والتقرب إلى الله -تعالى- بالنوافل والإكثار من العبادات كالصلاة والصوم ومداومة الذكر.

ومثال ذلك ما رواه ابن الجوزي، قال:

«فرايت أبا حامد الطوسي يحكي عن نفسه في بعض مصنفاته قال: شاورت متبوعًا مقدمًا في الصوفية في المواظبة على تلاوة القرآن فمنعني منه، وقال: السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية، بحيث لا يلتفت قلبك إلى أهل وولد ومال وعلم، بل تصير إلى حالة يستوي عندك وجود ذلك وعدمه، ثم تخلو بنفسك في زاوية، فتقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب، وتجلس فارغ القلب، ولا تزال تقول: الله الله إلى أن تنتهي إلى حالة لو ترك تحريك اللسان رأيت كأن الكلمة جارية على لسانك، ثم تنتظر ما يفتح عليك مما فُتح مثله على الأنبياء والأولياء»^(٣).

وعارضهم المتكلمون أصحاب المنهج العقلي، ونفوا دور الرياضة وتصفية القلب في نيل العلم.

(١) الفوائد: لابن القيم ص ٩٨.

(٢) الرد على المنطقيين لابن تيمية ص ٥١١.

(٣) صيد الخاطر ص ٤٢٠ تحقيق عبد القادر عطا- مكتبة الكليات الأزهرية بمصر ١٩٧٩ م.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية حاسماً للنقاش بين الطرفين عندما أوضح -بناءً على تفسيره للآيات القرآنية والأحاديث النبوية- أن «التقوى وتصفية القلب من أعظم الأسباب لنيل العلم»^(١).

ويؤيد من جانب ما يأمر به كثير من أرباب العبادة والتصوف بملازمة الذكر يلتمسون الوصول إلى الحق، فإن هذا حسن إذا ضموا إليه تدبر القرآن والسنة واتباع ذلك^(٢).

ولكنه في الوقت نفسه يحدد الشرط العاصم للإنسان من الزلل والخطأ، حتى لا يقع فيه المفتونون بتجربة «الترفانا»، حيث يقيد ذلك بقيد ضروري محكم لا بد منه في طلب المعارف الإلهية وحقائق عالم الغيب، لكي يوازن بين الصواب والخطأ، فيقرر أنه لا يستغني أحد عن معرفة الغيب عما جاء به الرسول ﷺ، فما وافق كشف الإنسان وقياسه وافقه، وما لم يكن كذلك خالفه لأن الإنسان معرض بعد تصفية نفسه أن يلقي الشيطان في نفسه أشياء، فإن لم يعتصم بالذكر المنزل وإلا اقترن به الشيطان، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تَقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] قوله: ﴿فَمَنْ أَتَّبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]^(٣).

ويلاحظ أن النقاش لم يتوقف عند هذا الحد، فقد كان للصوفية صولات وجولات حول «الترفانا» أو «الإشراق»، يلاحظ ذلك بوضوح بالقارة الهندية حتى العصر الحديث،

(١) المرجع نفسه ص ٥١١.

(٢) نقض المنطق ص ٣٥- ونذكرها هنا أيضاً عبارته الثانية عن الفناء المحمود وهو عنده يعني (تحقيق الخيفية وهو إخلاص الدين لله، وهو أن يفنى عبادته عن عبادة من سواه، وبمحبه عن محبة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبخشيتيه عن خشية ما سواه، وبالحب فيه والبغض فيه عن الحب فيما سواه والبغض فيه، فلا يكون لمخلوق من المخلوقين -لا لنفسه ولا لغير نفسه- على قلبه شركة مع الله تعالى) ص ٥١٧.

(٣) الرد على المنطقيين ص ٥١١ والآيتان: ٣٦ سورة الزخرف، و١٢٣ سورة طه ويذكر أيضاً أن المعرفة لا بد لها من شرطين: أحدهما قدرة العبد ثم السبب الآخر: كالقوة في الهم والقبول في المحل، ولا ريب أن النظر هو السبب فإن كان ذلك في دليل هاد -كالقرآن- تضمن ذلك النظر العلم والهدى (نقض المنطق ص ٣١: ٣٢).

حيث نجد الإمام أحمد السرهندي «١٠٣٤هـ / ١٦٢٦م» المشهور في الهند بمحدد الألف الثاني -يحدد موقفه وموقف الإمام الدهلوي بقوله: «بأنهما كانا في مقام استولت عليهما فكرة وحدة الوجود، وكانت هذه النظرية تبدو لهما مؤيدة بالمقدمات الكشفية والدلائل اليقينية، ولكنه أدركهما التوفيق الإلهي فسما بها إلى مقام أسمى من هذا المقام رجعا عنها»^(١).

والذي يشد انتباهنا متابعة تلميذه الشيخ عبد الباقي الدهلوي له أيضاً ويتضح ذلك من رده على سؤال خلاصته الاستفسار عن إمكان العقل بعد التزكية والتصفية والاقتراب من الله -تعالى- من غير حاجة إلى نبي يبعث ويتلقى الوحي بواسطة الملك. وكانت إجابته على السؤال متضمنة نفس الرأي الذي انتهى إليه ابن تيمية مما يدل على استقلال المنهج الإسلامي في المعرفة بذاتيته الخاصة وتحذير علماء السنة الدائم من الجري وراء المناهج تقليدًا ومتابعة هنا وهناك.

وبذلك أوصد الشيخ عبد الباقي الباب أمام كل صوفي يحاول اتباع طريقة الكشف المستوحى من «النرفانا»، قال:

«مهما اقترب العقل واتصل بالله -تعالى- إلا أن علاقته بهذا الجسم المادي لا تزول بتأناً ولا يستطيع أن يتجرد عنه تماماً، فلا بد من حدوث الأوهام والشبهات بصفة دائمة، ولا تفارقه القوة المتخيلة والشهوانية والغضبية بأي حال، وكذلك رذائل الطمع والشره ترافقه بصفة مستمرة، أضف إلى ذلك صفات السهو والنسيان والخطأ التي هي من لوازم النوع البشري لا تنفك عنه أبداً.

ولذلك فإن العقل ليس موضع ثقة في قضية الأحكام الإلهية التي «إذا تلقاها لم تكن بنجوة عن موضع الشك والارتباب، ولا تفارقه شائبة النسيان ومظنة الخطأ بخلاف الملك الذي هو مصون عن جميع هذه الصفات البشرية، وبعيد عن هذه الرذائل، فلا بد من أن يكون محفوظاً عن كل شائبة من شوائب الوهم والخطأ والنسيان»^(٢).

(١) أبو الحسن الندوي: بين الدين والمدنية ص ٣٣: ٣٤ مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٥: ٣٦.

انتبهنا إذن من عرض النرفانا كطريقة للمعرفة والإشراق عند بوذا وصداها عند الصوفية، وسنبحث الآن في البوذية كمذهب أخلاقي، ومنهج إصلاح اجتماعي.

المذهب الأخلاقي في البوذية:

إن السمات الأخلاقية بارزة أمام دارسي البوذية، بما تشمل عليه من الحث على الفضائل واجتناب الرذائل.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «الجزء الخصب في البوذية هو مذهبها في الأخلاق وإصلاح المجتمع وتخفيف ما فيه من شقاء»^(١).

كذلك فإن بوذا أدرك -كشأن أصحاب الدعوات الذين يريدون نشرها بين الناس- دور الدعاة في نشر دعوته، فاعتنى بترتيبهم لاكتساب الخصال النفسية والفضائل الأخلاقية اللازمة لأداء رسالتهم على أحسن وجه، فأخذ يربيههم على الصبر واحتمال أذى المعارضين والخصوم، كما سنرى بعد قليل، وإن لاحظنا أن التربية اقتصر على طرق المعاملة والتفاهم -أي الوسائل دون الغايات- فلم نعد التربية بالعقائد في الأوقات المصيبة، كما تحدد الغايات بوعدها للطائعين بالثواب وبتوعدها للعصاة بالعقاب.

ومهما يكن من أمر، فإن الروايات المنقولة عن بوذا تمضي فتذكر أنه تردد في أول أمره بين أن ينعم وحده بالمعرفة التي نالها، أو أن يبشر به وينشره، ثم استقر رأيه على دعوة الناس إليه بعد أن تغلب الخير على نفسه.

وبعد ذلك جمع عددًا من الشبان بلغ تعدادهم الستين، وأخذ يعلمهم مبادئه ويلقنهم دعوته فاشتهرت دعوته بتسميتها «بالنظم» أو «عجلة الشريعة».

وهناك نموذج من اختيار أعوانه أو مريديه بعد تربيتهم يعبر عن مدى التصميم على الدعوة والاستعداد لتقبل التضحية مهما كانت الصعاب^(٢).

كان هذا المريد «ويسمى بودنا» يريد الذهاب إلى إحدى القبائل المعروفة بالشراسة والخشونة، فأراد بوذا اختبار مدى قدرته على التحمل، فقال له: إن رجال هذه القبيلة قساة سريعو الغضب، فإذا وجهوا إليك ألفاظًا بذينة خشنة ثم غضبوا عليك

(١) الديانات القديمة ص ٧١.

(٢) باختصار من كتاب ديانات الهند الكبرى ص ١٣٦ - ١٤٧ للدكتور/ أحمد شليبي.

وسبوك فماذا كنت فاعلاً ؟ فأجاب بودنا: أقول: لاشك أن هؤلاء قوم طيون، لينو العريكة، لأنهم لم يضربوني بأيديهم، ولم يرموني بالحجارة.
 -فإن ضربوك بأيديهم ورموك بالحجارة، فماذا كنت قائلاً؟
 -أقول: إنهم طيون لينون إذ لم يضربوني بالعصى ولا بالسيوف.
 -فإن ضربوك بالعصى والسيوف؟
 -أقول: إنهم طيون لينون إذ لم يحرمني الحياة نهائياً.
 -فإن حرموك الحياة؟

-أقول: إنهم طيون لينون إذ خلصوا روحي من سجن هذا الجسد الشيء بلا كبير ألم.
 فيعجب به بوذا ويطلب منه الذهاب إلى تلك القبيلة موجهاً إياه بالوصية التالية
 «وكما تخلصت فخلصهم، وكما وصلت إلى الساحل فأوصلهم معك، وكما تعزيت فعزهم، وكما وصلت إلى مقام النيرفانا الكاملة فأوصلهم إليها مثلك»^(١).
 وعلى أية حال، فإذا مرت بنا بعض الصعوبات في تحليل تجربة النرفانا لغموضها،
 فربما استطعنا أن نتقدم خطوة جديدة لفهمها عن طريق تحليل المذهب الأخلاقي للبوذية
 وشرح الطريق الذي خطه للقضاء على الآلام، وتحقيق المسرات، لأن المذهب نفسه
 منبثق من النرفانا.

الفضائل الأخلاقية وطرق اكتسابها:

تدرج عناصر المذهب الأخلاقي حيث تبدأ بالنص على أركان أربعة، ثم تتلوها
 خطوات السير الخيث في شان شعب:
 أما الأركان الأربعة فهي:
 -الاعتراف بوجود الألم والشقاء.
 -التسليم بوجود سبب للألم والشقاء.
 -التصميم بإمكان إزالة هذا السبب.
 -وجود السبيل لتحقيق إمكان هذه الإزالة.

(١) دائرة المعارف لفريد وجدي ج ٢ ص ٣٨٩ : ٣٩٠ نقلاً عن الديانات الهند الكبرى

وتتلخص سبل إزالة الألم في «قتل الشهوة التي تربطنا بملذات الجسد وتدفعنا لطلبها، مع أن ما نطلبه يزول ويتغير، وكل ما يزول ويتغير ألم وشقاء، ولا نجاة ولا خلاص إلا بأن ننبذ ما تريده الشهوة، وفي ذلك قتلها، وفي قتلها النجاة والخلاص»^(١).

لهذا كان عماد (بوذا) في مذهبه الأخلاقي أن يجاهد الشخص الشهوات ويروض إرادته على الصبر على الحرمان من اللذات، ويتحقق ذلك بسلوك الجادة المستقيمة بتقييد حياته بثمانية أمور هي:

-الاتجاه الصحيح المستقيم إلى ما يريده اتجاهًا خاليًا من كل سلطان للشهوة واللذات وما تبعته من أمان.

-الإشراق الصحيح المستقيم، ذلك بأنه عندما يتجه الاتجاه الصحيح المستقيم، بناء على الأمر الأول، وتعتريه نورانية تجعله يستطيع الوصول إلى حقائق الأشياء.

-التفكير الصحيح المستقيم، وذلك أن العقل عند خلوه من شوائب اللذة أصبح تفكيره مستقيمًا لا يؤثر فيه نزعة هوى ولا جموح شهوة.

-ويترتب على الخطوات الثلاث السابقة أمر رابع، وهو اطمئنان العقل والقلب إلى الاعتقاد الصحيح الذي يطمئن له القلب.

-يأتي بعد ذلك نطق الإنسان وأقواله مطابقة تمامًا لاعتقاده ولما ارتاح إليه.

-يصبح السلوك مستقيمًا فيكون العمل مطابقًا للعلم لا مجافاة بينهما.

-تحقق بعد ذلك الحياة الصحيحة وقوامها هجر اللذات هجرًا تامًا ولا تشذ عن السلوك القويم.

-ويتوج ذلك كله المثابرة على بذل جهود الإنسان كلها في سبيل أن تكون الحياة مستقيمة^(٢).

وهنالك أيضًا الوصايا العشر التي تشكل آدابًا عامة صالحة وهي:

-لا تزهق روح أحد.

-لا تكذب.

(١) الديانات والعقائد في مختلف العصور ص ١٢٧، أحمد عبد الغفور عطار.

(٢) الديانات القديمة: محمد أبو زهرة من ص ٧٢: ٧٤ باختصار.

- لا تزن.
- لا تأخذ مالا محرماً.
- لا تتناول مسكراً.
- لا تأكل طعاماً غير ناضج.
- لا تشهد حفل رقص وغناء.
- لا تتزين ولا تستعمل عطوراً.
- لا تتخذ أي فراش وثيراً.
- لا تقبل من أحد ذهباً أو فضة^(١).

وقبل تناول المذهب الأخلاقي بالتحليل، النقد التفصيلي، نلاحظ على عموم المذهب خلو الخطوات الثماني من تجديد أو تعريف للصحيح، فكيف تتحدد الصحة؟، وما مقدارها وحدها؟ فإن الناس قد يختلفون في الاتفاق على الصحيح.

كذلك لا نجد ما يقابل الثواب أو العقاب لمن يطيع أو يخالف الوصايا العشر فكيف نلزم الناس على اتباعها؟

ترك الإجابة على هذه الأسئلة الآن، مكتفين بتأمل توجيهاته لأتباعه المنحصرة في «الألم»، إنه يقول لهم: «أيها المريدون لا تفكروا كما يفكر الناس، بل فكروا هكذا: هذا ألم، هذا مصدر الألم، هذا إعدام الألم، هذا سبيل إعدام الألم»^(٢).

ومما يلفت النظر -كما أشرنا إلى ذلك من قبل- اقتصاره على توجيه أتباعه إلى الآلام والإلحاح عليها، والدوران حولها بشكل يورث التشاؤم، ويصبغ النفس بالكآبة حيث يصبح في مستقرها الآلام، وتدور في داخلها معركة التخلص منها بحيث يظل شغلها الشاغل.

وربما يؤدي استمرار هذه الحالة ألا يتخلص المرء من الألم، بل ربما ازداد لأن المثابرة على ذلك تجمع وتعمق الإحساس بالألم أكثر وأكثر. إن التفكير بهذه الطريقة،

(١) المرجع نفسه ص ٧٦. وانظر الديانات والعقائد في مختلف العصور ص ١٢٧- أحمد عبد الغفور عطار.

(٢) ديانات الهند الكبرى ص ١٦٧- ١٦٨.

والاقتصار على متابعة الألم وحده تجعل الإنسان وكأنه يغرق في دوامة من دوامات البحر فتغوص بالسباح ولا تترك له فرصة الطفو على السطح لأنها لا تقدم له طوق النجاة.

وطوق النجاة في رأينا هو النصيح بالتوازن في رؤية الحياة، لأن رؤية الألم وحده لا تعبر عن واقعية الخبرات الإنسانية التي تمر بها ألوان من السرور لا ينكرها أحد: فإن الحياة -بالرغم من آلامها- تكتنفها ألوان من السرور والبهجة أيضًا متعددة المصادر: كالصحة والمال والأهل والأولاد والتمتع بالنعم التي لا تحصى من مآكل ومشارب وملابس، بل هناك أيضًا مصادر للسرور والبهجة غيرها، تتمثل في رؤية آيات الله -تعالى- في الكون والمخلوقات من حلوله على الأرض في رؤية البحار والأنهار والشمس والقمر والنجوم، وغيرها من آيات الجمال التي تبهج النفس وتحبب لها الحياة.

وكان الإمام ابن حزم أكثر توفيقاً وواقعية بما اقترحه لنا من علاج نداوي به آلام الحياة، ويرجع توفيقه إلى الانطلاق -أولاً- من عقيدة إيمانية راسخة، ثم رؤية للحياة أشمل، ثانياً: تتسع لحياة الدنيا والآخرة، فأرشدنا إلى «كل ما يعصم من الدنيا من جميع المخاوف والمكاره، ونخلص في الأخرى من كل هول وضيق»^(١).

ويخبرنا ابن حزم في المقدمة عن خلاصة تجاربه التي كان يراقب خلالها أحوال الناس بغية العثور على غرض واحد يجمعون على استحسانه والسعي إليه فعثر على غرض واحد سماه «طرد الهم» أي: الحزن^(٢) -أو القلق بلغة عصرنا- فإن الناس في رأيه لا يسعون في تحقيق أهدافهم من الأكل والشرب واللبس والأسفار والزواج واللعب وغيرها، إلا ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال، ومع ذلك فإنها قد لا تتحقق بسبب عوارض كثيرة تعترضها كالعجز وظهور الآفات والخوف من التنافس وطعن الحساد وغيرها من العقبات التي تحول دون تحقيق الأغراض، وفي الوقت نفسه لم يجد عملاً سالماً من كل عيب خالصاً من كل كدر، موصلاً إلى طرد الهم على الحقيقة إلا العمل لله تعالى؛ لأن العامل للآخرة «إن امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يسر إذ رجاؤه في عاقبة ما

(١) (كتاب الأخلاق والسير) في (مداواة النفوس) المقدمة لتحقيق أحمد عمر الحمصاني -مطبعة السعادة

بمصر.

(٢) يفسر الأصفهاني الهم بأنه (الحزن الذي يذيب الإنسان) المفردات ص ٥٤٥.

ينال به عون له على ما يطلب، وزايد في الغرض الذي إياه يقصد»^(١).

فأين ذلك من آراء بوذا؟

إننا إذا أفضنا في الشرح والمقارنة فلكي تصبح أحكامنا أدنى إلى الصحة، بدلاً من الفتنة ببوذا وآرائه التي دفعت بأحد الباحثين إلى القول بأنه نبي، وهو ما لا يمكن تقديم الدليل عليه، بل إن صحت روايات إنكاره الألوهية تجعله أحد الملاحدة^(٢) وأمام هذه الفتنة نرى ضرورة وضع الأخلاق البوذية في مكانها الصحيح بعد النقد والمقارنة، إذ لا نستطيع الإغضاء عن أثر المديح الذي يملأ الكتب في نفوس القراء ما لم يتسلحوا بالمعارف الصحيحة.

مآخذنا على المذهب البوذي في الأخلاق:

١- من الناحية النظرية:

عندما اطلعنا على المذهب بدا في ظاهره لامعاً جذاباً لاحتوائه على إرشادات قيومية في شعبه الثمانية تتصل بمحاربة أهواء النفس ورغباتها في اجتناب اللذات- إذا قصد بها اللذات المحرمة وحدها- لأن الاستغراق في اللذات يورث الآلام، فضلاً عن الوسايا العشر الإيجابية، وتقابلها الرذائل المنهي عن الاتصاف بها.

كل ذلك حسن، ويبدو في مظهره أنيقاً أحاداً، ولكن إذا دققنا النظر فيه وكانت لدينا فكرة عن النظم الأخلاقية المتكاملة، وجدنا المذهب البوذي يتهاوى ويتساقط أمامنا، وهاكم نتائج تأملنا المدقق للمذهب البوذي:

أ- تنقصه الفضائل المتنوعة بتنوع الحياة الإنسانية في علاقتها المتشعبة، كالفضائل في العلاقات الاجتماعية، والفضائل العامة والعلاقات الدولية وأيضاً في مجال الفضيلة الشخصية نفسها، كمبدأ «النية» باعتبارها لب العمل الأخلاقي^(٣).

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس ص ١٢.

(٢) تنظر الدراسة التي أجراها الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار بكتابه (الديانات والعقائد في مختلف العصور) لاص ١٣٦ - ١٣٧ وما بعدها حيث ناقش الدكتور محمد توفيق صدقي، صاحب كتاب (الصلب والفداء) الذي سجل فيه هذا الرأي.

(٣) انظر: الدراسة المستفيضة للدكتور عبد الله دراز بكتابه (مدخل إلى القرآن الكريم ص ١٠).

ب- تنقصه أيضًا ما يسمى في علم الأخلاق بعناصر الإلزام «أو وسائل الردع»، وهي التي تلزم الناس بسلوك الطريق القويم، وتردع المنحرفين الخارجين عنها.

ج- ويخلو المذهب أيضًا من العقيدة التي لولاها لما استطعنا إقامة بناء أخلاقي متكامل، قد رأينا بوذا أميل إلى إنكار الإله، وكان يتحاشى كل ما يتصل ببحث ما وراء الطبيعة «أو عالم الغيب»، فإنه جعل كل همه صرف أتباعه عن البحث في هذه القضايا، وحثهم على الخوض فقط في أعمالهم ودواعيها وميولهم وعواطفهم^(١).

ونحن نرى في ذلك هروبًا من مواجهة الإجابات عن الأسئلة المنبعثة من بواعث النفس السوية، فضلًا عن ضرورة العقيدة في أي مذهب أخلاقي، فهناك من ألوان السلوك ما يكون الدافع إليها بعيدًا عن تحقيق أي نفع عاجل، ويتضح ذلك في عقيدة الإسلام خاصة- كعقد النية والإخلاص في العمل ابتغاء مرضاة الله تعالى، وأملا في ثوابه، إلى جانب الترهيب من عقابه عز وجل.

وسيتجلى ذلك بصورة أوضح وأشمل إذا ما عرضنا للسلمات الأخلاقية في الإسلام بعد أن نستكمل نقدنا للمذهب البوذي لتعذر تنفيذه كمنهج للحياة اليومية.

٢- المنهج البوذي والتطبيق العملي في حياتنا اليومية:

والآن، نأتي إلى مرحلة التحريب، فنحاول تنفيذ المنهج البوذي لإصلاح الأخلاق، فماذا نفعل لنحقق السعادة المنشودة ونتخلص من الآلام؟

إذا بدأنا في التنفيذ، فإن أول ما نلاحظه أن الطريقة البوذية أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، حيث تجمع بصورة تكاد تتشابه بين الاتجاه والإشراق والتفكير والاعتقاد، وكلها ذات صبغة تأملية عقلية نظرية، يختلط فيها الإدراك بالخيال، فلا نقف أولًا على حدود مميزة نعرفنا كيفية اجتياز مرحلة الاتجاه إلى مرحلة الإشراق ثم التفكير فالسلوك.. إلخ. هذا، بينما يبدو من الأمور الثمانية التي يتقيد بها الشخص في شئون الحياة أنها على شكل مراحل متدرجة.

وإذا ما توقفنا لإعادة النظر ومحاولة التطبيق العملي مرة أخرى، اتضح لنا أن هذا

(١) أديان الهند الكبرى ص ١٦٧-١٦٨.

المران العقلي التأملي المتخيل عند بوذا يفترض إنساناً آلياً يسير على قضبان كالقاطرة، وينتقل تلقائياً من محطة إلى أخرى، ويقطع مسافة ما، لينتقل إلى غيرها، فلا ينحرف يميناً أو يساراً بحكم طبيعة الخط الحديدي الذي يحكم حركته.

وإذا سلمنا جدلاً بإمكان نجاح البعض جزئياً في رياضة إرادته على النحو الذي اقترحه بوذا، فلا يصلح تعميم الحكم على صنوف البشر جميعاً، أي: إذا صلح هذا البرنامج في مرحلة عمر الإنسان المتأخرة وبواسطة الرجال الحكماء الذين يغلبون صوت العقل وتضعف شهواتهم وانفعالاتهم، فلا يصلح لمرحلة الشباب المتسمة بالحيوية والنشاط المليئة بالأمال والطموحات.

وإذا ناسب المشتغلين بالفكر والأدب والعلوم، فإنه لا يناسب العاملين في حقول الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من الأنشطة الإنسانية التي تستنفذ جهود أصحابها ولا تترك لهم وقتاً للتأمل النظري البحت إلا فيما ندر!

أما إذا أريد للإنسان أن يتجه دائماً «الاتجاه الصحيح» فلا بد من توافقه مع فطرته السوية التي خلق بها، لأن حرمان النفس من اللذائذ المباحة يمنعها من الاستمرار في الاتجاه الصحيح والحياة الصحيحة أيضاً.

ونحن نملك البديل الإسلامي الكفيل بالمضي قدماً في الاتجاه الصحيح -أي عبادة الله -تعالى- في أعمال الإنسان وسلوكياته أثناء اجتيازه للحياة الدنيا -كما سبق الإشارة عند حديثنا عن مفهوم «العبادة» الواسع.

لا يصلح إذن المنهج البوذي للتقويم الأخلاقي أو تدعيم النفس «المطمئنة»، ولكن الذي يصلح منهج آخر «مفصل» بحكمه باللغة على تركيبة الإنسان الروحية والجسدية، وملائم لأنشطته وحركاته، ويمده بالذخيرة الإيمانية لمواصلة حياته مهما كانت طبيعتها. يقول الدكتور محمد عثمان نجاتي: «وقد اتبع القرآن في تربيته لشخصيات الناس وفي تغيير سلوك أسلوب العمل والممارسة الفعلية للأفكار والعادات السلوكية الجديدة التي يريد أن يغيرها في نفوسهم؛ ولذلك فرض الله -سبحانه وتعالى- العبادات المختلفة: الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج. إن القيام بهذه العبادات في أوقات معينة بانتظام يعلم المؤمن الطاعة لله تعالى، والامتثال لأوامره، والتوجه الدائم إليه في عبودية تامة، كما يعلمه الصبر،

وتحمل المشاق، ومجاهدة النفس والتحكم في أهوائها وشهواتها»^(١).

نبذة عن السمات الأخلاقية في الإسلام:

يطول بنا الحديث لو استقصينا السمات الأخلاقية في الإسلام، ويكفينا عرض بعض الملامح، ثم نترك للقارئ حرية الموازنة مع الأخلاق البوذية، التي تبدو حينذاك كقطرات في مياه المحيط.

ومن هذه السمات:

أولاً:

إن الشريعة الإسلامية نفسها بأوامرها ونواهيها تصطبغ بالصبغة الأخلاقية.

يقول الأصفهاني: «ومكارم الشريعة هي الحكمة والقيام بالعدالة بين الناس والحلم والإحساس، والفضل والقصد منها أن تبلغ إلى جنة المأوى وجوار رب العزة -تبارك وتعالى»^(٢).

والشريعة في هذا المجال لها دوران:

أ- دور الردع والإلزام كما يرى ابن حزم حيث تكف الناس عن القتل الذي فيه فناء الخلق، وعن الزنا الذي فيه فساد النسل وخراب الموارث، وعن الظلم الذي فيه الضرر على الأنفس والأموال وخراب الأرض، وعن الرذائل من البغي والحسد والكذب والجبن والبخل والنميمة والغش والخيانة وسائر الرذائل^(٣).

ب- دور الحث على الانتصاف بمكارم الأخلاق كقول الله-تعالى: ﴿اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الآيات إلى انقضاء تلك الخصال في سورة الأنعام: من الآية ١٥١ وما بعدها].

والآيات كثيرة في هذا الغرض، حيث تحقق الأخلاق الفاضلة بحيث تجعلنا نؤيد

(١) القرآن، وعلم النفس ص ٢٥٥ ط دار الشروق ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٩١ تحقيق د/ أبو اليزيد العجمي - ط دار الوفاء ١٤٠٥ هـ -

١٩٨٥ م.

(٣) الفصل في الملل والنحل ج ١ ص ٧٩: ٨٠ ط. صبيح ١٣٤٧ هـ.

الرأي القائل بأن «الشرعية إنما هي تخلق بمكارم الأخلاق»^(١).

ثانياً: تنوع الفضائل بتنوع شعب الحياة الإنسانية:

أ - ففي مجال الفضيلة الشخصية -يكشف لنا الدكتور دراز عن مبدأ جديد لم تقره الشرائع من قبل- ألا وهو مبدأ «النية» باعتبارها لب العمل الأخلاقي. فقد كان موسى عليه السلام يغري قومه بأرض الميعاد، والرخاء في الحياة الدنيا والنصر على أعدائهم، ويظهر من دعوة عيسى عليه السلام، طلب الانصراف عن الحياة الدنيا لأن السعادة لا تتحقق فيها، ولكن في ملكوت السماء^(٢).

ويجمع القرآن الكريم بين هذين الوعدين، لا كباعث أخلاقي وإنما باعتبار أن الغاية التي يقصدها الإنسان الفاضل أعلى من هذا كله «إنه في الخير المطلق، أي: في ابتغاء وجه الله -تعالى- الذي يجب استحضاره في القلب عند أداء العمل الإنساني بتنفيذ أوامره»^(٣).

ب - الفضيلة في العلاقات بين الأفراد: وتتضح من الآيات القرآنية العديدة التي أتت بتقنين عال في الأدب والذوق الاجتماعي. ومن هذه الآيات قوله -تعالى: «وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا» [النساء: ٨٦] «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» [الحجرات: ١٣]^(٤).

ج - الفضائل الجماعية والفضائل العامة: يعلمنا القرآن أنه توجد خارج الأخوة في الله -تعالى- الأخوة في آدم عليه السلام قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» [الحجرات: ١٣].

وقال عز وجل: «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ

(١) تفسير القاسمي (محاسن التأويل) ج ١ ص ٩٠ تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي - عيسى البابي الحلبي ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.

(٢) د/ محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن ص ١٠٥.

(٣) المرجع نفسه ص ١٠٦.

(٤) ينظر أيضاً آية ٢٢ من سورة النور وآية ٥٩ من سورة الأحزاب.

مَنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبْرُوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» [المتحنة: ٨].

وفي الوقت نفسه ينبغي إعداد القوة الكافية لقمع العدو والقضاء عليه، وقد قال تعالى في هذا الأصل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وأمر بالحدز والتحرز من مكائد العدو وانتهازه الفرص فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، وقال: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]^(١).

أما داخل الجماعة الإسلامية فإن القرآن الحكيم يحدد مبدئين:

أحدهما:

دعوة المؤمنين ليكونوا جماعة واحدة متماسكة ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

الثاني:

مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ﴿وَأَقْبُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

د - الفضيلة في المعاملات الدولية وبين الأديان: لم تتح للديانتين اليهودية والمسيحية إقامة علاقات مع دول معادية ولكن الوضع اختلف في عصر النبي ﷺ، حيث أصبح أسوة في مجال الأخلاق، وقائداً في مجال السياسة أيضاً.

ونورد بعض المبادئ التي وضعها القرآن -بالإضافة إلى ما سبق في الحرب الشرعية- لدفع العدوان ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٩٠]، ثم تتوقف الحرب عند انتهائها ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، والأمر باحترام العهود والمواثيق في العلاقات الدولية ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [سورة النحل: ٩١].

لقد اقتضت مهمة الرسول ﷺ كسياسي وقائد، تشريعاً أخلاقياً لظروف الحرب

(١) الإسلام دين كامل، محمد الأمين الشنقيطي ص ٢٢ - ٢٣ مكتبة ابن تيمية - الجزيرة.

والسلم، كما تبين لنا هذه الآيات وغيرها، إلى جانب القواعد التي حددتها السنة ^(١).

ثالثاً:

جاءت طرق الإلزام في القرآن الكريم متنوعة كاملة، ففي الدراسة التي أجراها الشيخ نديم الجسر في هذا الصدد، بين طرق الإلزام التي فصلها القرآن الحكيم وشعبها، كما أوضح الكبائر والصغائر والأخلاق والآداب، مفصلاً أبواب التهيب والترغيب، متبعاً طرق التربية الأخلاقية التي تهذب النفس وتقومها.

وتكاد تنحصر طرق الإلزام في القرآن الكريم في ستة أنواع، كما استخلصها الشيخ نديم الجسر في بحثه الجامع بين دراسة النفس والأخلاق في الإسلام، نلخصها فيما يلي ^(٢):

(١) الإلزام بوازع العقل:

إن مزية الإسلام الكبرى على باقي الأديان هو منحه العقل السلطة في الفهم واستنباط الأحكام، والآيات القرآنية التي تحث على تحكيم العقل، وترك اتباع الظن لا تكاد تحصى، ذلك لأن عقل الإنسانية في بدايته، وأثناء مراحل الأولى كان عاجزاً أمام التجارب المحدودة أن يدرك الخبر، وأن يحدد مكارم الأخلاق ومساوئها، وكان الوحي السماوي يتولى هذا التحديد بواسطة الرسل. وعندما تكامل العقل الإنساني، وبلغ حدّاً يستطيع أن يعرف الحق والخير «أنزل الله - سبحانه وتعالى - آخر كتبه على آخر رسله ﷺ وجعل للعقل بمقتضى هذه الشريعة الأخيرة السلطان الأعلى في إدراك حكمة ما حدده القرآن من المبادئ العامة لخدمة الحق والخير ومكارم الأخلاق» ^(٣).

إن آيات النظر العقلي، والحض على النظر والتفكير والتدبر كثيرة في القرآن

(١) المرجع نفسه ص ١١٣.

(٢) القرآن في التربية الإسلامية للشيخ نديم الجسر، وهو بحث جامع عميق يحتوي على دراسة قضايا حيوية في النفس والأخلاق، ويقع في نحو ٧٥ صفحة من القطع الكبير، منشور في مجلة مجمع البحوث الإسلامية، عدد خاص بعنوان (التوجيه الإسلامي للشباب) ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م، ويعرف الإلزام بأنه إلزام المكلف بتصديق ما قرره من الحق وتنفيذ ما شرعه من الأحكام والأخذ بما وصى به من مكارم الأخلاق، والعزوف عما نهى عنه من مساوئها.

(٣) نفس المصدر ص ٨٨.

الحكيم، مع وصفه للغافلين بأنهم يعيشون كالأنعام، لاحظ لهم في تزكية الأنفس أو تثقيف العقول، وهكذا أبطل القرآن الحجر على حرية التفكير، حيث كانت التقاليد الدينية قد كبّلت هذا الرق البشرية «وأن أكثر ما ذكر فعل العقل في القرآن قد جاء في الكلام على آيات الله، وكون المخاطبين بها، والذين يفهمونها ويهتدون بها، هم العقلاء»^(١).

ولئن كان من «أشرف ثمرة العقل معرفة الله تعالى وحسن طاعته، والكف عن معصيته»^(٢)، فإن من البديهي أيضًا الإلزام بوازع العقل في المحيط الأخلاقي^(٣).

(٢) الإلزام بوازع الضمير «أو النفس اللوامة»:

ولكن الإلزام العقلي لا يتم إلا للقلّة من الحكماء، الذين يعبدون الله تعالى، ويطيعون أوامره، لأنه - سبحانه - مستحق بذاته للعبادة، وأن أوامره مستحقة الطاعة.

ولكن الكثرة الغالبة لا يكفيها وازع العقل، وتحتاج إلى وازع الضمير كزاجر يبعدها عن الذنوب التي تخفى على أعين الناس، ولا ينهاها العقاب الأرضي بواسطة البشر. وضمير المؤمن موصول بالله سبحانه وتعالى، فهو يعيش في حراسة ضميره، ويقظة «نفسه اللوامة»، وهي بمثابة «محكمة أمن» داخل الإنسان «لا يمكن خداعها ولا الإفلات منها ولا تجدي عنها المعاذير، لأنها مرتبطة برقابة عليا، إنها لوامة دائماً، توجه إلى صاحبها إنذارات التأنيب، حتى ترده إلى الخير»^(٤).

(٣) الإلزام بالترهيب والترغيب:

تنوعت أساليب القرآن الحكيم من حيث الترهيب والترغيب.

ففيما يتصل بالترهيب: فإن - الله سبحانه - وتعالى يحذر العاصي من انتقامه في النفس والأولاد والثمرات، هذا في الدنيا. أما في الآخرة، فالتحذير من أهوال القيامة وعذاب النار.

(١) الوحي المحمدي - محمد رشيد رضا ص ١٨٣ - المطبعة السلفية.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة - للراغب الأصفهاني ص ٦٦.

(٣) القرآن في التربية الإسلامية لنديم الجسر ص ١٠٤.

(٤) دروس ونفوس ج ١ ص ٢١٠ للدكتور/ توفيق سبع - ط مجمع البحوث الإسلامية.

وفي جانب الترغيب:

وعد بخير الدنيا وزيادته لمن يشكر وحفظ النعمة على من يحافظون على سلوك الطريق المستقيم، ووعد المتقين بالجنة في الآخرة بما فيها من نعيم دائم، لتعويض المحرومين من خير الدنيا في المآكل والمشارب والمساكن وغيرها، وهو وصف يعترض عليه بعض الجاهل والمشككين الذين يملأ الزيف قلوبهم، أما الذين يدركون خفايا النفس البشرية في شدة حبها للخير والنعيم، ونقمتها من الحرمان، فإنهم ليعلمون أنه وصف لازم وضروري، وفي منتهى الحكمة^(١).

(٤) الإلزام بوازع الكفارات:

ومن أساليب تربية الضمير، تفويض -الله سبحانه- وتعالى إلى العبد أن يعاقب نفسه جزاء لما اقترفت يده، وتكفيراً عن بعض الذنوب كالصوم، وهي عقوبة جسدية أو عتق رقبة، أو إطعام المساكين وهي عقوبة مالية. وهكذا يظهر لون من امتحان الإيمان وتعود الإنسان على محاسبة نفسه، بعد الإقرار بذنبه والإذعان لحكم ربه «وفيها تربية للضمير، واستحضار للرقابة الإلهية، وتعويد على حفظ الإيمان، والكف عن بعض المخالفات».

(٥) الإلزام بوازع الرأي العام:

ومن الأساليب التي امتاز بها القرآن في التربية، هو الأخذ بمبدأ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر على قدر الطاقة، ولا سيما في النهي عن منكرات الأخلاق التي لا تمتد إليها يد القوانين، والحديث أيضاً يؤيد هذا الأسلوب وهو قول النبي ﷺ: «من رأى منكماً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه».

(٦) الإلزام بوازع السلطان:

وقد لا يصلح مع بعض الناس أنواع الإلزام السابقة، لذلك كان لابد من وازع أعظم، وهو وازع السلطان، حيث قيل: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» وهي العقوبات المختلفة التي فرضها القرآن على بعض الجرائم، وفوض أمرها إلى

(١) القرآن في التربية الإسلامية للشيخ نديم الجسر ص ١٠٥.

(١) «الحكام».

وبعد هذه الدراسة المختصرة للأخلاق في الإسلام، رأينا كيف تتضاءل الأخلاق البوذية إلى جوارها، وكيف تصبح متجردة من أية مقومات لترتفع بقامتها إلى المذهب الأخلاقي المتكامل، كما وجدناه بشموخه وكماله متحققاً في الإسلام مما يؤكد مصدره الرباني.

وتحول الآن لنعقد موازنة أخرى لكي يعرف منها كيف أثرت البوذية في الديانة المسيحية، مكتفين ببعض النصوص المتطابقة في المضمون، ولا نختلف إلا في وضع اسم المسيح ﷺ بدل «بوذا».

البوذية	المسيحية
أقوال البوذيين في بوذا ابن الله	أقوال النصارى في المسيح ابن الله
ولد بوذا من العذراء مايا بغير مضاجعة رجل	ولد يسوع المسيح من العذراء مريم بغير مضاجعة رجل
ولد بوذا ابن العذراء مايا التي حل فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد أي في ٢٥ كانون الأول -ديسمبر»	ولد يسوع ابن العذراء مريم التي حل فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد «أي في ٢٥ كانون الأول -ديسمبر».
لما كان بوذا طفلاً قال لأمه مايا: إنه أعظم الناس جميعاً	لما كان يسوع طفلاً قال لأمه مريم: «أنا ابن الله»
لما أرسل بوذا إلى المدرسة وهو ولد أدهش الأساتذة مع أنه لم يدرس من قبل، وفاق الجميع في الكتابة والرياضيات والعلوم العقلية والهندسة والتنجيم والكهانة والعرفاء	لما أرسل يسوع إلى المدرسة أدهش أساتذته ذاخيوس وقال لأبيه يوسف: «لقد أتيتني بولد لأعلمه مع أنه أعلم من كل متعلم».
وعمل بوذا عجائب وآيات مدهشة لخير الناس، وكافة القصص المختصة فيه حاوية	وعمل يسوع عجائب وآيات مدهشة لخير الناس، وكافة القصص المختصة فيه حاوية

لذكر أعظم العجائب مما يمكن تصوره.	لذكر أعظم العجائب مما يمكن تصوره.
ولما مات يسوع ودفن انحلت الأكفان وفتح القبر بقوة غير اعتيادية «أي: بقوة إلهية»	ولما مات بوذا ودفن انحلت الأكفان وفتح غطاء التابوت بقوة غير طبيعية «أي بقوة إلهية»
وصعد يسوع بجسده إلى السماء من بعد صلبه لما كمل عمله على الأرض	وصعد بوذا إلى السماء بجسده لما أكمل عمله على الأرض
وقال يسوع: «لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل».	قال بوذا إنه لم يأت لينقض الناموس كلا بل أتى ليكمّله وقد سره عد نفسه حلقة في سلسلة المعلمين الحكماء
وجاء في كتب النصارى الدينية المقدسة أن الجموع طلبوا من يسوع علامة «أي آية» ليؤمنوا به.	وجاء في كتب البوذية القانونية المقدسة أن الجموع طلبوا من بوذا آية كي يؤمنوا به ^(١) .

(١) مختارات من كتاب (العقائد الوثنية في الديانة النصرانية)، محمد طاهر التنير -الفصل الثامن عشر- مقابلة النص الصريح بين بوذا ويسوع المسيح من ص ١٣٢: ١٤٧- مكتبة ابن تيمية بالكويت. وهناك مقارنات أخرى أجراها السير آرثر فندلاي بكتابه (صخرة الحق) حيث سجل به اكتشاف لوحة أثرية في بابل تثبت أن إلههم (بعل) كان يتصف بنفس الصفات التي ألحقت بعيسى عليه السلام وأن هذه اللوحة كتبت حوالي ١٢٠٠ ق. م كما قارن أيضًا بين المسيحية وعقيدة الفراعنة في أوزوريس (من كتاب محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن) ص ٧٩- ٨١- إبراهيم خليل أحمد - مكتبة الوعي العربي بمصر.

خاتمة

لقد حققنا - بعد هذا العرض الوجيز والموجز للبوذية - بعض الأهداف على طريقة دراستنا للأديان، منها:

١- زيادة الإيمان بأن الإسلام يتفوق على غيره ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] وقد لاحظنا ذلك حتى في الجزئيات والفروع، فإن المذهب الأخلاقي البوذي بدا متهاافتاً أمام المذهب الأخلاقي في الإسلام.

٢- تسليح الدعاة بالمعارف اللازمة لمعرفة المدخل إلى دعوة أصحاب الأديان الأخرى إلى الإسلام، أي: معرفة المحاسن، والمساوئ في عقائدهم، وتقديم البديل الأكثر إقناعاً وواقعية، وملاءمة للإنسان أياً كان عصره وبيئته، وبخاصة ونحن في عصر يتشوق أهله لمعرفة الحق وتحقيق الحياة الطيبة في هذه الدنيا بعد إخفاق الأنظمة الوضعية. يقول جارودي: «فلإسلام اليوم إمكانيات واحتمالات للانتشار في العالم أكثر حتى من الوقت الذي وصل فيه إلى ذروته. فالمنهج الأمريكي والمنهج السوفيتي قد أثبتا فشلهما. أما الإسلام فهو يمنح الإنسان الأمل في عالم يسوده الآن الخوف حتى على استمراره وعلى بقائه»^(١).

٣- إزالة الغشاوة عن أبصار البعض المفتونين بكثير من النحل التي تتمتع ببريق زائف كالبوذية، والتحذير من الوقوع في حبالها تحت ستار رياضة «اليوجا»^(٢)، أو توهم تحقيق السعادة عن طريقها، خاصة إذا جاءتنا عن طريق الكتاب الأوروبيين

(١) من محاضراته التي ألقاها بجامعة الأزهر بمناسبة الاحتفال بالعيد الألفي بعنوان (مستقبل الإسلام في الغرب) ص ٤٩ من كتيب صادر من وزارة الإعلام بمصر - ترجمة الدكتور رجاء ياقوت رئيس القسم الفرنسي بكلية الدراسات بجامعة الأزهر.

(٢) يذكر الدكتور أحمد شلبي أن (منظمة اليوجا) ذات صلة بالصهيونية، وهي منظمة تدعي أنها تباشر ألواناً من الرياضة البدنية والتدريبات الروحية أو ما يسمى (باليوغا الروحية). وأهم ما تعني به محاربة الأديان، والعمل على تحقيق ما يسمى الرباط الإنساني، ثم يصلون بذلك إلى الدفاع عن اليهود باسم الإنسانية ص ٣٥٩ من كتاب اليهودية ط. ١٩٧٨م مكتبة النهضة المصرية. وينظر أيضاً كتاب (اليوغا في ميزان النقد العلمي) للدكتور فارس علوان.

والمروجين لأفكارهم ترفل في ثوب المديح الزائد. ويفيدنا الاستشهاد هنا برأي الأستاذ العقاد حيث يقول: «وعلينا أن نحترس من مغالاة الشراح الأوربيين بهذه الفلسفة البوذية. لأنهم يتعصبون لكل منسوب إلى الأرية على اعتبارها عنصر الأوربيين الأقدمين والمعاصرين، فقد رفعوها فوق قدرها بلا مراء»^(١).

٤- وهناك ملاحظة أخيرة لابد من ذكرها، إذ تحولت البوذية عندما انتقلت من الهند إلى اليابان، فبعد أن كانت في مصدرها الأصلي مليئة بالتشاؤم والانقباض والحزن، تحولت في اليابان إلى «ديانة مرحة ضاحكة متفائلة، فيها بشر وغبطة وفرح، وحفلات واجتماعات ومعابد وإلهيات ومهجة وأعياد وفيها وعد للصالحين بالجنة وللأشرار بالجحيم»^(٢). وهذا يثبت أنه في غياب عقيدة محفوظة بالوحي ومصونة بمنهج ثابت تتلون العقائد بمزاج الأمم التي تدين بها.

كذلك لا يفوتنا في النهاية التحذير من رياضة «اليوجا» التي أغرم بها البعض تقليدًا ومحاكاة- لا سيما عندما دارت دورتها وانتقلت من الشرق إلى الغرب بزعم تحقيقها للشباب الدائم والصحة والسعادة، إذ أثبت الدكتور فارس علوان- وهو طبيب متخصص- أنها على النقيض من هذا، فهي علميًا وعمليًا تؤدي إلى أضرار وأخطار تصيب الجسم، وتقوض عقيدة التوحيد لأنها تلزم صاحبها السجود للشمس وترديد اسمها بانتظام: «وفيها تقليد للوثنيين، وتضر بالصحة، وتضيع الوقت، وتدعو إلى التشبه بالحيوانات، وقد يتردى ممارسوها في تعاطي المخدرات..»^(٣).

(١) (الله) - بحث في نشأة العقيدة الإلهية ص ٧٩ - ط. دار المعارف بمصر عام ١٩٤٩م.

(٢) الديانات والعقائد في مختلف العصور، أحمد عبد الغفور عطار ص ١٩٢.

(٣) اليوغا في ميزان النقد العلمي، د. فارس علوان.